الطيّب صَالح



٣

للمدن تفرد وحديث: الشرق



RIAD EL-RAYYES BOOKS

الطيب صالح

مختارات

الطيب صالح

مختارات

٣

للمدن تفرد وحديث: الشرق



CITIES ARE UNIQUE, EACH TELLS
A DIFFERENT TALE
(EAST)
By
El Tayeb Salih

تحرير: د. حسن أبشر الطيب
محمود صالح عثمان صالح

First Published in March 2005
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21194-7

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: آذار/مارس ٢٠٠٥

الإهداء

إلى أخواني وأصدقائي: بشير محمد صالح، صلاح أحمد محمد صالح، عبد الرحيم الرفاعي، محمود سالم، رجاء النقاش ـ لودهم الذي لم ينقطع ولطفهم الذي لم ينضب

المحتويات

١

بغداد

حين قدمت على بغداد كانوا قد عينوا عبد الحسين زويلف لتوهم مديراً لجهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية. كنت فرحاً بتلك الرحلة، أن مكتب اليونسكو الإقليمي في عمان، الذي يرأسه الدكتور محمد إبراهيم كاظم، قد جنّدني في هذه المعركة. أن أكون أمياً بين الأميين، يا له من شرف عظيم. وقد اتضح لي بالفعل خلال هذه الرحلة، كم أنا جاهل. زرت سبع دول عربية، من العراق إلى المغرب، وفي كل بلد كنت أكتشف أشياء جديدة. لقد طوفت هذا العالم المتنوع الجميل عدة مرّات من قبل، وظننت أني أعرفه، ولكنني اكتشفت هذه المرة، أنني لم أعرفه حقاً لأنني لم أنظر إليه من قبل، من هذه الزاوية، زاوية الأميين. أكثر من مائة مليون أمي في العالم العربي! معنى ذلك أنك لن تستطيع أن تصنع تنمية، ولا أن تقيم حاضراً ولا مستقبلاً. لن تستطيع أن تحقق شيئاً من هذه الأحلام الجميلة التي تعنّ لهؤلاء الناس الأكابر. وإذا صدّقنا شعار

منظمة اليونسكو، وهو حق «بما أن الحرب تنشأ في عقول البشر، فلا بد من إقامة حصون السلام في عقول البشر» فمعنى ذلك أنك لن تستطيع إقامة أي من هذه الحصون، إلا إذا فتحت كل هذه العيون المغمضة.

كانت بغداد جميلة كعهدها، بل كانت أجمل. كان سوق «المربد» عامراً وتبارى الخطباء والشعراء وألقى محمد الفيتوري قصيدته العصماء «لم يتركوا لك ما تقول».

تنفس الناس الصعداء، ودفنوا موتاهم وجففوا دموعهم. الحزن دائماً قريب من السطح في طبع العراقيين الأريحي، ولكنهم تناسوه وأخذوا ينظرون إلى المستقبل بثقة من قاوم وصمد، ودفع الثمن. ينظر حوله ويرى ماذا تهدم وماذا ظل واقفاً. ماذا ضاع وماذا بقي. وكان من بين ما تهدم جهاز مكافحة الأميّة.

توقفت الحملة خلال سنوات الحرب، وبدأت الأميّة تزحف من جديد، حتى وصلت الآن إلى ١٥٪ من عدد السكان حسب تقديراتنا. إلا أن عبد الحسين زويلف كان واثقاً أنهم يستطيعون القضاء عليها بسهولة، وقد صدقته، فقد كانت وراءهم تجربة عظيمة، والحملة التي قاموا بها، أصبحت مضرب المثل في المجتمع الدولي.

استقبلني بابتسامته الودود ووجهه الطيب، ورافقني طوال إقامتي، وكان سعيداً متفائلاً. لا غرو فقد خاض المعركة من قبل، مساعداً لطه يس إسماعيل، الذي كان رئيساً للجهاز التنفيذي. استمرت الحملة سبع سنوات منذ عام ٧٨. لاحقوا الأميين في كل مكان، في الأهواز حيث يعيش الناس في جزر في الماء في مضارب البدو.

في قرى السواد بين النهرين. قضوا على الأمية قضاء تاماً. وكما تتحول أحداث الحروب إلى أساطير، تحولت تفاصيل حملة مكافحة الأميّة، إلى أسطورة مثيرة في خيال عبد الحسين زويلف.

قصدت الكويت بعد بغداد، وهنالك لقيت عبد العزيز النجدي، مدير جهاز تعليم الكبار ومكافحة الأمية في وزارة التربية. رجل آخر من هؤلاء الرجال الصالحين. مثل أخيه في بغداد تماماً. كأنه هو. وقد اكتشفت خلال تلك الرحلة أن كل الرجال والنساء العاملين في ميدان مكافحة الأمية في العالم العربي، هم من طينة واحدة. الطيبة ودماثة الخلق وحب الخير والإيمان العميق بقيمة الإنسان.

بعض المهن والحرف تفعل هذا الأثر في أصحابها. الأطباء، على وجوههم شيء ما، كأنهم يعرفون سراً لا يعرفه بقية الناس، ربما لكثرة ما رأوا من تقلبات الحياة والموت. وهؤلاء يرون معجزات تحدث أمام أعينهم يوماً بعد يوم، هذه الكتل البشرية البكماء، مثل الحجارة قبل أن تصنع منها التماثيل، فجأة تنطق وترى. الرجل في السبعين، والمرأة في الستين، بعد أمد من الظلام، تنحلّ لهم الرموز، وتنفكّ ألغاز الحروف. ك.. ت.. ب.. /كتب/ ع.. ر.. ف.. /عرف/.

نظرت مع عبد العزيز النجدي في فصول محو الأمية إلى وجوه الأميين، رجالاً ونساء، فجأة تشعّ بالحياة حين يقرأون ويكتبون، ترى على وجوههم فرحاً مشوباً بالدهشة، كمن يخرج دفعة واحدة من الظلام إلى النور. ما الذي جاء بهذا الرجل الطاعن في السن؟ وهذه المرأة ماذا يجديها أن تتعلم الآن؟ إنها تلك الرغبة المتأصلة في الإنسان أن يعرف ويدرك ويتواصل بطريقة أفضل مع الآخرين، إلا أن معظم الذين يقبلون على فصول محو الأمية تحدوهم أيضاً

رغبات مُلحّة لتحسين أوضاعهم المعيشية.

وجدت في الكويت جهازاً ضخماً لمكافحة الأمية، وهو أحسن جهاز رأيته في البلاد التي زرتها. كان معدّاً إعداداً عالياً، وفيه كفاءات ممتازة في ميادين البحوث التربوية والبحوث المتعلقة بمكافحة الأمية، من الكويتيين وغيرهم.

تركت الكويت قاصداً صنعاء، وقد حرمني ضيق الوقت أن أعرّج على دار كريمة وأسلّم على ساكنها الكريم، الأستاذ عبد العزيز حسين. كان رئيسنا طوال أربع سنوات في لجنة التخطيط الشامل للثقافة العربية التي كونتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بدعم مالي من دولة الكويت. اجتمعنا في الكويت وفي تونس وفي صنعاء. وكنا نزداد مع مرور الأيام تقديراً وحباً لرئيسنا الفاضل. كانت زمرة طيبة من بلاد عربية شتى وحين انصرفت الأعوام وفرغنا من عملنا، شعرنا بحزن عظيم، فقد طابت لنا الصحبة، وطاب لنا العمل برئاسة ذلك الإنسان الفذ. ومهما يكن فإن تقرير اللجنة، وهو من عدة مجلدات، وقد ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية، سوف يظل أثراً جليلاً في ميدان العمل الثقافي العربي، ومأثرة لا تنسى لدولة الكويت.

غذّت بي الطائرة نحو صنعاء. هنالك سوف ألقى محمد المضواحي، سوف يكون مثل صاحبيه العراقي والكويتي. وسوف أجد صديقي عبد العزيز المقالح. وسوف أزور «حجة» وأرى العيون اليمانية تضيء بالذكاء من ثنايا البراقع.

في العالم العربي، عالم الأميين على الأقل، عالم واحد.

٢

صنعاء

في صنعاء، وجدت محمد المضواحي رئيس جهاز تعليم الكبار ومحو الأمية، كما توقعت. التواضع الجم، ودماثة الخلق، والروح الخيّرة التي تضيء الوجه وتطل من العينين، مثل كل العاملين في هذا الميدان، أصغر سناً من عبد العزيز النجدي في الكويت، وعبد الحسين زويلف في العراق، لذلك فهو أكثر منهما اندفاعاً.

المشكلة في نظره واضحة، والحل واضح. الأمية هي الوباء الذي يجب أن تحشد لمحاربته كل الطاقات وتسخّر كل الإمكانات. لقد بذل اليمن جهداً لا يستهان به، ولكن الحكومات تنظر إلى الأمور من زاوية مختلفة. لا بد من توفير الغذاء للجياع، والعلاج للمرضى، والعتاد للجيوش. وثمة التعليم النظامي، المدارس والمعاهد والجامعات. وإذا كانت الموارد محدودة، فكيف تصنع؟

قابلت في رحلتي بعد ذلك مسؤولين يرون الأمر بخلاف ما يراه محمد المضواحي. يقولون لك إن المشكلة سوف تختفي من تلقاء نفسها حين يعم التعليم النظامي، التعليم عندهم هو الذي يكون بين جدران المدارس، أما فصول محو الأمية، وناس يتعلمون في العراء تحت الشجر، والقوافل المتنقلة، والدروس المسجلة على الفيديو والكاسيت، وتجيء عبر الراديو والتلفزيون إلى غير ذلك من الأفكار الجديدة، فهذا في رأيهم ليس تعليماً. وتسألهم:

«وماذا يحدث حتى يعم التعليم النظامي؟ ماذا تصنعون بأعداد الأميين التي تتزايد يوماً بعد يوم؟ ما هو مصير أولئك الذين يقطعون تعليمهم في سن مبكرة لسبب أو لآخر، ثم يرتدّون إلى الأميّة؟».

ويجيبونك بأنه لا مناص للدولة من أن تضحي بهؤلاء في سبيل إعداد أجيال متعلمة تعليماً صحيحاً في المدارس النظامية.

منظمة اليونسكو كانت المنظمة الدولية الوحيدة التي رفضت هذه الفلسفة الممعنة في القسوة. المنظمات التي بيدها المال مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية، كانت تؤكد على التنمية الاقتصادية، وتؤمن بأنك إذا وجدت الحل لمشكلة الفقر، فسوف تحل المشاكل الأخرى من تلقاء نفسها.

بدأ الحال يتغيّر. أخذت هذه المنظمات تميل إلى وجهة نظر اليونسكو، وتقبل بأن الإنسان الأمي الذي يعيش الآن، لا يعزيه أن الأجيال القادمة سوف تكون متعلمة، وأن له الحق هو أيضاً في أن ينمي الطاقات العقلية والروحية التي منحه الله إياها إلى أقصى مدى، وأن التنمية الاقتصادية التي تبنى على الأمية والجهل، إنما تقوم

على رمال. لذلك فقد أعلن المجتمع الدولي عام ١٩٩٠، بداية عقد مكافحة الأميّة في العالم، بأمل القضاء عليها كلية بنهاية القرن وهو مطلب عسير، ولكنه ليس مستحيلاً، إذا صدقت النيّة وصح العزم. لو تحقق الحلم، فسوف تكون البشرية ككل، قد أنجزت أول ثورة حقيقية في تاريخها. يوجد مليار، ألف مليون أمي في العالم الآن. يوجد مائة مليون طفل لا أمل لهم في الحصول على التعليم النظامي، تصور أي ظلام يلف هذا الكوكب: أي طاقات بشرية معطلة!

وربما لأول مرة يعترف المجتمع الدولي ككل، أن التنمية الاقتصادية ليست هي كل شيء، وأن تنمية قدرات الإنسان العقلية والروحية، وإعطاءه المهارات الضرورية لمواجهة الحياة، لا تقل أهمية عن التنمية الاقتصادية، إن لم تزد عنها في الأهمية. وقد جاء في ورقة العمل الرئيسية التي قدمت في المؤتمر العالمي حول «التربية للجميع»، الذي عقد في تايلاند في آذار (مارس) ١٩٩٠ ما يلي:

«إن التنمية البشرية هي في صميم أي تحرك إنمائي، وإن التربية لكونها عبارة عن تسليح الأفراد من خلال توفير المستويات الأساسية من التعليم، هي حق من حقوق الإنسان، ومسؤولية اجتماعية».

وتقول الوثيقة في مكان آخر:

«إن حلقة الوصل بين التربية الأساسية وتنمية الأفراد والمجتمعات تعتمد على تحصيل مستويات التعلم المطلوبة، لا على مجرد الالتحاق أو الاشتراك في البرامج التعليمية أو الحصول على الشهادات.. يجب أن تتاح لكل الأطفال واليافعين والشباب فرصة

بلوغ مستوى مقبول من التعلم من خلال الفرص المتاحة في التربية الأساسية... عدم توافر فرص الالتحاق في المدارس النظامية يجب ألّا يمنع أي طفل من الحصول على أساس تربوي مشترك يؤهله للحياة أو للتعلم في المستقبل...».

هذا يعني الاعتراف بأمرين. أولاً أن التنمية البشرية هي الأساس في التنمية الاقتصادية ولا تنمية بشرية مع الأمية. وثانياً أن التعليم النظامي، بشكله التقليدي، لا يستطيع وحده حل المشكلة. لا بد من استعمال وسائل جديدة متنوعة، وخاصة وسائل الاتصال الجماهيرية مثل التلفزيون في التصدي لهذه المشكلة الكبيرة.

هذا أيضاً يعني أن محمد المضواحي ورفقاءه العاملين في ميدان محو الأمية في العالم العربي، ومن على شاكلتهم في أنحاء العالم الأخرى، كانوا أبعد نظراً من البنك الدولي وغيره من المنظمات الدولية. لقد مارسوا المشاكل عن قرب، ورأوا الحلول تتكشف لهم على هيئة معجزات تحدث بين أيديهم كل يوم. المشاكل والحلول ليست إحصائيات ونظريات وتصورات يصنعها أناس أذكياء في أماكن بعيدة، إنهم يرونها ماثلة أمامهم في هيئة رجال ونساء يعرفونهم بأسمائهم. كل واحد منهم مثل حبة القمح في كوم القمح، قائمة بذاتها وتنطوي على سر عظيم. غداً سوف تبدأ هذه العوالم المغلقة تبوح ببعض أسرارها. تتحسس طريقها في الظلام. تأخذ في فك طلاسم الحروف. حينئذ ينشأ ضوء يغمر وجوه الأميين، وينعكس على وجوه الذين ساعدوا على حدوث المعجزة مثل محمد المضواحي ومن على شاكلته من عباد الله الأبرار.

■ ■ ■

تسافر من صنعاء إلى الرياض، فكأنك تعبر الجسر من أم درمان إلى الخرطوم بحري، أو من الأعظمية إلى الكاظمية أو من الرباط إلى سلا. تركت صنعاء البلقاء قاصداً الرياض العصماء، وحين تسافر بالطائرة هكذا، تبدو لك هذه العواصم العربية كأنها أحياء في مدينة واحدة. تلمّ بها ليلاً أو نهاراً. الأضواء أوضح هنا، والمطار أكبر هنا، البيوت أسوأ حالاً في مكان، والمآذن أكثر ارتفاعاً في مكان. هنا يبنون بالحجر الأبيض، وهنا يبنون بالطوب الأحمر، وهنا يبنون بالطين الأخضر، وهنا يبنون بالاسمنت والزجاج والحديد. هنا رواب مخضرّة، وهنا صحارى مصفرّة، وهنا نهر جار، وهنا بحر أجاج. وحين تسمع نداءات المؤذنين في الفجر، لا تكاد تميّز أين أنت. الله أكبر في القاهرة كما الله أكبر في بغداد.

جموع تتزاحم في الشوارع والأسواق، أمواج من محيط واحد وحقيقة واحدة. ثوب من نسيج واحد ولكنه متعدد الألوان. ويا لها من ألوان مدهشة إذا نظرت إليها بعين الرضى. إنما لا تتعجل شروق الشمس، ولا تمزق الثوب لأنك تضيق بتعدد الألوان.

في صنعاء ذات القوام الرشيق والسَّمت المميز، لقيت فيمن لقيت، صديقي سيد أحمد الحردلو، الشاعر الموهوب، الذي كان سفيراً ناجحاً للسودان في اليمن. وجدت أنهم خلعوه من عمله. كل عهد تجود به علينا الأيام، لا تقر عينه، حتى يعزل أفواجاً من السفراء والضباط والوكلاء والمدراء ومن هم أدنى من ذلك. كأنهم يقلعون أشجاراً بدأت تثمر ليزرعوا مكانها أشجاراً أخر. وينتظرون الحصاد، ويقولون إن ذلك لأجل مصلحة الوطن. إنه يعلم أنك لا تذبح الناقة الحلوب، ولا تعقر الجمل الطروب.

«رُفاعة الرُبُة قافاها البليب طربان»(*).
ذاك جمل الشاعر الشكري، الذي لو عقره لما قضى وطراً.

وقد قال أبو العلاء رحمه الله:

أأرجـــو لـــهـــا شـــراً ولم أر مـــثـــلـــهـــا
سـفـائـر لـيـل أو سـفـائـن آل

وهـــنُ مُـــنـــيـــفـــاتٌ إذا جُـــزْنَ واديـــاً
تـــخـــيـــلـــتُنا مـــنـــهـــنَّ فـــوق جـــبـــال

ذاك وقد قضيتُ أياماً عامرة مع الأميين بصحبة محمد المضواحي. في اليمن أيضاً قاموا بحملة وطنية لمحو الأمية بدأت عام ١٩٨٢، شاركت فيها الهيئات الحكومية والشعبية والشرطة والجيش، وكادوا يبلغون الهدف. وقد طبقوا النظرية التي بلورها الدكتور محيي الدين صابر، المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وأحسنوا الاستفادة من الجهاز العربي لمكافحة الأمية وتعليم الكبار. إلا أنهم لسوء الحظ ضعفت حماستهم بعد ذلك كما فعلت دول عربية أخرى، فأخذت الأمية تزحف من جديد.

أثناء ذلك جددت العهد بصديقي الدكتور عبد العزيز المقالح،

(*) رفاعة مدينة على النيل الأزرق جنوب شرقي الخرطوم على أطراف البطانة. ديار قبيلة الشكرية العتيدة.
الربة، أي أن سكانها خليط.
قافاها، أي تركها وراءه.
البليب، اسم جمل الشاعر، ود عوض الكريم، ربما لجمال لونه الأبيض، مثل الفضة.

الشاعر العالم الأديب، مدير جامعة صنعاء، وهو أحد الرجال الذين يعتد بهم في العالم العربي. وقد زاد من سعادتي أنه هيأ لي لقاءات مع الطلبة والأساتذة في الجامعة، استفدت منها أكثر مما استفادوا مني. كذلك سعدت بلقاء الأخ حسن اللوزي، الوزير الشاعر. وقد وجدت عندهم أخي سليمان العيسي، الشاعر الكبير ذا الخيال الجموح والقلب الخفّاق، وقد أهدى إليّ أبياتاً من شعره، جادت بها قريحته عفو الخاطر، ما وددت أن لي بها حمر النعم، يقول فيها:

دعنا إذاً في قاعِ النيل
نخرج من «مغطسنا» الطويل
نخرج يوماً يا أخا «القيل»
ليس على الله بمستحيل

ثم سافرنا إلى «حجة» على بعد قرابة أربع ساعات بالسيارة، في طريق متعرجة تصعد في جبال جرد تحتها أودية خضر. ولما بلغنا «حجة» إذا بلدة عامرة تشرف علىمناظر تخلب اللّب. أصبنا الغداء في نزل على ربوة جميلة ثمّة، كانت تتوافد عليه قوافل من السياح الألمان والطليان والأمريكان وغيرهم. يا سبحان الله. جمال بلاد العرب يتمتع به الناس من الشرق والغرب، وأهله عنه في شغل.

طفنا بعد ذلك بصفوف مكافحة الأمية، رجالاً ونساء أذكر منها على وجه الخصوص، صفاً للنساء، تراوحت أعمار النساء فيه بين العشرين وأقل، وما فوق الخمسين، ووجدنا صبية في الحادية عشرة، فضّلت صف محو الأمية على المدرسة النظامية، لأنها أنست أكثر إلى مدرسة محو الأمية، ولأن أختها التي تكبرها سناً كانت في فصل محو الأمية. وقد وجدت في ذلك دليلاً على أن التعليم يمكن

أن يتم حيثما اختار الطالب، وليس حتماً أن يقدم بين جدران المدارس النظامية.

وإنْ أنس لا أنس تلك العيون النجل المشعة بالذكاء، تطلُّ من ثنايا البراقع كأنما إلى أفق قريب المنال.

سوف نصل إن شاء الله. إنما لا تتعجل مولد الفجر. لا تتعجل مولد الفجر يا عمرك الله، فالأمر ليس بيدك، وكل شيء له أوان، النخلة لا تثمر قبل الموسم، والله غالب على أمره.

هذا وقد ابتعدت الطائرة من صنعاء واقتربت من الرياض. إنما هما في خيالي أجزاء من مدينة واحدة، سلام على تلك المدينة. وأنت أيها «الشاعر» لذْت بعالم الأطفال فراراً من عالم الكبار، كما ألوذ بعالم الأميين. أنت في معقلك في «تعز» آليت ألا تكتب إلا للأطفال. تكتب وتنتظر. أرجو ألّا يطول انتظارك، والسلام عليك إذ تقول:

إنـــي ممـــن يـــبـــحـــثـــون عـــن رئـــة
جـــديـــدة «الـــلـــدورة» المهـــتـــرئـــة
أعـــنـــي بـــهـــا دمـــاءنـــا الـــكـــريمـــة
فـــي الأمـــة المنـــكـــوبـــة الـــعـــظـــيـــمـــة

■ ■ ■

٣

الرياض

أنت هنا في نجد، بأريج هوائها الذي دوّخ الشعراء منذ قال قائلهم:

وتحسب سلمى ما تزال كعهدنا
بوادي الخُزامى أم على رس أوعال

نجد التي ناجاها غيلان، وأطنب فيها الشيخ عبد العزيز. هواء رقيق الحواشي حتى في شهور الصيف. نعم تروق لي هذه المدينة الحسناء. تجد مطارها أول ما تصل، مفتوحاً على الأفق، كأنه امتداد له، لذلك فأنت لا تحس فيه بالاختناق الذي تحسه في بعض المطارات، وقد وفّق مصممو معماره في الجمع بين القديم والجديد، فأصبح دون شك تحفة من تحف المعمار المعاصر. ليس مثله مطار جدة، ذو الأجزاء المبعثرة، والأسقف كأنها خيام مقوّضة؟ وعلى

الجدران لوحات جميلة، بينها جدارية للفنان المغربي الشهير فريد بلكاهية، إذا مررت بها في صالة المغادرين للرحلات الدولية، فتريث عندها قليلاً، ففيها فن كثير. تصل، فتهبط في طريقك إلى حيث ختم الجوازات وتسلّم المتاع، إلى باحة فيها شلّالات ماء تنهمر على صخور ملساء، وأضواء رهيفة تصب على أشجار وزرع. يزداد عندك الإحساس بالرفاه والسعة.

كذلك الشوارع، وسيعة، وقد بذلوا جهداً كبيراً في زراعة النخل والشجر على جانبيها، توجد بقايا نخل قديم هنا وهنا، لم تفتك بها بعد الأبنية الحديثة. لعلهم أكثروا من الاسمنت والزجاج. ورغم أنني من أتباع الدكتور حسن فتحي رحمه الله، ولا يعجبني المعمار الحديث عموماً، إلا أنني لا أنكر أن بعض هذه الأبنية الحديثة ذات معمار طريف آخاذ. وإذا كانت دور الحكومة تميل إلى الضخامة، فلا بأس، لأن مساحة القطر شاسعة، والمقياس، الـScale الذي تقيس به، كبير أيضاً.

لكنك تدهش حين تدخل مبنى وزارة المعارف، فهو بناء قديم متواضع بمقاييس مدينة الرياض. وتدهش أكثر حين تدخل مكتب الوزير، الدكتور عبد العزيز الخويطر، فهو مكتب بسيط بكل المقاييس، كان واضحاً لي أنه فعل ذلك عن قصد وليس بسبب ضيق ذات اليد وقد سألته آخر مرة زرته، فأجابني ضاحكاً، أنه يؤثر أن يضع كل موارد الوزارة في المدارس. رجل كريم الخلق، جم التواضع، موطّأ الأكتاف، على دراية وعلم غزير. أعرفه منذ أيام دراسته في لندن في الخمسينيات، تعرفت به عن طريق الدكتور محمد إبراهيم الشوش، الذي كان يزامله في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

قضية مكافحة الأمية من اختصاص وزارته، فهو أيضاً رئيس اللجنة العليا لتعليم الكبار، التي تضم عدة جهات تعنى بذلك مثل وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية والحرس الوطني والرئاسة العامة لتعليم البنات ووزارة الإعلام وغيرها. وهذه اللجنة تضع الخطة الشاملة لمحو الأمية، وتنسق الجهود التي تبذلها الوزارات والمؤسسات الخاصة.

ويعود التفات الدولة إلى قضية مكافحة الأمية في المملكة إلى عام ١٩٤٩، حين وجدت أن الضرورة تقتضي فتح صفوف مسائية للأميين في المدارس. وفي عام ١٩٥٤ انشئت إدارة خاصة لمحو الأمية وتعليم الكبار سميت «إدارة الثقافة الشعبية» كانت تتبع التعليم الابتدائي، ثم استقلت بذاتها، وأصبحت في عام ١٩٧٧ تعرف بـ«ادارة تعليم الكبار ومحو الأمية». وفي عام ١٩٨٥ ارتفعت إلى مستوى الأمانة العامة، وسميت «الأمانة العامة لتعليم الكبار».

هذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على مدى الأهمية التي توليها المملكة العربية السعودية لقضية الأمية، فقد وجدتُ في بعض الدول التي زرتها، أن الجهاز المشرف على مكافحة الأمية، لا تتاح له الإمكانات البشرية والمالية اللازمة، وهذا يعني أن الدولة لا تضع قضية الأمية في درجة عالية في سلم أولوياتها. ولعل لهذه الدول بعض العذر إذ إن مواردها المحدودة لا تفي بكل الحاجات، ولا تتسع لكل المطالب المحلة. ورغم ذلك، فإن جميع المؤتمرات الدولية التي انعقدت لدراسة قضية الأمية، قد أوصت بأن تضع الدول قضية مكافحة الأمية في موضع بارز بين أولوياتها، وأن يكون الجهاز الإداري المشرف على جهود

مكافحة الأمية، على درجة عالية. هذا بالطبع يقتصي التزاماً من الدولة، كما يقتضي إصدار تشريعات وسياسات على أعلى مستوى.

المملكة العربية السعودية واحدة من الدول العربية التي فعلت ذلك فأصدرت التشريعات المطلوبة، وخصصت الموارد اللازمة. ويظهر عمق هذا الالتزام بوضوح، في كلمة قدم بها وزير المعارف، الدكتور عبد العزيز الخويطر، لكتاب أصدرته الوزارة عام ١٩٨٦، عن جهودها في مكافحة الأميّة، جاء فيها:

«والأمم تقاس من جملة ما تقاس به، باهتمامها بالالتفات لهذا الجانب، مجتمعاً وأفراداً، لأن التكاتف يأتي بالنتيجة السحرية المتوخاة، والتراخي إهدار لجهد أي من الطرفين، جهد المجتمع، أو جهود الأفراد المتناثرة... لهذا مجهود الدولة، وما ترصده من أموال، وما توفره من طاقات لا يستغرب. فهي الدولة المسلمة التي أشاد قرآنها، وهو منبع تعاليمها، ومصدر إرشادها ورشادها، بالعلم، وأكد أجر حامله وثوابه في الدنيا والآخرة، وحث على طلبه وتكريم حامليه...».

كل هذا حق، وثمة جهات أخرى غير وزارة المعارف، تقوم بجهد عظيم في مكافحة الأمية، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، وزارة الدفاع ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والحرس الوطني السعودي على وجه الخصوص، يقوم بجهد ضخم لافت للنظر، ربما يكون فريداً من نوعه، في مكافحة الأمية وإتاحة فرص التعليم إلى أرفع المستويات بين أفراده. ورغم ذلك فإن مشكلة الأمية لم تحلّ تماماً، ومعدلاتها ما تزال مرتفعة بالنسبة لمجموع السكان،

ذلك بلا شك، ليس بسبب أي تقصير من جانب الدولة، ولكنه يعزى إلى ظروف بيئية واجتماعية.

■ ■ ■

لم تتوقف جهود المملكة العربية السعودية منذ عام ١٩٤٩ للقضاء على الأمية. وهي جهود متنوعة شملت القطر كله وفق خطة عشرينية هي الآن في نهاية مرحلتها الرابعة.

تعرّفت على تنوع هذه الجهود وكثافتها، من مقابلاتي مع المسؤولين في وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات والحرس الوطني، وغير ذلك من الوزارات والمؤسسات. وقد استفدت فائدة كبيرة من صحبتي للأستاذ محمد بن إبراهيم الفوزان الأمين العام لتعليم الكبار، والأستاذ محمد الحسين مدير محو الأمية في منطقة الرياض. كما زرت مؤسسات عدة، ليست معنية بقضية مكافحة الأمية بطريقة مباشرة، ولكنها تدخل في نطاق اهتماماتها التربوية والاجتماعية. من هذه المؤسسات برنامج الخليج العربي لمساعدة منظمات الأمم المتحدة، الذي يرأسه الأمير طلال بن عبد العزيز. هذا البرنامج الذي تدعمه دول الخليج، والمملكة العربية السعودية بصفة خاصة، أدّى وما يزال، خدمات جليلة للمجتمع الدولي في ميادين الطفولة والتنمية والاتصال وغيرها. ويرجع أغلب الفضل في نجاحه واتساع نشاطاته إلى الجهود الشخصية لهذا الإنسان الكريم، الأمير طلال، الذي ينفق من وقته وماله لتخفيف آلام البشرية في كل مكان. وقد نذر نفسه لهذا العمل النبيل بحيث أصبح الآن واحداً من هؤلاء الناس الأخيار الذين يُشار إليهم بالبنان في الأسرة الدولية. كذلك زرت الدكتور صالح بن ناصر في المجلس الأعلى لرعاية

الشباب الذي يرأسه الأمير فيصل بن فهد، والدكتور علي التويجري المدير العام لمكتب التربية العربي لدول الخليج، كما قابلت في الأمانة العامة لمجلس التعاون الخليجي، الدكتور عبد الله الجاسر، والدكتور عبد العزيز جلال. ولم أغفل وسائل الإعلام والاتصال، وخاصة التلفزيون إذ إن كل الدراسات والمؤتمرات تجمع، على أن بوسع هذه الوسائل أن تقوم بدور فعّال في مساندة الجهود المبذولة لمكافحة الأمية، أعظم كثيراً مما تفعل الآن.

اتضح لي من هذه اللقاءات ثم من زياراتي لفصول محو الأمية برفقة الأستاذ الفوزان والأستاذ محمد الحسين، أن الجهد متصل في مكافحة الأمية، التي أجمع الناس على أنها داء وبيل لا بد من القضاء عليه. وقد سرّني أنني وجدت أنهم دائبون على مراجعة مخططاتهم في ضوء التجربة، وتقويمها واستخلاص العبر منها. وهكذا، فإنهم قد طوروا مناهج الدراسة وعدّلوا، حيثما اقتضت الظروف، الأساليب المتبعة فهم مثلاً يغلقون فصولاً أو مدارس في أماكن يجدون أن الحاجة لا تدعو إليها، ويفتحون عوضاً عنها فصولاً في أماكن أخرى. كذلك فهم ينظمون حملات موسمية في أماكن مختارة لمكافحة الأمية بين البدو الرُحل، ويدعمون المؤسسات الحكومية والأهلية التي تفتح فصولاً لمحو الأمية للعاملين فيها، فيمدونها بالكتب والوسائل التعليمية، ويتابعون سيرها بالرعاية والنصح.

وقد أسعدني أيضاً، أنني وجدت أن وزارة المعارف تنظم حملات شاملة تساهم فيها وزارات أخرى مثل وزارة الصحة والزراعة، في أماكن التجمع السكاني في الريف والبادية، تقدّم فيها إلى جانب دروس القراءة والكتابة، دروس ومواد فلمية بغرض التوعية الصحية والدينية والاجتماعية. هذا ما يسميه الدكتور محيي الدين صابر

المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بـ«محو الأمية الحضارية». فهو يرى أن الأمية لا تقتصر على الجهل بالقراءة والكتابة، ولكنها تتعداها إلى جوانب أخرى لا تقل خطورة، تنضوي جميعاً تحت شعار «الأمية الحضارية». لذلك فهو يدعو إلى أن يصحب الجهد لتعليم الأميين القراءة والكتابة، جهود متزامنة لتعليمهم مهارات تمكنهم من رفع مستواهم المعيشي، وتفجير قدراتهم الكامنة بحيث يستطيعون أن يعيشوا حياة أكثر ثراء، ويكونوا مواطنين فاعلين يساهمون في تنمية البيئات التي يعيشون فيها، وبالتالي في نهضة الوطن عموماً. وهكذا تكون الحملة «شاملة» لأنها تتجه إلى كل أعراض الأمية والتخلف في وقت واحد. هذا «المفهوم» أصبح سائداً في الوطن العربي عامة، ومعمولاً به بدرجات متفاوتة من الجدية.

ومن السنن الحسنة التي استنتها وزارة المعارف السعودية أنها ابتكرت ما أسمته «الأسرة الوطنية لتعليم الكبار»، فقد أصدر وزير المعارف قراراً عام ١٤٠٤ هـ بتكوين لجان استشارية باسم «الأسر الوطنية» تكون ضمن جهاز التطوير التربوي، الهدف منها إسداء النصح للوزارة فيما يتعلق بتطوير المناهج وأساليب التعليم وغير ذلك، وهي تضم إلى جانب المختصين من وزارة المعارف، أعضاء يراوح عددهم في كل لجنة، ما بين ثمانية إلى خمسة عشر عضواً، يراعى في اختيارهم أن يكونوا من مناطق وخبرات مختلفة، ويحبذ أن يكونوا من أساتذة الجامعات والعاملين في مجال التربية والتعليم. وتعمل هذه اللجان مدة ثلاث سنوات. وتجدد عضوية بعض الأفراد إذا دعت الحاجة إليهم مدة أطول.

واضح من هذا، أن وزارة المعارف تعمل على توسيع الدائرة التي

تتلقى منها المشورة في أمور التعليم. والفكرة معمول بها لدى أغلب الدول العربية بأشكال عدة، ولكنها هنا أخذت شكلاً له مقومات الثبات والاستمرار. وقد أصبح من الأمور المقبولة الآن في العالم، أن تطرح قضايا التربية على جمهور أوسع من دائرة المختصين. وبعض الدول، مثل دول إسكندنافيا، تذهب حداً بعيداً في ذلك. ويصدق هذا بصفة خاصة على قضايا تعليم الأميين. والدراسات التي أجرتها منظمة اليونسكو والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمؤتمرات التي انعقدت لهذا الغرض كلها تؤكد على جدوى المشاركة الواسعة في صياغة الأهداف والخطط والوسائل للجهد القومي في التعليم. ويحمد لوزارة المعارف في المملكة العربية السعودية أنها بدأت تسير في هذا الطريق، ربما بشيء من الحذر وقد يأتي يوم تجد بين أعضاء هذه «الأسر القومية» أشخاصاً من غير الأكاديميين والمتخصصين. ربما يكون بعضهم من الذين تعلموا في فصول محو الأمية، ولم لا؟ لقد تخرج الآن بالفعل من هذه الفصول، أناس واصلوا سيرهم حتى نالوا شهادات الدكتوراه وأصبحوا أساتذة في الجامعات.

■ ■ ■

يقول الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، الأستاذ في كلية التربية بجامعة الملك سعود بالرياض، في دراسة حسنة عن تعليم الكبار ومحو الأميّة في المملكة العربية السعودية:

«إن التغلّب على مشكلة الأميّة يعني بناء أمة قادرة على الإنتاج، تتكيف بالتغيّرات الحضارية، ذات قدرة ومهارة فنية، وذات آفاق

واسعة قابلة للتفاعل مع برامج التنمية. ميّالة للعمل الجماعي، مؤمنة بأهمية العلم والتعليم والتكنولوجيا، وناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر».

ها هنا بالطبع تأكيد على الجانب التنموي في قضية مكافحة الأمية، وهو عين الصواب، وإنه الجانب الذي أخذ يلفت انتباه المنظمات الدولية التي تهتم بالتنمية أولاً وآخراً، مثل البنك الدولي وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية. وقد كانت هذه المنظمات كما قلنا، لا تكترث للأمية، وتعتبرها عرضاً سوف يزول بزوال الفقر. ثم اذّكرت بعد أمد أن الفقر لن يزول ما دامت ثمة أميّة.

أما أن الأمة تكون «ناظرة للمستقبل أكثر من الماضي والحاضر»، فهذا قول تختلف بصدده الآراء. ومن جميل ما قيل عنه، ما كتبه الدكتور محمد إبراهيم كاظم أستاذ التربية بجامعة الأزهر، ومدير مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية، في ورقة له عن «بناء القيادات لمواجهة تحديات العصر» قال:

«ومحاولاتنا لرؤية المستقبل إذن، إنما هي في صميمها تحليل منظومي أو نسقي للماضي والحاضر في محاولة لصياغة وتشكيل المستقبل. هذه الصياغة لا يمكن أن تنفصل عن تفضيلاتنا ورؤانا في الحاضر واستهدافنا لصياغة مقصودة ومفضلة لمكوّنات الأحداث والأشياء والأشخاص والأفكار حتى تقع وفق هذه الرؤية. والفرق بين الرجم بالغيب المنهي عنه، والدراسات المستقبلية التي نهتم بها من قبيل الاهتمام بأمور الجماعة والمجتمع، هو أن الدراسات المستقبلية تبدأ في ضوء الحاضر أياً كان، وأياً كان رأينا فيه، بتصور الصيغة التي تمثل تفضيلاتنا لمسارنا نحو المستقبل، وتبين أن هذا المستقبل، لكي يُرجَّح

وقوعه، يحتاج لتوفير مقوّمات ومكوّنات، كما يحتاج - إذا كان موقفنا إيجابياً - إلى الإيمان والعلم والحساب والخيال والأمل والطموح».

وأهم من محض التنمية عندي، أن الإنسان الأمي حين ينفض عنه أغلال أميته، فإنه يصبح هو نفسه، في حد ذاته، إنساناً أفضل، إنساناً أكثر انفتاحاً على آفاق الكون الرحبة وأسراره التي تُغري بالاكتشاف. ولا تعود حياته تقاس بعدد الأعوام التي قضاها على وجه الأرض، ولكن بدرجة عمق تجربته الفكرية والروحية، ومدى قدرته على التواصل مع نفسه ومع الآخرين ومع أصوات الحياة في الكون. وقد عبّر عن هذا المعنى أجمل تعبير المفكر البرازيلي الذائع الصيت، باولو فريري، في عبارة أوردها الدكتور محمد نبيل نوفل، في الفصل الجميل عن هذا المفكر في كتابه القيّم «دراسات في الفكر التربوي المعاصر»، يقول باولو فريري، وهو واحد من الأقطاب الذين جاءوا بمفاهيم عميقة طريفة، عن قضية الأمية في العالم:

«لا يمكن أن يكون الوجود الإنساني صامتاً. ولا يمكن أن يعيش على الألفاظ الجوفاء، بل يعيش على الكلمات الصادقة وحدها. الكلمات التي يغيّر الإنسان بها العالم. أن تعيش، إنسانياً، معناه أن «تسمّي العالم». أو بعبارة أخرى أن تدرك العالم، وأن تتخذ منه موقفاً إيجابياً، وأن تعمل على تغييره. وعندما «نسمي العالم» فإنه يبدو لنا كمشكلة تتطلب تسمية جديدة، أي أننا عندما ندرك العالم المحيط بنا، ونتعرف عليه وعلى التناقضات الموجودة فيه، حينئذ تبرز أمامنا مشكلات تفرض علينا أن نجد لها حلولاً. وحين يتغير العالم فإنه يناشدنا أن نتعرف عليه وندركه من جديد، وأن نتعامل مع الواقع الجديد ونحاول تطويره وحل مشكلاته باستمرار...».

«... الحوار لقاء بين الناس من أجل «تسمية» العالم، لذلك لا يمكن أن يقوم حوار بين من يريدون تسمية العالم ومن لا يريدون ذلك، بين من ينكرون على غيرهم الحق في معرفة العالم وتغييره، وبين من يريدون لأنفسهم ولغيرهم ذلك الحق. ومن ثم يجب على من حرموا هذا الحق في تسمية العالم، أن يستعيدوا أولاً هذا الحق الطبيعي، وأن يمنعوا استمرار هذا العدوان اللاإنساني».

وأول خطوة في سبيل استعادة هذا الحق، هي اكتساب القدرة على التعامل مع الرموز التي تتشكل منها «الأسماء». وقد بسطت لك قبلاً، كيف أن أول ما فعله الـ«أبوروجنيز» سكان أستراليا الأولون، منذ أكثر من خمسين ألف عام، أنهم «سموا الأسماء». ثم جاء الأوروبيون، ومحوا تلك الأسماء القديمة وفرضوا بدلاً عنها أسماء جديدة، وحالوا بين الـ«أبوروجنيز» وبين أن يستعيدوا في ذاكرتهم، الأسماء التي ضاغت منهم. وبهذا المعنى يمكن القول أيضاً، إن كل ما يشكو منه العرب اليوم، من تشويه لتصوراتهم عن أنفسهم، وازدراء بحضاراتهم، وتزييف لمساهماتهم الإنسانية في الماضي والحاضر، إنما يدخل في باب الحرمان من الحق المشروع لكل الناس في المساهمة في «صناعة الأسماء».

وعندي أيضاً، أنه ليس محض صدفة، أن العرب في جاهليتهم، كانوا يحتقرون القراءة والكتابة ويعدّونها ضرباً من السحر والكهانة. وقد تواترت أمثلة كثيرة على ذلك، منها ما روي عن الشاعر النجدي النابغة، ذي الرمة(*)، أنه كان يُملي قصيدة على كاتب

(*) كان ذو الرّمة، واسمه غيلان، شاعراً إسلامياً. إلّا أن بعض عادات الجاهلية، ظلت في الإسلام، حتى انقرضت.

يكتبها له. ووجد أن الكاتب قد أخطأ في كلمة، فقال له: «اكتبها هكذا». فقال الكاتب متعجباً «أو تكتب؟» فقال ذو الرمة «نعم. ولكن اكتم عنّي».

هكذا كانوا يرون الجهل حسنة، ويرون العلم مسبة، فلا غرو أنهم عبدوا أصناماً لا تنفعهم ولا تضرهم.

إلى أن بعث الله سبحانه وتعالى إليهم، رسولاً منهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وتقول «ولكنه هو نفسه كان أمياً ولا يقرأ ولا يكتب».

بلى، ولكنك تعلم، أنه صلّى الله عليه وسلّم، كان له شأن آخر. كان قلبه العظيم مفتوحاً على أسرار الكون، يتلقاها من لدُنْ حكيم عليم. كان فوق الكلمات والحروف، لأنه مفتاح خزائن الأسرار، ومنبع تجليات الأنوار. ومع ذلك فقد كان يحض المسلمين على تعلم القراءة والكتابة، وكان يعتق الأسرى لقاء تعليم عدد من المسلمين. وقد كانت تلك أول حملة لمكافحة الأمية في جزيرة العرب، بل وفي العالم.

■ ■ ■

تكثُر الأميّة في بعض أقطار الوطن العربي، إما لعدم اكتراث الدولة، وإما لعدم توفر الإمكانات، وإما للسببين معاً. ولكن في المملكة العربية السعودية، تجد الدولة ملتزمة التزاماً كاملاً بمكافحة الأميّة ومحاولة القضاء عليها، وقد عملت كل ما يتوقع منها عمله،

فأصدرت التشريعات، وأنشأت الأجهزة، ووضعت الخطط، ووفرت المال اللازم. ومع ذلك فإن إحصائيات منظمة اليونسكو تشير إلى أن معدّلات الأميّة في المملكة مرتفعة بحيث يصبح من غير المحتمل أن يُقضى على الأمية قضاء تاماً بنهاية هذا القرن. اللّهم إلا إذا بُذلت جهود أعظم من الجهود التي تبذل الآن، رغم عظمها، وإلا إذا أقحمت أسلحة إضافية في المعركة، مثل وسائل الاتصال الجماهيري وخاصة التلفزيون.

يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سعد الحميدي، في دراسته الحسنة عن مكافحة الأميّة في المملكة، سببين أساسيين أعاقا الجهد السعودي، أولهما هو:

«تأثير المناخ الاقتصادي المزدهر بالمملكة كعامل سلبي في جهود محو الأمية، إذ إنه يقلل من أهمية الحوافز المادية المقررة، كما يقلل في نظر الأميين، من أهمية التعليم كضرورة لتحقيق الرخاء الاقتصادي لعدم إحساسهم بالحاجة إليه ولانصرافهم إلى اغتنام الإثراء المُتاح بوفرة ويُسر».

حقاً، هذا عائق أساسي لأن من أهم الحوافز التي تدفع الأمّي إلى التعلُّم، الرغبة في تحسين حالته المعيشية. وإذا كانت حالته حسنة بطبيعة الحال، فما الذي يجعله يغامر بالدخول في عالم جديد عليه كل الجدّة، يتطلب منه بذل الجهد، وإعمال الفكر، خاصة إذا كان قد تقدّمت به السن، واستقرت حياته على وتيرة معيّنة؟

ويمضي الدكتور الحميدي في سبْر هذه العلّة فيقول:

«ولا نستغرب هذه النتيجة في مجتمع كان وما يزال يطمح لتحقيق برامج طموحة، أتاحت فرصاً للعمل أمام جميع أبنائه، بما فيهم الأميون، دون أن تضع قيوداً أو شروطاً تمنع الأمّيين من الحصول السهل على العمل، بل والعمل المجزي مادياً، الأمر الذي جعل من العمل المجزي دافعاً لهم للعزوف عن الالتحاق بمدارس محو الأمّية».

هذا قول فيه نظر، وينطوي على تطرّف إلى النقيض ربما دفعت إليه حسن النيّة. أما أن الأميّة داء يجب القضاء عليه فذلك حق. وأما أن الأمي مُصاب يُعزل كما يُعزل الجمل الأجرب ويُحرم حق العمل، فذلك مذهب بعيد لم يذهب إليه أحد. وإذا كان صاحب العمل لا يأنف من تشغيل الأمّي رغم أميته، فلماذا تتدخل الدولة لتحول دون ذلك، مع العلم بأن حق العمل حق أساسي أقرته وثيقة حقوق الإنسان في المجتمع الدولي؟ لا. أفضل من ذلك ما هو متبع الآن ومعمول به في المملكة العربية السعودية وفي دول عربية أخرى. ذلك أن يُكافأ الأمّي على محو أميّته، فتحسن وظيفته ويرفع راتبه.

ثم يضيف الدكتور الحميدي سبباً آخر لا يقل أهمية عن السبب الأول فيقول:

«إن المكانة الاجتماعية للتعلم، وإن كانت قد بدأت تحتل موقعها الطبيعي في تيار التطور الحضاري المتوثب الذي يسود المملكة، إلا أنها لا تزال الأضعف تأثيراً في نظر العامة والأمّيين خاصة، بالقياس إلى نظرتهم الأخرى كالانتماء القبلي...».

نعم، هذا عائق كبير، يحول دون إزالة الأمية في كثير من البلاد العربية، ذلك لأن العُنجهية القبلية العربية، وهي خصلة قلّ نظيرها في العالم، تعطي الفرد، خاصة إذا كان ينتمي إلى قبيلة يُظن أنها ذات محتد وشرف، إحساساً بالتمييز لا يجد أنه يحتاج معه إلى أي شرف آخر. وعندنا في السودان، يرى «الجعليُّون» أنهم أشرف القبائل، وقد يكون «الجعلي» أمياً يخدم عند وزير من قبيلة أدنى في موازين الشرف القبلي في نظر «الجعليين» فيختال عليه تيهاً وفخراً. وهذا جرير يفخر على الفرزدق في بيته الشهير:

مُضرٌ أبي وأبو الملوك فهل لكم
يا خُزر تغلب من أبٍ كأبينا

كان جرير غفر الله له، ابن راعي غنم، وكان أبو الفرزدق رئيساً يشار إليه بالبنان، ومع ذلك انظر أي جرأة وعُنجهية!

ثمة عائق آخر يشير إليه الدكتور الحميدي عرضاً فيقول:

«أما ما يتبقى من الأميين، وخاصة من «النساء» وسكان الهجر والبدو الرحّل، فهؤلاء تجد الدولة مشقة كبير في جذبهم إلى برامج محو الأمية».

قضية الأمية بين النساء في العالم العربي قضية كبيرة، وإحصائيات منظمة اليونسكو تؤكد أن نسبة الأميّة بين النساء في العالم العربي، أعلى منها بين الرجال. والمملكة العربية السعودية من الدول العربية التي ترتفع فيها نسبة الأمية بين النساء بشكل لافت للنظر، رغم الجهود التي تُبذل لمحاربتها.

سوف نواصل الحديث في ذلك إن شاء الله. إنما هي جميعاً عوامل

متشابكة تؤدي في نهاية الأمر إلى ما اتفق على تسميته بـ«التخلُّف»، والتخلف يساعد على استمرارها وفتكها بجسم المجتمع. إنها قيد متين ذو حلقات مترابطة، ولا بد من كسر القيد بوسيلة أو بأخرى، كي يستطيع المجتمع أن يسارع الخطى وينتج ويبدع، وقد يحلّق في آفاق لا تخطر على البال. وإذا كانت توجد وسيلة واحدة أنجح من غيرها، فتلكم التعليم.

■ ■ ■

ترتفع نسبة الأمية بين البدو وبين النساء، كما تقول الإحصائيات، والمشكلة ذات طابع خاص بين البدو، فالبداوة كما نعلم نهج حياة، ولها أصول قديمة، بعضها يعوق جهود محو الأمية مثل القيم القبلية التي أشار إليها الدكتور الحميدي في دراسته. وبعض الناس يتحمس لحالة البداوة الى حد المناداة بالمحافظة عليها، إذ إن فيها، على علاتها فضائل كثيرة.

لا يُنكر أن ثمة سحراً خاصاً في هؤلاء القوم، الذين ظلوا مرتبطين بتلك الفيافي الواسعة، وتلك الآفاق الممتدة كأنهم بقية من عهد غابر، وهو سحر جُذب إليه رجالاً ونساء من وراء البحر، أمثال «داوتي» صاحب «أرابيا دسيرتا» و«ثسجر» الذي طاف بالربع الخالي، و«ليدي هسْتَرْ ستانْهوب» التي فضلت البادية على حياتها المرفهة في لندن. ويا ليت، تقول يا ليت، لو توقف الفلك عن الدوران، لو بقيت الأشياء على حالها كما كانت على عهد ذي الرّمة وأضرابه، لكنها سنّة الحياة، وهي خيارات صعبة ولا بد من ضياع شيء مقابل شيء.

ومهما يكن، فإن من أكبر الجهود التي تُبذل لمحو الأميّة بين البدو،

تقوم بها هذه المؤسسة الفريدة، الحرس الوطني السعودي. وبما أن معظم ضباط وجنود الحرس الوطني من أصول بدوية، فقد اكتسبت هذه المؤسسة بطبيعة ظروفها، مسؤوليات تربوية وثقافية واجتماعية بالإضافة إلى وظيفتها العسكرية.

وهكذا، فإلى جانب المعاهد العسكرية، أنشأ الحرس الوطني مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومدارس لتعليم المهارات مثل أعمال الصيانة وسواقة السيارات وغيرها. كذلك توجد مدارس عادية في المستوى الابتدائي والثانوي بعضها نهاري وبعضها مسائي. بالإضافة إلى ذلك توجد مدارس خاصة بمحو الأمية، تستوعب الأميين أول ما يدخلون الحرس الوطني وتعلمهم القراءة والكتابة ثم يواصلون دراستهم في أقسام المتابعة حيث ينالون الشهادة الابتدائية للكبار. بعد ذلك يجد الجندي الطريق مفتوحاً أمامه، لا يكاد يعوقه عائق عن الوصول إلى أقصى ما تسمح به قدراته.

يتم هذا النشاط بالتعاون الوثيق مع وزارة المعارف. وهو نشاط واسع، فعلى سبيل المثال بلغ عدد فصول محو الأمية في عام ١٤٠٢ ـ ١٤٠٣ هـ ١٦٧ فصلاً ضمت أكثر من أربعة آلاف دارس. وليس نادراً أن يقابل الإنسان ضباطاً كانوا أميين حين التحقوا بالحرس الوطني، ثم درجوا في مدارج التعليم انطلاقاً من فصول محو الأميّة إلى أن أرسلوا في بعثات تدريبية خارج المملكة، وقد تجدهم يتحدثون الإنجليزية والفرنسية.

يصاحب هذا بطبيعة الحال، تحوّل في أسلوب العيش بالنسبة لهؤلاء الشباب. بعد البادية والخيام والإبل، يجدون أنفسهم وذويهم يعيشون في مجمعات سكنية تتوافر فيها كل أسباب الحياة الحديثة.

ولا بد أنه تحول لا يخلو من بعض المعاناة، ولكن يخفف من أي ألم قد يحسّونه من هذه النقلة الكبيرة في أسلوب العيش، أنهم يظلون على صلة بجذورهم في البادية، ينتقلون بينها وبين نمط حياتهم الجديدة. وذلك، على أي حال ثمن لا بد للمجتمع أن يدفعه لقاء «التقدم». والمجتمع المحظوظ هو الذي تكون أرباحه أكثر من خسائره في غمار هذه التحولات.

وليس أحد أكثر إدراكاً لكل هذا، من الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، نائب مساعد رئيس الحرس الوطني، الذي يهتم بهذه الأمور بحكم طبيعة عمله. لا غرو، فهو من بادية نجد، وقد جرب هذه التحولات بنفسه، وذاق حلوها ومرّها. والذي يقرأ كتبه المليئة بالشاعرية والحكمة، ويتابع حرقته وهو يقف كالشعراء الأوّلين على الأطلال بين اليمامة والدهناء، يحسّ مدى عناء الإنسان الذي يفقد عالماً أليفاً، على علاّته، ويكسب عالماً أكثر رفاهة ولكنه أقل ألفة. ومن هذا، يدرك المرء بوضوح عمق التجربة الإنسانية التي خاضتها المملكة في تاريخها الحديث.

أما فيما يتعلق بمكافحة الأميّة بين النساء، فإن إحدى العقبات الكبيرة هي انعدام الحافز القوي للتعلّم. ففي حالة الرجال، يوجد حافز واضح، وهو تحسين الوضع الوظيفي، وزيادة الراتب، وتحسين الوضع الاجتماعي عموماً. أما النساء الأميّات فليس لديهن حافز كهذا. هذا بالإضافة إلى أن المرأة تجد صعوبة أكثر من الرجل في الخروج من بيتها والذهاب إلى فصول محو الأميّة، رغم أن المسؤولين يحاولون تذليل هذه الصعاب، بتوفير وسائل النقل، وجعل دروس محو الأميّة للنساء تنتهي قبل مغيب الشمس.

■ ■ ■

بدأ المجتمع الدولي يرى بوضوح أكثر أن التعليم هو أحد المنطلقات الرئيسية، أو هو المنطلق الرئيسي لصياغة المستقبل، وبناء عالم منتج مستقر يتيح لقطانه الفرص لتحقيق ذواتهم إلى أقصى ما تسمح به مواهبهم. كذلك أدرك أن عليه أن يكسر أغلال الأمية التي تُثقله، كي يواجه القرن الواحد والعشرين بحرية وثقة. وهكذا وحدت أربع منظمات دولية جهودها، فعقدت مؤتمراً في تايلاند تحت شعار «التربية للجميع». هذه المنظمات هي اليونسكو واليونسيف وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والبنك لدولي. وتقول الوثيقة المشتركة التي قدمتها هذه المنظمات للمؤتمر:

«تحديد أولويات الإنفاق العام ضروري، إذ يواجه كل بلد في المدى القصير درجة من طلب فرص التعلم أكبر مما يمكن توفيره. وعلى هذه الأولويات أن تشجع البرامج التي تصل بعض الفئات الخاصة، مثل تلك التي تمثل نقصاً في تكافؤ الفرص، دون عزل متعمد لأي مشترك محتمل. وتنوّه الاعتبارات المعنية بالمساواة والفعالية، إلى أن الأفضلية الأولى في الموارد العامة، يجب أن تكون للتربية الابتدائية. ولكن يجب أن توضع الأولويات داخل مفهوم شامل طويل المدى، ينفذ على مراحل حتى يحصل الجميع على فرصة الاستفادة من التربية الأساسية، وذلك من أجل المساواة ولتأمين حاجات التعلم الأساسية للجميع».

هذا يعني أن على كل جيل أن يبذل قصارى جهده لحل المشاكل في وقتها، وألّا يترك حلها للأجيال القادمة، حتى لا تتراكم المشاكل إلى درجة تستعصي على الحل كلية. في الوطن العربي اليوم أكثر من مائة مليون أمي. هذا يعني أن الأجيال الماضية قد قصرت بشكل ما. صحيح أنه توجد بعض المبررات لهذا التقصير، ولكن

واقع الأمر هو أن ها هنا ديناً ثقيلاً ألقي على كاهل الجيل الحاضر. على هذا الجيل أن يطرح عن كاهله هذا العبء، بالإضافة إلى الوفاء بمسؤولياته التي تفرضها الحياة الحاضرة.

وتمضي الوثيقة فتقول:
«إن الوضع الراهن للتربية الأساسية غير كافٍ لتأمين حاجات التعلم الأساسية لجميع الأطفال واليافعين والراشدين. وإذا استمرت الاتجاهات الحالية والطرق التقليدية المستعملة في التربية والتدريب، فمن المؤكد أن وضع التعلّم في العالم سيتردى، وسيزيد هذا من حدة المشاكل العالمية عوض أن يساعد على معالجتها...».

«العالم» الذي تتحدث عنه هذه الفقرة هو «العالم الثالث». والوطن العربي عموماً ينضوي تحت هذا «العالم». ولعل المرء يعجب، أنه رغم الجهود التي بذلت في مجال التعليم في قرابة نصف القرن الماضي، وبعضها جهود باسلة، فإن معدلات الأميّة في الوطن العربي ما تزال أعلى منها في أغلب أقطار العالم الثالث.

ارتفاع نسب الأمية أو انخفاضها، يمكن أن يعتبر «رمزاً» لمدى نجاح أي دولة أو إخفاقها في الوفاء بالتزاماتها لشعبها في الحاضر والمستقبل. كل إنسان أمي أو إنسانة أميّة، هو بمثابة «نصب تذكاري» متحرك، ذكرى مجسمة عن واجب أهمل إنجازه ودين أغفل سداده. وإذا تراكمت هذه الديون على أمة، يصبح وضعها عسيراً إن لم يكن مستحيلاً.

وقد أجمعت الدراسات عن الأميّة في العالم العربي، على أن الأميّة أكثر ما تكون بين النساء خاصة إذا كن من البادية أو

الريف. وهي كذلك في البلاد العربية قاطبة، دون استثناء، بدرجات متفاوتة. وأحياناً تفعل الدولة كل ما يجب عليها فعله، فتفتح المدارس، وتعد الفصول، وتهيئ المدرسين، ومع ذلك لا تُقبل النساء على التعلم. توجد أسباب كثيرة، منها المفاهيم الخاطئة والنظرة البيئية المعوجة. وقد سرني أنني وجدت في سورية مثلاً، أن المراكز التي يشرف عليها الاتحاد النسائي، تنظم ندوات لتوعية الرجال أيضاً، ففي أحيان كثيرة يكون الرجل هو العائق للمرأة من التعلم، فيمنع زوجته أو ابنته من الالتحاق بفصول محو الأمية.

لقد وجدت في رحلاتي في العالم العربي، في المهمة التي كلفتني بها منظمة اليونسكو، أن وسائل الاتصال الجماهيري، وخاصة التلفزيون، تستطيع أن تساهم مساهمة أكبر بكثير مما تفعله الآن، في حل مشكلة الأميّة. هذه الوسائل بما لها من قدرة على التأثير، تستطيع على الأقل، أن تخلق مناخاً عاماً، تكون فيه الرغبة في الحصول على المعرفة، أمراً مستحباً ومألوفاً. الجهد الذي يبذل الآن، هو في أحسن الحالات، جهد مبعثر ينقصه الالتزام الثابت، والإدراك العميق لخطورة المشكلة التي يتحتم على العالم العربي أن يحلها.

مشكلة الأميّة في الوطن العربي مشكلة ليست عادية، وتحتاج إلى جهود غير عادية لحلها، أو كما تقول الوثيقة الدولية:

«هناك حاجة ملحة لرؤية جديدة في التربية الأساسية تجعلها تركز على التعلم، وتوسّع هذه الرؤية مجال التربية الأساسية لتشمل نطاقاً واسعاً من الفئات والمجموعات ومن طرق تقديم التعلّم لها، وتحشد

موارد حكومية خاصة واجتماعية إضافية وتنشئ تحالفات جديدة بين المؤسسات والوكالات المختلفة المعنية بالتربية الأساسية، وتقوّي مناخ التعلّم».

٤

مكة المكرمة

إنك لا تدخل المدن، ولكنك تغوص في أعماق ذاتك، بحثاً عن صور المدن في خيالك. مكة المكرمة ما هي في الواقع المرئي؟ مجرد مكان. بطحاء ضيّقة تكاد تخنقها الصخور الجُرد التي تحيط بها. عمارات وطرق وأسواق. وجموع من البشر. بعض قُطان هذا المكان، يبيعون ويشترون، ويأكلون ويشربون، ويروحون ويجيئون، وكأنهم في قرية أخرى، وكأنهم في واد آخر.

سبحان الله. في هذا المكان بالذات، هرولت المرأة، وصرخ الطفل، وانبثق النبع. ثم توافدت أفئدة الناس وارتفعت أركان البيت.

ثم تفجّر نبع آخر، تفجر بعد قرون، وتفجر في اللحظة نفسها، وتفجّر منذ الأزل، قبل أن تكون السماوات والأرض. امرأة أخرى وطفل آخر. كان إسماعيل مثل اليتيم، وهذا محمد بن عبد الله،

يتيم بالفعل. أشرقت السماوات والأرض. كفّت الذئاب في الوديان عن مطاردة الغنم، ولبدت السباع في شعاب الجبال، وسكنت الطيور في أوكارها. أرهف الزمان سمعه للصوت العجيب، الذي يأتي من كل مكان ومن لا مكان. ولم يدر أهل مكة، إلا السعداء الذين كانوا يعلمون وينتظرون، أن ميلاد الطفل العربي اليتيم، كان بشيراً بمولد عالم جديد، انطلاقة فرح كبير، له وقع المأساة.

لذلك، فأنت حين تدخل مكة، فإنك لا تدخل مدينة بعينها، في مكان بعينه، في زمان بعينه، تجيء وكأنك تعود إلى نقطة منطلق الأحداث وكأنك تدخل في مركز الدائرة. وأنى لك يا مسكين أن تقوى على كل ذلك؟

تعالَ عند الفجر أو في الضحى أو قبيل الغروب. تعال في الصيف أو في الشتاء، تعال من أم درمان أو من أصفهان أو تطوان. تعال من جدة. سِرْ في الطريق الذي سارت فيه قوافل المحبين الأوائل رحمهم الله أمثال حاج الماحي، واغطس في لُجّة الليل، وانهلْ من ضوء الفجر، وافتح نوافذ روحك قدر المستطاع لانعكاسات ألوان السماء والأرض والجبال.

حين تدخل أم القرى، وترى مآذن البيت العتيق المعمور، فإنك لن تكون مُهيّأً للدخول، ولن تكون أهلاً للدخول. لا تتعجل. تريث قليلاً وانظر إلى حشود الراكعين والساجدين. انظر إلى الطائفين حول الكعبة، كما يجري الماء في عروق الشجرة. تخيّلْ نقطة البدء كما وصف التجاني يوسف بشير رحمه الله:

رَبٌّ في الإشراقة الأولى على طينة آدمْ

أمم تـزحـم فـي الـغـيـب وأرواحٌ تحـاوَمْ

ادخل الآن في الزحام. إنك عار كما ولدتك أمك لو تدري، رغم الإزار حول وسطك وعلى كتفيك. كانوا يطوفون عُراةً في الزمان الأول، زمان بكورة الحياة، ولم يكن ذلك مِن أفعال البذاءة. البذاءة جاءت حين سقطوا وسقط عنهم لباس الطُهر الفردوسي، وبدت لهم، كما بدت لآدم وحوّاء، سوءاتهم.

اندسّ في غيابات الزحام، فأنت في الحقيقة لا شيء، لا أكثر من نثار الهباء في ملكوت الله، مهما بلغ شأوك في موازين أهل الدنيا. فُك الأغلال التي كبلتك بها الدنيا. تخفّف من أثقالك قدر المستطاع. إن كنت صاحب جاه فارم عنك أعباء جاهك، وإن كنت صاحب مال، فألق بخزائنك في هذا البحر، وإن كنت صاحب اسم أو صيت، فلن يغني عنك اسمك ولا صيتك في ذلك الزحام. انْس إن استطعت، ولكنك لن تستطيع، فأنت في الدنيا وبها، وهي محيطة بك مثل الموت، أقرب إليك من حبل الوريد. إنما حاول جهدك، فوشيكاً سوف تعود إلى ما كنت فيه، وقد تفيق وقد لا تفيق.

قبّل الحجر الأسود فهو ليس حجراً، وتعلّق بأذيال الكعبة، واستنشق العطر، فهو ليس من عطور هذا الزمان. وتكون سعيداً إذا جرت الدموع من عينيك، وخفق قلبك واهتزّت أركان ذاتك.

هرولْ بين الصّفا والمروة، كما هرولت أم الوليد أول الأمر، والطفل يبكي، ولا ماء ولا قوت ولا أهل، وشيء جليل يوشك أن يحدث له طعم المأساة.

ثم اجلس في صحن المسجد، وتأمّل وتمهّل، وتزوّد وسعك. عما

قليل سوف تعود إلى ما كنت فيه. سوف تطمرك الحياة بهمومها وأهوائها وأكاذيبها. سوف تعود إلى جاهك وسلطانك، إلى مالك وخدمك وحشمك، إلى اسمك وصيتك. كنت متسربلاً وأنت عار في هذا المكان. وحين تتلبّس ثيابك وأوهامك وشهواتك، سوف ترتدّ إلى عُريك القديم. فتمهّل ولا تعجلْ، وقد تُفيق وقد لا تفيق.

■ ■ ■

رحم الله ذلك المُحب المتيّم (حاج الماحي)، أراه وأسمع صوته كلّما زرت هذه الأماكن الطاهرة.

اسمه الماحي بن محمد بن الشيخ بن أحمد بن عبد الله. وُلد في قرية (الكاسنْجَدْ) في ديار المناصير، قريباً من ديارنا في شمال السودان. كان مولده عام ١١٩٤ للهجرة، وتوفي عام ١٢٨٧.

كان من كبار المحبين، من طراز البُرعي والبوصيري، وخصص شعره كليّة لذكر الأماكن المقدّسة، ومدْح الرسول صلّى الله عليه وسلّم. كان مغنّياً حسن الصوت في أول شبابه.. وهو يصف تحوّله من الغناء إلى (المديح) في قوله:

عيب شبابي ألْ سرَخْ
والله، لأبْ شوقاً جرخْ
قام العَبيدْ من نومُه صَحْ
لقي جنْبُه لبناً في قدَحْ
سمّى وشرب، زينْ أتْنتَحْ[1]
حمَدْ الإله، حالُه انْصلَحْ
جَدْ في السؤال لى ربُّه لَحْ
قال يا كريم، بابه انْفتحْ

أعـــطـــوه تُـــفّـــاحـــات بـــلَـــحْ
حـــين ذاقْـــهـــا قـــال دمّـــاغُـــه (تَّحْ)
رادْ الجلـــيـــل، قـــلـــبُـــه انْـــشـــرحْ
طـــابْ عـــقـــلـــه مـــســـرور بـــالـــفـــرح
جـــابْ لـــي شـــفـــيـــع الـــنّـــاس مِـــدَحْ
شَـــتَـــمـــهُ الـــهـــبـــيـــسْ دقّ وْنـــبـــح
الـــسَّـــمْـــعُـــه فـــي جـــوفـــه انْجْـــرح
مـــن شـــوق حـــبـــيـــبُـــه يـــســـوِّي (أَحْ)

المقصود بـ (الحبيب) في البيت الأخير هو بالطبع الرسول صلى الله عليه وسلّم. و(الشتم الهبيسْ) هو الدُّفِ الذي يُنقر عليه خلال الإنشاد، يسمّى (الطّار). وما أجمل قوله (أعطوه تفّاحات بلح) إذ إن ديار شمال السودان، بلاد تمر ونخيل، ولكنها لا تعرف التفاح، فنعت الشاعرُ المألوفَ بغير المألوف، وجعله رمزاً للهبة الإلهية التي حوّلته من حال إلى حال.

يقول (حاج الماحي) متشوقاً إلى الحج وزيارة المسجد والسلام على الرسول صلّى الله عليه وسلم:

مـتـين يـا عـاشـقـين نـحـدى الـعْـتـول(٢)
سـعـيـد الْ بـي (سـواكـن) حـلَّ نُـول(٣)
مَـرقْ فـي (جـدّه) يـا ربّـي الـقـبـولْ
نـوافـي الحج نـطـوف مـكّـة أُم طـبـولْ
أخـذنـا الـقـبـلـة، فـي زمـزم عُـلـول(٤)
سـعـينا (المرْوة)، فـوق (عـرَفـة) الـنُّـزول

نبيت (مزدلفة) بي ديك السهول
جمعنا أسباعنا قاصدين الحلول
نكبّر ونرجم ابليس الذلول
نعيّد في (منى) ونلوي الشُّيول[٥]
نعود للكعبة صافين من زغول[٦]
حججنا وسرنا لي زيارْة الرّسول
نَصابِحْ طيبة بلّجنا الحمُول[٧]
نزور الغالي وأصحابه العدُول
نشوف النّعمة في حرمه الظلول
نجاورْ جَنْبُه حولاً بعد حول

كلّ ذلك كان سيراً على الأقدام وعلى ظهور الجمال، لذلك كان لبلوغ هذه الغايات، وقْع في نفوسهم لا نستطيع أن نتخيّله هذه الأيام، مع الطائرات والسيّارات. وقد عبّر (حاج الماحي) عن هذه الأشواق في شعره الذي لا يمكن أن يتصوّر الإنسان جماله، ما لم يسمعه يغنّى كما سمعناه. شعر مملوء بالحب والشجن، يشدو به رجلان، كل صوت يعطي الآخر ويأخذ منه، يدوران في ساحة تجمّع حولها أهل البلد قاطبة، كل من الرجلين يضرب على دفّ تُمزق ضرباته نياط القلوب.

عَبينا القومه طالبين أُم رمالْ
نَعنّف[٨] القود على مكة أم جبالْ
نحِتْ[٩] فوق (عرفة) لي ذنوباً تُقال
نعود لي أهَلْنا بي قُدْرَةَ الجلال

لا أظن أحداً من السودان يزور هذه الأماكن ولا يخطر بباله

(حاج الماحي) أن شعره خاصّة وشعر أضرابه، صاغ وجداننا ونحن أطفال نتشبّث بأذيال آبائنا وأمهاتنا في حلقات (المديح) بالعشيات. قبل أن نعرف القراءة والكتابة، أو نعي شيئاً من أمور الحياة، عرفنا مولد الرسول الأمين ونشأته وبعثته، وما كابد من العناء في مكة ثم هجرته إلى المدينة حيث سطع نور الرسالة قوياً وهّاجاً. عرفنا جهاده وجهاد أصحابه وعرفناهم بأسمائهم واحداً واحداً. المعرفة انتقلت إلى قلوبنا الغضة مباشرة، في صيغة غناء مُتْرع بالحب والشجن.

قال (حاج الماحي) رحمه الله رحمة واسعة، وما أغزر الدموع التي سالت من عيون المحبين لقوله هذا:

طالبين أم رمال قام الحجيج عَجْلانْ
في (نَمرة) الظّهر جمعوا الفروض بأحسانْ[١٠]
فوق (عرَفة) الطّلوع يتحنّن الّيمان
(مزدلفة) المبيت جمعوا الحصى الحبّان
العيد في (منى) ورجمنا للشيطان
حلقنا الشعور دبحوا الهدايا سُمان
فرحان الحجيج يتلابس القُمصان
والعجب العجايب ليّة الشيلان
وادعنا أُم حطيم كارينا للبُدوان
سِرْنا مهاجرين بي ديلك الوديان
قِدّام الجمال تترافق الجدعان
بي سهل (الفريشْ) يترزّم العَشْقان
نوصل في مدينتُه النايرة أم بنيان
وأدّونا الأذن ندخل على السلطان

نـلـقـي الخير مـوجّـدْ والـنّـعـيـم كـيـمـان
سـيـد الـدّار ضـمـن قـال يـا عـبـيـد (أمـان)

(السّلطان) الذي أعطوهم الأذن الدخول عليه، هو الرسول، صلّى الله عليه وسلّم. وهنيئاً للشاعر، أنه جعل نفسه عبداً في تلك الحضرة، ولا تثريب عليه، فكلّنا ذلك الرجل.

الهوامش

(١) أتْنتَخ ـ أرتوي
(٢) العُتول ـ الجمال الضخمة القويّة.
(٣) نُول ـ يقصد دفع كراء السفينة للعبور إلى جدّة.
(٤) علول ـ من علّ في الشراب، أي ارتواء من ماء زمزم.
(٥) الشيول، جمع شال، أي أنهم تحلّلوا من الإحرام.
(٦) نظيفين من الذنوب.
(٧) بلّجنا الحُمول ـ أنزلناها، وهو يقصد حمول المتاح وحمول الأشواق.
(٨) نعنّف القود ـ أي ندير مقاود الجمال صوب مكة.
(٩) نحِتْ ـ نُسقط الذنوب كما تتحاتت أوراق الشجر.
(١٠) أقصروا وجمعوا بين صلاتي الظهر والعصر.

٥

جدّة

في المساء، في نادي جدّة الأدبي، كنت أعلم أنني لا أقول جديداً ولا أضيف شيئاً. الأقوال المضيئة قد قيلت، والأعمال الجليلة قد حدثت. ماذا بقي لأمثالي سوى أن نغرف من البحر، ونحوم حول الحمى عسى أن نقع فيه؟ لكن أهل جدّة قوم كرماء، يمنحون على مقدار أنفسهم، فجعلوني أظنّ لوهلة إذ أنا نزيل بينهم، أنني أهل لكل تلك الحفاوة وما كنت لها بأهل.

جزاهم الله عني خيراً. أذكر منهم في تلك الليلة على سبيل المثال لا الحصر، محمد علي قدس، وأياد مدني، والمعطاني والسريحي ومشعل السديري وفؤاد عنقاوي والشريف منصور بن سلطان ويوسف نور عوض وصديق شايقي وعبد الله نور. وحتى منذر العيّاشي كان براً بي لو يدري، فقد أعادني إلى واقع حالي، ونبهني إذ كدت أستسلم للحلم الذي خيّله لي أهل جدّة الأماجد في ذلك المساء الجميل.

كان البَر والبحر والسماء، كأنّ صبا نجد قد هاجر واستقرّ في جدّة. لا شك أن هذا أطيب طقس في العالم، في هذا الوقت من السنة. المدينة بكورنيشها الجميل الممتد، وأحيائها وطرقها وأسواقها، تتوهّج مثل قطعة نادرة من ألماس في دفء الصباح.

ثاني يوم وصولي بكّرت إلى مكة. ما فائدة أن تصل جدة، ولا تزور مكة، ولا تزور المدينة؟ تكون كمن أشرف على النبع، وهو ظمآن، ولم يشرب. من حسن حظ جدة أنها منطلق إلى هذه الأقداس.

الطريق يطول ويقصر ويضيق ويتّسع، وهو واسع معبّد في الحقيقة، تقطعه السيّارة في أقل من ساعة، وقد كان (حاج الماحي) وأصحابه يقطعونه بالجمال في يوم أو يومين. جزى الله هذا الملك الصالح خير الجزاء. سلك سبيل الأولين، ووقف نفسه على خدمة هذين الحرمين. لم يألُ جهداً في عمارتهما وتوسعتهما وتسهيل الوصول إليهما. بدا الحرم المكي في كامل بهائه، بعد أن وسّعوا الباحات حوله، وأزاحوا عنه العمارات والأسواق. والأمر أعجب في الحرم النبوي.

الطريق من جدّة إلى مكة، ليس مثل الطريق من مكة إلى جدة، وهو الطريق نفسه. تذهب مثقلاً وتعود خفيفاً، كأنك ولدت من جديد. أن تولد من جديد، يا لها من غاية! البيت المعمور، فاتحاً ذراعيه ينادي ترفّ عليه ملائكة الرحمة. وما أحوجك إلى الرّحمة يا مسكين؟ وغداً أحطُّ رحلي في (طيبة) إن شاء الله.

«ألم يجدْك يتيماً فآوى؟» بلى. بلي. سوف أظل أروح وأجيء كمن

يحل ديناً، وأظل أطرق الباب، عسى أن يحدث لي ما حدث لـ (حاج الماحي):

جَـدْ فـي السـؤال لـي ربُّـه لَـحْ
قـال يـا كـريم، بـابُـه انـفـتـحْ
أعـطـوه تُـقّـاحـات بـلـحْ
حـين ذاقْـهـا قـال دمـاغُـه (تَّحْ)
قـام هـمّـل الـعـقـبـات[1] روَحْ
فـي شـرقـه بـالـوديـان سـرح
شـاف كـوكـبُـه الـضّـاوي انـفـتـح
فـي الـروضـة فـي غـوفُـه[2] انـبـطـحْ
شـاهـد رجـالاً غـيـر جُـنَـحْ
مـاسـكـة الـدلايـل والـسّـبـحْ

نعم، غداً أو بعد غد، سوف أنزل حمول أشواقي إن شاء الله، في ذلك الصعيد الطيب في (يثرب)، سوف أتقفّى أثر (حاج الماحي) وأفعل بعض فعله، عسى أن يحدث لي بعض ما حدث له. لكن هيهات، فأين أنا من (حاج الماحي).

قبل ذلك سوف أجد مزيداً من الحفاوة في (اثنينيّة) الرجل الكريم عبد المقصود خوجه، (ثلاثائيّة) الرجل الكريم محمد سعيد طيّب. وهي حفاوة، يعلم الله، أنني لا أستحقها.

■ ■ ■

من السُّنن الحميدة التي حافظ عليها أهل (جدة) وقد كادت تندثر في بقية العالم العربي، سنّة الندوات الأدبية في دور أهل الفضل والميسورين من محبّي الثقافة والأدب.

كانت هذه المنتديات منتشرة حتى أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، بمثابة منارات حافظت على جذوة الثقافة والفكر حيّة متوهجة، رغم بعد المسافة وضعف وسائل الاتصال، وعوامل الفرقة والشتات التي جاءت مع الوجود الأجنبي.

كانت قلوبهم تخفق بنبض موحّد متناغم من المحيط إلى الخليج، ومن جبال لبنان إلى بوادي السودان، كما قال شاعر النيل رحمه الله:

إذا ألـمّـت بـوادي الـنـيـل نـازلـةٌ
بـاتـت لـهـا راسـيـاتُ الـشـام تـضـطـربُ
وإن دعـا فـي ذُرى الأهـرام ذو شـجـن
أجـابـه فـي ربـى لـبنان مـنـتـحِـبُ[٣]

أو كما قال. كانت عقولهم تتّقد بالأفكار نفسها، وتشغلهم القضايا نفسها، تشدّهم بعضهم إلى بعض خيوطٌ غير مرئيّة. كانوا، كما يبدو لنا اليوم، أضيق ذات يد، وأقلّ سيطرة على مجريات أحوالهم، ومع ذلك كانوا أكثر ثراء روحيّاً وأشد ثقة في أنفسهم وفي مستقبلهم.

هاجت بعد ذلك رياح السياسة، هوجاء منكرة، فعفّت على كل ذلك إلّا القليل. لم يبق في القاهرة على سبيل المثال، بعد ندوات الإمام في (عين شمس) وصالون مي زيادة، وصالون العقّاد و(كرمة بن هانئ)، غير دار أستاذنا الجليل محمود محمد شاكر، أطال الله عمره.

تبدّل الحال. يرى بعض الناس أنه تبدّل إلى أحسن، ويرى آخرون أنه تبدّل إلى أسوأ. إنما الذي لا شك فيه أن العرى القديمة قد ضعفت ولم تعد القلوب تخفق على وتيرة واحدة، وتلك الأصوات

التي كانت أصداؤها تتردّد من شرق ديار العروبة إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، لم يعد لها الرونق الذي كان لها، وإن هي وصلت، فإنها تصل أبطأ، رغم تطوّر وسائل الاتصال وتنوعها.

لأجل ذلك، سرني أن جدّة حافظت على هذه العادة القديمة الحميدة، وحق لها أن تفعل، فهي منذ القدم مدينة منفتحة العقل والقلب. وجدتُ أنهم يلتقون كلّ مساء اثنين في دار رجل الأعمال الأديب عبد المقصود خوجة، يسمونها (الاثنينيّات). ويجتمعون كل مساء ثلاثاء، في دار رجل الأعمال الصحافي الكاتب محمد سعيد طيّب، يسمونها (الثلاثائيات). تجد بينهم الصحافي وأستاذ الجامعة والأديب والشاعر والطبيب والمهندس ورجل المال ورجل الحكم والإدارة. يطرقون موضوعاً فكرياً أو يكرمون كاتباً أو أديباً، وينشرون نتاج بحثهم ودرسهم في كُتُب. وحين يجيئهم ضيف من الخارج، يحتفون به بهذه الطريقة المتحضّرة.

كانت داراً تنمُّ عن صاحبها، في انبساطها ورحابتها وحسن هندامها، كل شيء فيها عمل بذوق سليم، مع مجافاة للتظاهر والبذخ. ما أجمل المال حين يكون في أيدي الأرحبيين، وما أقبحه حين يكون في أيدي اللئام. وما من شيء يستحق أن يبذل فيه الميسورون أموالهم مثل الثقافة والفكر والأدب، إذ إن هذه، لا تنهض بها الحكومات وحدها، وما قيمة المال حين يكون محض أصفار على أوراق في البنوك؟

حاتم الطائي، رحمه الله، كان أدرى، حين قال لزوجته:

أماوي إن المال غادٍ ورائحٌ

ويبقى من المال الأحاديثُ والذّكرُ

لذلك أطلق الرسول الأمين، أكرم من مشى على الغبراء، سراح ابنة حاتم من الأسر، وقال:

«خلّوا سبيلها فإن أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق».

ثم جاء شوقي العبقري، فوصف ذلك في الرسول الكريم بقوله:

يا مَنْ له الأخلاق ما يهوى العلا
منها وما يتعشّقُ الكبراءُ
لو لم تقِم ديناً لقامت وحدها
ديناً تضيء بنوره الآلاءُ

أقول، إنني أُخذْتُ غير قليل، فلم أكن مهيّأً لما وجدت من صاحب الدار، الأستاذ عبد المقصود خوجة، وأولئك الأخوة الكرام. وجدت موائد مبثوثة، ومنصة تتصدر المجلس في الحديقة، عليها خطباء وشعراء. إن لساني يعجز عن شكرهم، وهذا الحيّز الصغير، لا يتسع لذكرهم جميعاً بأسمائهم.

إلّا أنني أذكر من بين المكرمات التي غمرت شخصي الضعيف في تلك الليلة، قصيدة بديعة من الأستاذ أحمد باعُطب، تغنّى فيها بحب السودان، ونوّه بأواصر القربى والجوار، وقد سرني أنني كنت ذريعة لتحريك قريحة الشاعر، وهل أنا إلا ذرّة من تراب السودان القطير، وورقة في شجرة العروبة الوارفة؟

مثل ذلك لم يحدث لي إلّا مرّة واحدة من قبل، حين لقيت الشاعر الكبير سليمان العيسى، في دار الرجل أخي الأخوان، الدكتور عبد العزيز المقالح في صنعاء، فأهدى إليّ الشاعر أبياتاً ما وددت أن لي بها حُمر النعم. وها آنذا الآن في جدّة، في هذا المساء الرائق، في ضيافة هذا الإنسان الذي يزينه حبّه لثقافة العرب، والخادمين في

محرابها العريق، تبتسم لي عذارى القوافي وتغازلني بعيونها النجل، فماذا وجدت عندي، وماذا أرادت منّي؟ وقد كنت إمرأً كما وصف محمد سعيد العبّاسي رحمه الله:

وقد نفضتُ الهوى عنّي فما أنا في
أسار سُعدي ولا أجفانها السُّود

ولا أخفي أن كل ذلك «ذكّر بعض ما نلقى بهند» كما حصل لأبي الخطّاب. طربتُ ربما بتأثير صبا نجد في الحجاز، والثريات المتناثرة في حديقة الدار، ووشوشات مياه النوافير، وعطر الياسمين، وكل تلك الوجوه المشرقة، مثل الذين نادمهم حسّان بجلّق في الزمان الأول. بلى طربت، والكريم يطرب للثناء، خاصة إذا جاء على غير انتظار، وجاء دون تكلّف.

لم أحصل على نصّ قصيدة الأستاذ أحمد باعطب لسوء الحظ، لكنني حصلت على قصيدة الدكتور زاهد محمد زهدي التي تفضل بها عليّ. ولعلّه لا يجوز لي أن أذيعها، ففي ذلك من مزالق تزكية النّفس ما لا يخفى. لكنني سوف أفعل، ربّما تحت وطأة كل ما وصفت، ثم هو شعر عذب، وما كل يوم يجد الكاتب من يطريه بمثل هذا الكرم، وهي بعد تصف إنساناً لا أعرفه، لكنني أحب أن أكونه:

تفرّست في وجهك المُتْعَبِ
وفي فكرك النيّر المُخصبِ
وعينيك هازئةً بالظلام
كأنّهما توأما كوكب

تـــدور المطـــامـــح مـــن حـــولـــه
مـــشـــيـــراً إلـــى عـــالم أرحـــب
وأصـغـيـتُ لـلـنّـبـضـة مـن خـافـق
هـــمـــومُ الحيـــارى بـــه تـــخـــتـــبـــي
فـــأحـــســـســـتُ أنّـــي أرى مـــشـــهـــداً
مـــن الـــعـــمـــر طـــائـــفُـــه مـــرّ بـــي
وأيـــقـــنـــتُ أنـــي عـــلـــى مـــوعـــد
جـمـيـل مـع (الـصـالـح الـطـيّـب)
فـمـا أجـمـل الـلـيـلـة الـمُـنـتـقـاة
وأهـــلاً وســـهـــلاً (أبـــا زيـــنـــب)

وكأنّ كلّ هذه الحفاوة لا تكفي شخصي المسكين، فجاءت (ثلاثائية) الأستاذ محمد سعيد طيب، وجاء الكاتب البارع عبد الله الجفري، فأضاف موجة عاتية من أفضاله، فما أكرم أهل جدّة، وما أعمق بحرهم، ويا لي من غريق!

الهوامش

(١) عقبات، جمع عقب، وهي فصيحة تعني الأهل والذرية.
(٢) غوف، فصيحة، تعني ما كثُف من شَعْر وشجر. وهو يقصد هنا، الحديقة المجازية في روضة مسجد الرسول، صلّى الله عليه وسلّم.
(٣) في هذه القصيدة، يقول حافظ بيته الرّائع:

هـذي يـدي عـن بـنـي مـصـر تـصـافـحـكـم
فـصـافـحـوهـا تـصـافـحْ نـفـسـهـا الـعـربُ

٦

المدينة المنورة

ما أجمل الفجر في هذه المدينة. السماء صافية، وأنت تحس الدّفء رغم لذعة البرد، وأيادي الحرم النبوي العشر ترتفع في السماء مضيئة ضوءاً وديعاً لا يُعشي العين كأنّما يجذب إليه خيوط الفجر الطّالع، كما تجذب أصابع ناعمة ثوباً من الحرير. الفجر هنا لا يطلع من الشرق، بل يجيء من الجهات كلها في دائرة تحيط بالمدينة. حقاً إنها المدينة المنوّرة.

تسير في شارع «أبي ذر الغفاري» يحدوك الصوت الذي لا يأتيك من مآذن المسجد ولكن تحس به مثل صلصلة حُليّ ذهبية في صدرك. صوت هو مجموعة أصوات، تأتي من أماكن شتّى ومن عصور غابرة. تدخل في ذلك الزحام المطمئن، تدخل في هدوء كما يدخل الخيط في نسيج الثوب. هذا زحام له مذاق غير الذي رأيته بمكّة.

اجلسْ بعيداً عن (الرّوضة) وتأدّب واحتشم. لا تتعجّل المثول في تلك الحضرة. انتظر كما انتظر (حاج الماحي):

اعطونا الإذن ندخل على السُّلطان
سيّد الدَّار ضمن قال يا عبيدي (أمان).

فيما بعد سوف تقف خاشعاً تحمل نعليك تحت إبْطك، علامة التذلُّل عند قومك الكرام الذين لا يطيب لهم الذّل إلا في مثل هذا الموقف.

كان الصّاحب بهاء الدّين وزير الملك الظّاهر، لا يسمع قصيدة الإمام شرف الدين أبي عبد الله البوصيري المسمّاة بـ(البردة) إلّا واقفاً حافياً عاري الرأس. وكان يحب سماعها كثيراً ويتبرك بها هو وأهله.

يطوف بخاطرك الإمام البوصيري رحمه الله. ما أشدّ ما أحب الرّسول الأمين، وما أجمل ما غرّد بذلك الحب:

أمِن تذكّر جيرانٍ بذي سَلَم
مزجْتَ دمعاً جرى من مُقْلةٍ بدمِ
أم هبَّت الريح من تلقاء كاظمة
وأوْمض البرقُ في الظّلماء من أضَم
فما لعينيك إن قلت اكفُفا همتا
وما لقلبك إن قلت استفقْ يهِم
أيحسبُ الصَّب إن الحبّ منكتمٌ
ما بين منسجم منه ومضطرمِ

كان إماماً في ذلك المضمار، وقد سار في أثره عدد من محبي الرسول صلّى اله عليه وسلّم، منهم أمير الشعراء الذي لم يعرف شعره جلالاً وسموّاً كما حدث في (النبويات). وجاءت أم كلثوم بصوتها العبقري فإذا للكلمات أجنحة. ما أعظم الفن حين تلتئم عناصره في خدمة مثل هذه الأعتاب.

ريمٌ على القاع بين البان والعلم
أحلّ سفك دمي في الأشهر الحرُم
لمّا رنا حدثتني النفسُ قائلةً
يا ويح قلبك بالسهم المُصيب رُمي

هذا، والحقّ يقال، مطلعٌ لا يقلّ جمالاً عن مطلع قصيدة البوصيري، وإن كان ذاك أقوى مراساً على السباحة في بحر العشق.

ثم ها هو ذا (حاج الماحي)، العاشق السنّاري السوداني. سيّدٌ قرْم في وفود العاشقين. أراه واقفاً وسط الحلقة ينقر بدفّه، يشدو بصوته المُفعم الذي ورثه عنه أبناؤه وأحفاده. شعره صُنع أصلاً من أسواق عامة النّاس وأشجانهم. طرب محض، يسمعه النّاس في جماعة، فيزيدون به ويزيد بهم:

يا ربي سائلك تقبلْ لي مطلبْ
تعطيني جملاً كبير وأصهبْ
مو الدّون قصير وما هو المشقْلبْ
أصهب بشاري[1] طائع مؤدَّب
صدرا مفجَّج[2] في شوفته ترغبْ
سرجاً سنّاري[3] محكوم مذهب

والـفـروه مِـرْعـز[٤] أتـنـيـهـا وأركـب
فـوقـه إن رَفـعَـتَ مـن حـينه جـلّـبْ
قُـتْ يـا سـلامـة، أقـبـلْ وقـبـقـبْ
تـسـمـع مـشـيـه رجـلـيـه طـبْ طـبْ
الماحـي فـوقـه بـي مـدحـه يـطـربْ
بـي زمـزمـيـتُـه[٥] والـزّادِ مـحـقّـبْ
أن ردْت تـاكـل وإن ردتَ تـشـربْ
قـصـدي ومـنـايَ فـي أمْ سـور وكـوْكـبْ
الـقـبّـة خـضـرا ونـسـامْـهـا هـبـهـب
نـوصـل نـزوده وفـي شـفـاعـتـه نُـكْـتـبْ

■ ■ ■

كل معاني الإسلام من هذين البلدين وهما جد مختلفين. في مكة الضيق واليباس وجبال تكاد تطبق على الوادي، والوادي غير ذي زرع. وفي المدينة الوسع والنخل والزرع والهواء يهبّ مرة من تلقاء نجد ومرة من تلقاء بلاد الشام. وجبل أُحُد صديق أليف يحرس المدينة عن بعد، لا يقحم نفسه عليها ولا يسد عليها منافذ الأفق. (أُحُد جبل يحبنا ونحبه) كما قال الرسول الأمين.

وكأن كل مسلم يعيد تمثل مراحل الدعوة في نفسه يجيء الناس إلى مكة يحملون أوزارهم وآمالهم ومخاوفهم. يخرجون من مضيق ليدخلوا في مضيق. الطواف مشقة والسعي مشقة ورمي الجمرات مشقة. زحام الحج في مكة كأنه مقدمة ليوم الحشر.

ثلاثة عشر عاماً أو نحوها. جفاه أهله وازدرته عشيرته. كان أميناً

مصدّقاً عندهم، فلما جاءهم بالخبر اليقين كذبوه وسخروا منه. لم يؤمن به إلا نفر قليل. زوجته التي أحبته واختارته لأن الله قد اختارها له. فتح الحب بصيرتها فلم تشكّ ولم تتردد. وصديقه. كان يعلم من أمر صاحبه وينتظر. ولما دعاه إلى الحق قال من حينه (لبيك). وابن عمه الصبي هو أيضاً آمن به بدافع الحب. أقل من أربعمائة نفر بين ذكر وأنثى بعد قرابة ثلاثة عشر عاماً. منهم العبدان والمستضعفون. صدقوه لأنهم أحبوه والحب حادي الإيمان، أو كما قال (حاج الماحي):

ريحك هبَّ من فارس جلب سلمان
جاب لصهيب مهاجر وآيس الفرقان
أسعد لي بلال الذاكر الآذان
عامر بي مريته[٦] وبنته جوك ضيفان

ضاقت مكة على الرسول الكريم والقلة من أصحابه ولم يعد في الصبر منزع، والرسول يعلم أن الله سوف يتم أمره. ثم جاء الفرج. وكأنما الخالق سبحانه وتعالى، أراد للمسلم أن يذوق بعض الضيق الذي ذاقه الرسول وأصحابه في مكة. يشقى ويتعب ويطرح عنه أثقاله ويهاجر إلى حيث السعة واليسر في المدينة. وما أجمل ما قال (حاج الماحي):

وادّعنا أم حطيم كارينا للبدوان
قمنا مهاجرين بي ديلك الوديان
قدام الجمال تترافق الجدعان
بي سهل (الفريش) يترزّم العشقان

(الفريش) على مسافة نصف ساعة بالسيارة للقادم من جدة، وقد

جعل منه (حاج الماحي) محطة كبيرة في طريق رحلته الوجدانية، لذلك فهو يذكره كثيراً في شعره. كانت القوافل حين تحط رحالها في (الفريش) بعد رحلة دامت شهوراً وبما سنوات من بلاد (سنار) وما وراءها، فكأنهم وصلوا المدينة. يلفحهم العطر، ويتبينون الضوء الذي قديماً تنوره امرؤ القيس من (أزرعات) من ناحية بلاد الشام. رحم الله (حاج الماحي) حين قال:

حبك في قلوب الأمة حراق[٧]
جاب (تكرور) مدرمس يمشي ساساقة
حازمين البطون ولباسها[٨] دلاق
كل زولاً قريعة وفي ايده مزراقه
اليوم الرجال حزموا الجمال ساقوا
بي سهل (الفريش) يتبكوا عشاقه
يا حليلن مكان اتأدبوا وتاقوا
شافوا الدرى يشلع فوقه براقه

ما أوضح الصورة التي رسمها الشاعر لوفود (التكرور) من غرب أفريقيا، يمشون (مدرمسين) وهي كلمة فصيحة من معانيها (يصمت)، يمشون (ساساقه) يعني (راجلين) وهو تعبير فصيح مشتق من كلمة (ساق)، يمشون رابطين بطونهم على الجدع، يلبسون الخرق (دلاق) كل واحد منهم يحمل (قريعة) تصغير (قرعة) وهو إناء للشراب والطعام، يعمل من القرع بعد أن يجف ويجوّف. وفي يد كل واحد منهم عصا (مزراق). والمزراق في اللغة الرمح القصير. وكلمة (حليل) يقولها السودانيون في تذكر من يحبون.

تصور حالهم حين يبلغون (المدينة)، وحين يدخلون الحرم النبوي، وحين يقفون بالفعل أمام الضريح الطاهر. رحلتهم من ديارهم إلى

مكة ثم إلى المدينة مسيرة حياة بأكملها تطول أحياناً إلى سنوات. يحلون يرحلون، ويموتون وينجبون. حين يقفون ذلك الموقف، تكون دورة حياتهم قد اكتملت، ولا يبقى لهم مطالب. بعد ذلك كثيرون منهم يتمنون أن يتوفاهم الله ثمة ويدفنوا في البقيع.

لأجل كل ذلك تفيض عيونهم بالدمع. يبكون لأنهم وصلوا سالمين لم تعسف بهم المقادير قبل بلوغ المرام. يبكون الدموع التي ظلت تجيش في أعماقهم منذ أن بدأوا رحلتهم. ما أعظم ذلك من حب.

رأيت مرة سيدة من غرب أفريقيا تكتسي ثوباً أخضر وتتمنطق بحزام أبيض، تبكي أمام قبر الرسول حتى كأن روحها قد تزهق. أبكت الناس لبكائها.

دعهم يبكوا يا رعاك الله. إنهم أدرى لماذا يبكون ولعل دموعهم أحب إلى الله من كثير من الركوع والسجود، وما ضر المحب لو أرخى العنان ساعة في حب من يحب؟ ورحم الله الإمام الشهرزوري حين قال:

ومعي صاحب جاء يقتفي الآثار
والحب شأنه التطفيل

كان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يجوس طرقات المدينة يتقفى أثر رسول صلّى الله عليه وسلم ويبكي، ويقول:
«عسى أن يقع الحافر على الحافر».

الأماكن ليست كلها سواسية يا لك الخير، وهذا المكان ليس تراباً

وحجارة، وإنما هو مسك معجون بعبق الحب القديم. وهذا الدين قام أصلاً على الحب.

■ ■ ■

ما أكثر الضوء في هذا المكان. تشعر أحياناً لكثرة الضوء، أن الشمس هنا لا تغيب ولا تشرق. كأن الضوء ثابت يصدر عن منبع مستقل. ضوء مثل بُرعم الزهر أول الربيع، رهيف مشوب بخضرة. الخضرة التي في بساط الروضة، بين الضريح والمنبر، وفي قبة الحرم لله كيف تحس بالربيع وأنت في الشتاء، وبالصباح وأنت في المساء. كذلك أحس المحبّون قبلك، وقد كانوا أرسخ قدماً وأقوى مراساً، وأفصح لساناً. كذلك أحس البوصيري والبرعي وشوقي والبارودي. وهذا (حاج الماحي)، العاشق السنّاري، رأى ضوء القبة بعين بصيرته، قبل أن يراه في الحقيقة:

القُبّة أم كسا الصاجْباني
شوقي لي الرّسول يا أخواني
بسم الله شرع الغاني[٩]
لقي البير عسل مليانِه[١٠]
أشرب فيها بي كيزاني
أتْروي زين وأدّي أخواني
ثنِّيتْ بالنبي العدناني
المختار عظيم الشّانِ
قنديل يشرب السلطاني
سيد الحُر وتُم المعاني
محبوب ربنا الربّاني
جامع الفضلِ والإحسانِ

تسير في شارع أبي ذر الغفاري، وما أحسن ما أسموا ذلك الشارع، أبو ذر الذي عاش وحده ومات وحده، ويبعث وحده. أنت في الضحى وأنت عند المغيب وأنت بعد العشاء، ولكن كأنك دائماً في الفجر. الضوء عطرٌ يعلق بك ويسعى بين يديك ويلازمك ما دمت في هذه المدينة، في رحاب سيّد المدينة. ولو كان لك بيان البوصيري لقلت مثل قوله:

حاشاه أن يحرِمَ الرّاجي مكارمَه
أو يُرجعَ الجار منه غير محترم
ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحه
وجدتُه لخلاصي خير مُلتزِم
ولن يفوت الغنى منه يداً تربتْ
أنّ الحيا ينبتُ الأزهار في الأُكُم
ولم أُرد زهرة الدنيا التي اقتطفت
يدا زهير بما أثنى على هَرم

رحمك الله فما أجمل ما قلت، وما أبلغ ما قلت، لأن كعب بن زهير بن أبي سلمى، بعد ذلك مدح الرسول الكريم، فخلعَ عليه بردته، فاشتراها منه معاوية فأصبحت شارة الملك إلى عهد العثمانيين، وهي (البردة) التي أسبغها الرسول الأمين على البوصيري في منامه، فقام من حينه صحيحاً معافى.

الضوء والمطر يلازمانك مثل صديقين ودودين وأنت تتجوّل في طرقات المدينة، هل تبصر وراء عمارات الأسمنت وطرقات الأسفلت وزحام السيارات ذلك العالم القديم الطريف، البعيد القريب؟ ترى نخل المدينة وبيوت الطين وعرائش الجريد؟ تسمع الأذان كأنه شُرع

لساعته، وترى رجالاً ونساء ربطوا بطونهم على الجوع. أين كانت دار سعد بن عباده؟ وأين كانت دار علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب؟ أين كان يسكن أبو عبيدة وخالد وعكرمة؟ أين كانت دار عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر؟ بأبي وأمي عبد الله بن عمر. كان يبكي ويقول «عسى أن يقع الحافر على الحافر». حتى وهو قريب العهد من ذلك الزمان الجميل، كان يتحسر عليه، فكيف بنا نحن وقد قدم بنا العهد، وأصبحنا غثاءً كغثاء السيل؟

رحم الله البارودي إذ يقول في بردته:

وأمّ طيبة مسروراً بعودته
يطوي المنازل بالوخّادة الرُّسُم

ثم استهلّت وفود الناس قاطبة
إلى حماه فلاقت وافر الكرم

فكان عام وفود كلّما انصرفت
عصابة أقبلت أخرى على قدم

وأرسل الرّسل تترى للملوك بما
فيه بلاغ لأهل الذّكر والفهم

هيهات. ذلك زمان ولّى ولن يعود، وعبثاً يحاولون. أقصى ما يمكن عمله، إشاعة شيء ولو قليلاً، من روح ذلك الزّمان.

حاولْ جهدك الآن أن تسترجع شيئاً، أن تستحضر شيئاً، وما في استطاعتك إلّا أقل القليل. تشتري مسبحة أو مصلاة أو قارورة عطر. تقف تتأمل الوجوه. ما أجمل الوجوه في هذا المكان. الناس هنا في أحسن أحوالهم، بيض وسود وحمر، إناث وذكور. يسيرون مطمئنين متجهين بكل جوارحهم إلى منبع الضوء، وكل منهم يجد

لوهلة طعم حلاوة ذلك العهد، وأنت أيضاً. ولن تذوق أبداً تلك الحلاوة إلا في هذا المكان، فما لك إذاً لا تقيم أطول بتلك الرحاب، وتتمرّغ أكثر بذلك الجناب؟

وأنت فقير جداً. لا تملك صفاء حب حاج الماحي والبوصيري، ولا فصاحة البارودي ولا بلاغة شوقي، فبماذا جئت تتوسّل وكيف تقول؟

لا عليك، فأنت في مقام كريم. حسبك أن تقول، كما قال شوقي:

يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
حديثك الشّهدُ عند الذائق الفَهِم
حلّيْتَ من عَطَل جيد البيان به
في كلِّ مُنتشرٍ مَن حسن مُنْتَظِم
بكلّ قولٍ كريم أنت قائلُه
تحيي القلوب وتُحيي ميّت الهمم

الهوامش

(١) بشاري، نسبه إلى قبيلة البشاريين، جمال كريمة مشهورة.
(٢) مفجّج بتشديد الجيم الأولى، أي عريض.
(٣) سنّاري، بكسر السين وتشديد النون، نسبة إلى عاصمة دولة سنار في السودان، وكانت مشهورة بصنع السروج.
(٤) مرعز، بكسر الميم والعين كلمة فصيحة، تعني الوتّر الناعم.
(٥) الزّمزميّة، وعاء من جلد أو خيْش، يوضع فيه الماء للمسافر ولعلها منسوبة إلى (زمزم).
(٦) مرية تصغير (مرة) وهي فصيحة مثل (امرأة).

(٧) بالضم مع مد، كأنك تقول (حراقو ـ ساساقو إلخ)

(٨) تنطق (لباسا).

(٩) الغاني بالغين، يقصد المُغنّي أو الشاعر، يعني نفسه.

(١٠) مليانهِ بالإماله، تنطق (ملياني).

٧

تونس

انتهت رحلتي في تونس من أول يوم من رمضان، وكنت قد بدأتها في القاهرة من حيث سرت إلى الرياض، ومن ثم إلى صلالة على المحيط الهندي.

كان العالم كله زمهريراً. تركت لندن ودرجة حرارتها فوق الصفر بقليل، ووجدت القاهرة أشد برداً. وفي الرياض نزل الثلج. مسقط كانت أدفأ قليلاً. لم أجد الدفء إلا في صلالة.

قلت أعرّج على تونس في طريق عودتي، فلي بها عهد وصُحبة. وجدتها باردة ممطرة، إلّا أن الشمس تشرق أحياناً، ساعة أو بعض ساعة، فتصحو في نفسك ذكريات تونس الجميلة المخضرة في الربيع كما رآها أبو القاسم الشابي رحمه الله. لا تطول سعادتك، إذ تختفي الشمس فجأة، وتربدُّ السماء، فإذا أنت قد عدت من الربيع إلى الشتاء.

أقمت في نُزُل الـ«بلْفدير». في تونس يسمّون الهوتيل نُزلاً، وذلك أفصح، ويسمّون الميدان (بطحاء) وذلك أفصح بمراحل، وعندهم (بطحاء باستير) وذلك خلطٌ بين الفصاحة والعُجمة. ولم لا؟ ولا يقولون الطريق، بل يقولون (الجادّة)، وتلك لعمري فصاحة أي فصاحة. لا عجب أن تونس أنجبت أبا القاسم الشابي، وأنجبت محمود المسعدي، أحد أفصح من كتبوا العربية في هذا الزمان.

الـ (بلفدير) نزلٌ مريح بسيط، فيه طابع الـ (بنسيون) العائلي. ليس فاخراً مثل الـ(هلتون) ولا واسعاً مثل (المشتل)، لكنك تجد غرفة نظيفة وسريراً يسعك ومقعداً ومكتباً تكتب عليه إذا عنّ لك، وجهاز تلفزيون، أو تلفاز كما يقولون في تونس، يجلب لك البرامج حتى من فرنسا وإيطاليا. كل ذلك والتدفئة تجعل لك الشتاء صيفاً. يا لها من نعمة. أحسن كثيراً من الـ (كروشي دلْ سود) في مقديشو. ويعدّون لك وجبة السّحور.

أضف إلى ذلك أنه مكان ألفتُه، وقد (خُلقت ألوفاً)، كما قال (الأستاذ). الناس هم الناس، لم يتغيّروا منذ عرفتهم. المنجي الذي يُشرف على صالة الطعام، وخديجة وحياة في الاستقبال، وخديجة المسؤولة عن تنظيف الغرف. عرفتهم وعرفوك، وحين تجيئهم يرحّبون بك كأنهم فرحوا حقيقة لقدومك - والمسجد غير بعيد.

صاحبه صديقنا الفاضل محمّد الفُراتي. كان وكيلاً لوزارة الإعلام، أيام كان مصطفى المصمودي وزيراً للإعلام، والهادي نويرة وزيراً أول. حين سمّاه الرئيس بورقيبة وزيراً أول، قال مازحاً في خطبة له «مين عارف. يمكن هو يموت قبل منّي». ظنّ الناس يومئذ أنه سوف يستخلفه.

كان رجلاً كفوءاً يحظى باحترام واسع. رأيته وهو وزير أول. افتتح مؤتمرنا، وسلّمنا عليه تماماً كما تُسلم على الرؤساء.ثم زرناه في مكتبه فحدثنا حديثاً جاداً عن الإعلام. خيّل إليّ يومئذٍ أنه أخذ نفسه بالحزم والشدّة أكثر مما يجب. لم تكن له بديهة محمد مزالي ولا فصاحته.

دار الزّمان كما يفعل، وقابلته في دار صديق. كان قد أصيب بالشلل، قعيداً في كرسي متحرك، بدا لي وهو على حالته تلك، أنه أكثر هيبة مما رأيته وهو وزير أول. قال له صديقي إنني كاتب، فقال لي «أنا أقرأ أكثر باللّغة الفرنسية. هل لك كتب مترجمة إلى الفرنسية؟».

قلت له نعم، ولا أظنه وجد الوقت ليقرأ.
رحمه الله. ذهب أول، كما تنبّأ الرئيس بورقيبة.

أهل تونس ناس متحضرون. لم يزيلوا كل آثار بورقيبة. تركوا صوره على العملة، وتركوا اسمه على الشارع الرئيسي في العاصمة، وهو بمثابة (شانزاليزي) تونس. ولعلّهم لم يجدوا بدّاً من إزالة تمثاله في نهاية الشارع. كان نُصباً ضخماً متحفزاً متحدّياً يُغري بالإزالة. لذلك عليك يا أصلحك الله أن تسير على الأرض هَوْناً.

كلّما قللت من الأنصاب، هوّنت الأمر على من يجيء بعدك. كان ابن خلدون عند مدخل الزيتونة يرنو إلى الرئيس بورقيبة وهو يمتطي صهوة جواده، فأصبح ابن خلدون الآن يحدق في الفراغ. لم يطمسوا ذكرى بورقيبة، فقد نقلوا تمثاله إلى (حلق الواد). ولعلّهم لم يظلموه بذلك، فهو هنالك يرنو إلى آفاق أرحب.

في ذلك الاجتماع صغنا ميثاق شرف إعلامي. متى كان ذلك؟ ربما منذ قرابة خمسة عشر عاماً. كنّا نهدف أن تقف الحملات في البلاد العربية، بعضها ضد بعض، في الإذاعات والصحف. لبثنا عاكفين أياماً، ننتقي الكلمات ونتخير الجُمل. وأذكر جملة تقول إن على البلاد العربية «أن تضع نُصب أعينها الأهداف الكبرى للأمّة العربية، وهي أهداف لا يوجد خلاف عليها». ثم رفعنا الميثاق إلى الوزراء فأقرّوه. وأذكر خطبة بليغة لوزير الإعلام السوري آنذاك، المرحوم أحمد إسكندر، تحسر فيها على حالة الأمة العربية، وما أصابها من شتات وفُرقة، وتمنى أن تتوحّد الكلمة ويجتمع الشمل.

كنّا عصبة صدق، في اللجنة الدائمة للإعلام تلك الأيام. هل ما تزال توجد لجنة دائمة للإعلام؟ كان رئيسنا الدكتور عبد الأحد جمال الدين، الذي صار بعد ذلك رئيساً للمجلس الأعلى لرعاية الشباب في مصر، وأظنه الآن في مجلس الأمة. رجل حكيم حقاً كثير المرح، واسع الصدر. وكانت اجتماعاتنا أحياناً تحتاج إلى كثير من سعة الصدر. وكان مساعد الأمين العام للإعلام، سليم اليافي.

كان وضعه صعباً. كان يعرف ما يجب عمله، ولا يجد المال لذلك. وكان الأمين العام تلك الأيام، المرحوم محمود رياض لا يؤمن بجدوى الإعلام.

ذهبنا إليه في وفد نعوده في المستشفى، وتحدثنا معه في قضايا الإعلام، فقال لنا «الإعلام مش مهم عندي. أنا عاوز أعمل تنمية».

رحمه الله. لم يكن الذنب ذنبه. ذهب ولم يعمل إعلاماً ولا تنمية وجاء من بعده الشاذلي القليبي، الذي كان مؤمناً بقيمة الإعلام،

وركّز عليه منذ بداية عهده. ولعلّه نجح بعض النجاح، إلا أنه هو الآخر ترك منصبه وفي قلبه حسرة.

كان سليم اليافي يضحك كثيراً ويدخّن، ويتفاءل دائماً، ويعلم أن الذي يرجوه لن يحدث.

■ ■ ■

في أول اجتماع حضرته للّجنة الدائمة للإعلام في جامعة الدول العربية، وكان ذلك في القاهرة، عام ١٩٧٥ أو نحوه، عجبت من بعض التوصيات المعروضة أمام اللجنة. لم أفهم من هو المقصود بها، وما هي الفائدة المرجوة منها. توصيات بتأييد كفاح الشعب الأنجولي أو الشعب الكوبي والتنديد بالنظام العنصري في جنوب أفريقيا وما شاكل.

قلت لهم إننا لجنة متخصصة مهمتنا أن ندرس قضايا الإعلام العربي من وجهة نظر احترافية بحتة، وأن من الأفضل لو نترك مثل تلك التوصيات لرجال السياسة.

إنني أدرك الآن أنني كنت مصيباً ولكنني كنت مخطئاً أيضاً من المنطلق النظري الواسع. وقد رأيت فيما بعد كيف أن الولايات المتحدة قد استندت إلى الحجة نفسها تقريباً ضد منظمة اليونسكو ومديرها العام حينئذ، ألا وهي أن المنظمة قد خرجت عن الدور المرسوم لها وأخذت طابعاً سياسياً خصوصاً بدعوتها إلى إقامة نظام إعلامي جديد.

صمت الناس، ونظر إليّ ثلاثة نفر، نظرات فيها عتاب وعطف. كانوا بمثابة (الحكماء) في تلك اللجنة، تمرّسوا في أعمالها وخبروا مزالقها وعرفوا حدود ما يقال وما لا يقال.

سعدون الجاسم، الذي كان تلك الأيّام وكيلاً لوزارة الإعلام الكويتية، رجل غاية في التهذيب وحُسْن الخلق. وعلي شمّو الذي كان وكيلاً لوزارة الإعلام في دولة الإمارات، عميق الخبرة، حاد الذكاء. وغالب أبو الفرج ممثل المملكة العربية السعودية، حكيم، قليل الكلام، يتحدث بحساب.

كلّهم تقلبت به صروف الحياة، كما لا بد أن تفعل. سعدون الجاسم ترك الإعلام، وصار رجل أعمال، وأصابه بعض ما أصاب الناس من انهيار «سوق المناخ». وعلي شمّو دخل الوزارة ثلاث مرات في السودان، وخرج منها بغصة كل مرة. أما غالب أبو الفرج فقد لقيته في جدة، وبدا لي طيّب الخاطر راضي النّفس، لم يتغير كثيراً عما كان منذ عرفته. هكذا خُيّل إليّ.

انبرى إلى تأييدي عبد العزيز الروّاس وزير الإعلام الحالي في عمان، وكان يومئذ وكيلاً للوزارة. كان دائماً يقظ العقل، يحب أن يصل إلى حقائق الأشياء.

وأكثر ما أغاظ كلامي، عبد الله الحوراني مندوب فلسطين، وله العذر، فقد كان بحكم وضعه، يعايش عالماً أقل استقراراً ومنطقاً، مما رميت أنا إليه. أقابله أحياناً في تونس، وأحياناً في الطائرات هنا أو هناك. ما يزال ودوداً كعادته، إلّا أن الشيب قد انتشر في رأسه، وعلاه الهمّ تحت عبء القضية المقدسة التي هو أحد الناطقين

بلسانها. لعله صار الآن (براغماتياً) كسائر الناس.

وكان مندوب السودان، إبراهيم الصلحي. كان في لندن حين عرضوا عليه منصب وكيل وزارة الإعلام. وسألني فنصحته ألّا يقبل، وكانوا قد طلبوا منّي العمل معهم من قبل فأبيت. كان ذلك في عهد النميري عفا الله عنه.

كان مندفعاً إلى المشاركة في العمل الوطني وخدمة الوطن، فذهب وعمل بإخلاص ودأب، وهما أمران عُرفا عنه. وأخيراً جزوْه جزاء سنمّار. هو اليوم في رحاب دولة قطر الكريمة، يعمل مع الوزير الأرحبي الهمام، الدكتور عيسى غانم الكواري.

استقر واطمأنت نفسه وعاد إلى ممارسة فنه الذي هو فيه نابغة يشار إليه بالبنان. وأيضاً اتجه بكل جوارحه إلى سلوك دروب العارفين، فوصل أو كاد.

حين اجتمعنا في تونس، كان مندوب ليبيا جمعة الفزّاني. كان في ذلك الاجتماع مثل جرير مع الشعراء في مربد البصرة. كان يقارع مصر وفلسطين والمغرب وتونس وغيرها، فقد كانت ليبيا تلك الأيام، على خلاف مع كل تلك الدول. وأشهد أنه أبلى أعظم البلاء. كان كما وصف تأبط شرّاً ابن أخته.

حمل ذات مرة حملة نكباء على مصر، وكان مندوب مصر الدكتور مرسي سعد الدين يجلس إلى جواري. وهو لمن يعرفه، يجمع إلى العلم، رقة شديدة في الطبع. يؤثر الدفع بالتي هي أحسن، وينفر من الخلاف والشقاق. سألني:

- «إيه رأيك يا طيب؟ تفتكر أردّ عليه؟».

كنّا أحياناً نحب أن ندفع سأم الجلسات الطويلة بالتفرج على مثل تلك المواقف، وكان جمعة الفزاني في الواقع، نعمة كبيرة لنا في ذلك الاجتماع. قلت لمرسي سعد الدين:
«أكيد لازم تردّ عليه. دا كلام فظيع لا يمكن السكوت عليه».

لم يكد يفتح فمه، حتّى هبّ الفزّاني في وجهه، فتراجع مذعوراً، قال لي:
- «دا سوفاج أوي (متوحش)».

إلا أننا كنا حين نخرج من الاجتماعات، نعود أخوة، نجلس معاً ونضحك معاً. كأننا كنّا نمثل أدواراً في مسرحية.

عملنا اجتماعاً لمنظمة اليونسكو منذ سنوات في الدوحة. وأول ما بدأنا الاجتماع، اعترض مندوب ليبيا اعتراضاً عنيفاً على وجود مصر. كان ذلك في سنوات المقاطعة. وكنت قد رأيت الشخص نفسه يفعل الشيء نفسه في اجتماع آخر. رفعنا الجلسة وانتحيت به جانباً وقلت له:
- «أنت أيه حكايتك؟ تجي في كل اجتماع وتمثل نفس المسرحية؟».

ضحك من أعماق قلبه وقال:
- «أعمل إيه؟ أنا مضطر ألعب هذا الدور».

قلت له:
- «يا سيدي مفهوم أنك مكلّف بتمثيل الدّور. بس أنت اتحمست

في الأداء أكثر مما يجب».

وأحمد للرجل أنه اقتنع بوجهة نظري أن قرارات الجامعة العربية لا تنطبق على اجتماعات اليونسكو لأنها منظمة دولية. عدنا إلى الاجتماع، وسحب الرجل اعتراضه، وسارت المناقشات في جو من الود والتفاهم. وحسب علمي، فقد كانت تلك أول مرة تحضر فيها مصر اجتماعاً منذ قرار المقاطعة.

الحمد لله، الآن المياه عادت إلى مجاريها. يا ليت المياه تعود إلى كل مجاريها. وقد لقيت جمعة الفزّاني في القاهرة. بدا لي أكثر امتلاء وأطول قامة مما أذكره في تونس. زادت مسؤولياته، وهدأت حدّته، وخبَت جذوة ناره، كما يجب أن يكون عليه الوزراء، إلّا من بقايا بريق في العينين. ولا بدّ أنه أصبح (براغماتياً) كسائر النّاس.

ميثاق الشرف الإعلامي ما يزال حبراً على ورق. وأثناء معرض الكتاب في القاهرة دعا إخواننا إلى وضع ميثاق شرف ثقافي. هبّ كثيرون إلى تلبية النداء، لكنني لم أستجب للنداء، وقلت إن لي في ميثاق الشرف الإعلامي لموعظة.

لكن والحق يقال، لقد صار أمر العرب إلى أحسن. اختفى جرير واختفى الفرزدق، واختفى الأخطل، واختفى الراعي النميري. لم تعد الدول العربية يهجو بعضها بعضاً في عواصم العروبة. صار النّاس براغماتيين. اللهم إلا في بعض عواصم، منها ملتقى النيلين، حيث أخواننا هنالك دائماً تصلهم الأنباء متأخرة بكذا عام. الدّنيا تغيرت والحال عندهم كما قال الشاعر:

وبُدّل الفَيْجُ بالزّرافة والأيّامُ جَرْنٌ جمٌّ عجائبها
بعد بني تُبّعٍ قساورةٍ قد اطمأنتْ بها مرازبُها

أمّا ما كان من أمر صديقي محمّد الفُراتي صاحب نزل الـ (بلفدير) حيث أقيم الآن، فقد طلّق الإعلام إلى غير رجعة، وانصرف إلى أعمال السياحة والفندقة، وخيراً فعل، يملك أيضاً نزلاً في الحمامات، ويساهم في مجموعة من الفنادق في بعض البلاد العربية. وقد وجدت أنه وسع نزل الـ (بلفدير) وأضاف إليه أجنحة جديدة. كان دائماً رجلاً حكيماً. وقد أضفَتْ عليه همومه الجديدة حكمة على حكمته. وهي هموم يعرف نهاياتها، ويعرف أرباحها من خساراتها.

■ ■ ■

حديقة صغيرة جميلة عند مدخل الدار، تعبق برائحة الياسمين والبرتقال. فيها البنفسج والتين والنخل والزيتون. دار عبد العزيز قاسم في (المنزَه). يرحب بك أهل الدار، وتبتسم لك الكتب واللوحات على الجدران والتحف المنتقاة، والصور والذكريات. دار رجل متوقد الذهن عميق الإحساس واسع الثقافة، من النّاس النّادرين الذين أسعدتني الأيام بمعرفتهم في درب الحياة.

عرّفني به أخي عبد الرحيم الرفاعي في لندن منذ نحو ثلاثين عاماً، جاء هو وزوجته الفاضلة «بهيجة» في شهر العسل، وكانا قد تزوجا لتوهما. توثقت العلائق بيننا على مر السنين، فأصبحت لا أزور تونس إلّا وأعرّج على تلك الدار الجميلة في (المنزه).

أحزنني أن ربّة الدار لم تكن موجودة. كانت ترقد في المستشفى،

وقد حاولت أن أثني عبد العزيز عن دعوتي، ولكنه أصر أن أشاركه إفطار رمضان. نجحت العملية الجراحية التي أجروها لها في باريس، ولمّا عادت إلى تونس أصيبت بنكسة. وقد أراني عبد العزيز قصيدة باللغة الفرنسية أرسلها للجراح الفرنسي الذي أجرى لها العملية يشكره فيها. وهو جرّاح ذو شهرة واسعة. كل بيت في القصيدة يبدأ بحرف من اسمه.

لم يتردد الجرّاح رغم مشاغله أن يحضر إلى تونس للاطمئنان عليها. وقال لعبد العزيز «إنني جئت بسبب القصيدة. النّاس أمثالك من غير الفرنسيين هم الذين سوف يضمنون بقاء اللغة الفرنسية حيّة». يكتب عبد العزيز قاسم ويتكلم بالفرنسية، كأحسن ما يكتبها ويتكلمها أهلها. وقد أصدر ديواناً باللغة الفرنسية، وجد تقديراً عظيماً من النقاد ومحبّي الشعر. كما أن له بحوثاً ومقالات في النقد بالفرنسية.

إلّا أنه مفكر عربي وشاعر عربي في المقام الأول، وحبه للثقافة الفرنسية لم يجعله ينحاز إلى كل ما هو فرنسي انحيازاً أعمى، ولكنه ينظر إلى فرنسا وتاريخها وخاصة ماضيها الاستعماري ببصيرة ناقدة من وجهة نظر عربية لا ريب فيها.

نال درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، وتقلب في مناصب عدة. عمل مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون، وكيلاً لوزارة الثقافة وأميناً عاماً للمكتبة الوطنية. وعمل فترة مديراً لمكتب وزير التربية.

أهدى ديوانه الأخير «نوبة حبّ في عصر الكراهية». يقول في مقدمته:

توسّطتُ ظناً بأنّ الحقيقة في بيْن بيْن
وها آنذا قد خسرتُ المعارك في الجبهتينْ
نسيجُ العناكب فوق الوجوه لثامْ
كوابيسُ أصحو على رعبها وأنام
تعبْتُ ولم يبْقَ في كبيراً سوى الأصفرينْ
وفي عُنُقي لم يزلْ ألف ديْنْ
وإشراقة الفكر تحت أعلى المراتب في قائمات الحرام
تُراني تنكّرتُ حقاً لمدرسة المحبسين؟
أنا المتعهّد باسم يتامى المعري وطه حسين
بأن أجعل العقل دون سواه الإمام
بماذا أصدُّ التصحر أدرأ عقم الكلام؟
وما في اليدين؟

هذه الرنّة الحزينة، تشتمل الديوان كلّه. وقد قاده الحزن والحنين إلى الوقوف على أطلال غرناطة وقرطبة وإشبيلية، كما فعل أغلب الشعراء العرب المحدثين. إن جرح الأندلس لم يندمل أبداً في الضمير العربي. ثم حدث جرح فلسطين، فأصبح الجرحان كل منهما يهيج الآخر ويزيده إيلاماً. وقد قرأ الشاعر الكبير محمود درويش في أمسيته المشهودة في لندن من ديوانه (أحد عشر كوكباً) حيث تتجلّى شاعريته الضخمة في أحسن حالاتها. يقف على طريقته على أطلال غرناطة:

خمسمائة عام مضى وانقضى، والقطيعة لم تكتملْ
بيننا، ههنا، والرسائل لم تنقطع بيننا والحروبْ
لم تغيّرْ خرائط غرناطتي، ذات يوم أمرّ بأقمارها
وأحكّ بليمونة رغبتي.. عانقيني لأولد ثانية

من روائع شمس ونهر على كتفيك، ومن قدمين
تخمشان المساء فيبكي حليباً لليل القصيدة...
لم أكن عابراً في كلام المغنّين... كنت كلام
المغنيين صلح أثينا وفارس، شرقاً يعانق غرباً
في الرحيل إلى جوهر واحد، عانقيني لأولد ثانية
من سيوف دمشقية في الدكاكين، لم يبق مني
غيرُ درعي القديمة، سرج حصاني المذهّب، لم يبق مني
غير مخطوطة لابن رشد، وطوق الحمامة،
والترجماتْ...

هذا، كما ترى، حزن بعيد الغور، كما تتوقع من شاعر من فلسطين، في مثل عنفوان محمود درويش. أما عبد العزيز قاسم، فحزنه له مذاق تونسي. حزنُ المُقيم الذي يرى الديار حوله تُقضم من أطرافها، فإذا هو مقيم كالذي رحل. وعبرةُ الأندلس منه على مرمى حجر. وأهل أفريقية مرابطون منذ أول الفتح، وفي ذاكرتهم (حنّا بعْل) ودمار (قرطاج) وأفواج اللاجئين الذين أُجلوا عن أرض الأندلس. لذلك لم يكن عجباً، أن الفلسطينيين حين أُخرجوا من لبنان، وجدوا ملاذاً في تونس. والشاعر التونسي يراقب بحاسته النفّاذة، ويتذكر، ولا ينسى شيئاً. لذلك فإن عبد العزيز قاسم يقف على أطلال الأندلس وقفة مثل وقفة محمود درويش، ولكن بطريقة مغايرة، يقول في قصيدة يخاطب فيها ابن زيدون:

كلُّ حب، كلّ شعر، لاجئ أندلسي
حلّ ركبي لاهثاً عند حدود الفلسِ
كنتُ أخشى أن تراني عينُ بعض الحرسِ
وطني الثاني هنا استرجعتُ فيه نفسي

كلّ حب كلّ حب، لاجئ أندلسي
واقعٌ أنت تُرى، أم نسج حُلم تونسي؟

ويقول في موضع من القصيدة، مشيراً إلى أن ابن زيدون سافر إلى إشبيلية، ساعياً لإخماد فتنة ثارت فيها، فقضى نحبه ثمّة:

أيّها المتعب من مدّ وجزر وانحرافْ
نهضت (إشبيليا) ذات صباح في ارتجافْ
جئتها ساعي وفاق وهي في نار الخلافْ
هالك الأمر فلم تقو فأنهيت المطافْ

استهلم عبد العزيز قاسم، مثل كثيرين من الشعراء، حياة الشاعر الأندلسي الإسباني (فيدريكو لوركا). كأنّ لوركا عربيّ بقي في الأندلس حين خرج النّاس. ظل شاهداً صامتاً طوال قرون. ثم نطق لما نطق بلسان عربي خالطته العجمة، ولكنه لسان عربي. فكأن الماضي لم يمت، وكأن الأرض لم تذهب سدى. وجد الشعراء العرب في لوركا عزاء ومدعاة لمزيد من الحسرة.

يقول محمود درويش:

سوف يهبط بعض الكلام عن الحبّ في شعر لوركا الذي سوف يسكن غرفة نومي
ويرى ما رأيتُ من القمر البدوي (...)
(...) سأخرج بعد قليل
من تجاعيد وقتي غريباً عن الشام والأندلسْ
هذه الأرض ليست سمائي، ولكن هذا المساء مسائي

والمفاتيحَ لي، والمآذن لي، والمصابيحَ لي، وأنا
لي أيضاً، أنا آدم الجنتين، فقدتهما مرتين

فاطرودني على مهَلٍ
واقتلوني على مهلٍ،
تحت زيتونتي،
مع لوركا..

وكذلك يفعلون، ولن يكون القتل تحت زيتونة إنما تحت أنقاض البيوت التي تُهدّم فوق رؤوس ساكنيها وفي العراء تحت الثلج والمطر. هذا شاعر عرف القتل والطرد والمنفى، أما الشاعر التونسي فهو أقل مرارة وأكثر حزناً. يقول عبد العزيز قاسم مخاطباً (لوركا):

فيدريكو عادت الأطيافُ في سرب القوافلْ
وتحرّكتَ إلى استقبال فرسان بواسلْ
وحِسانٍ مثقلات بكآبات الثّواكل
هزهُنّ الشّوق فيّاضاً إلى ماضي البلابلْ
فيدريكو عادت الأطياف في سرب القوافلْ
وصهيل الشوق خيلٌ كبّلتْهن السلاسلْ

«ماضي البلابل» ـ ذلك وصف (لوركا) للزمان العربي الجميل في الأندلس. وقد يعزّيه أنْ يعلم، أن البلابل العربية ما زالت تصدح. لا يوجد بلد عربي إلا وفيه بلبل صدّاح. أو أكثر ـ وقد طاب الغناء، وقويت الأصوات وأخذت تتجمع، وكأنها جوقة تهيب بالفجر أن يطلع.

وهذا البلبل التونسي، صاحب صوت صاف مفعم بالأحزان الجليلة يرى بواعث اليأس ولكنه يأبى أن ييأس. وهو من الشعراء الّذين تسند شاعريتَهم ثقافة متينة وبصيرة نافذة. ومن حقه أن يحتفى به على أوسع نطاق في أرض العروبة. يعمل الآن أستاذاً في الجامعة التونسية، ويحاضر في الجامعات الفرنسية من وقت إلى آخر، حيث ينشر الضياء، بإنسانيته الغامرة، ولغته الفرنسية الفخمة. أسأل الله له دوام الصحة وطول العمر، ولزوجته الفاضلة الشفاء العاجل، فهي ملهمته منذ البداية.

■ ■ ■

بعد نصف ساعة من قيام طائرة الخطوط الجوية السعودية، المتجهة بنا صوب تونس، كان السفير الأديب الشاذلي زوكار، قد تعرّف على كل جيرتنا من المسافرين. متدفق الحيوية كثير الدعابة والمرح. كذلك كان أيام مهرجان الجنادرية. لا تذكر له عاصمة عربية إلا وقد زارها أو عمل فيها. لا تذكر له شخصاً إلّا وهو يعرفه.

حمدت الله أننا نسافر معاً. كان قد هيّأ لي الحصول على الفيزا في الرياض كما قلت، لكن الله أعلم ماذا يحدث حين نصل إلى تونس. تخيّل آخر الزمن، السوداني الكريم العفيف الذي يربأ بنفسه عن التدخل في شؤون الناس، أصبح يثير المخاوف أينما حلّ. هذا كل ما جنيناه من هذا العهد الميمون.

قال الشاذلي زوكار، مشيراً إلى سيدة تجلس إلى اليسار مني، على مسافة مقعدين:

«هذه السيدة كابتن».

«كابتن ماذا؟».
«قائدة طائرة، من الإمارات العربية المتحدة».

أشرع الصحافي الليبي الجالس بجواري آلة التصوير في الحال، وهبّ واقفاً ليأخذ منها لقاء صحافياً.

قالت السيدة ضاحكة:
«تعبت من المقابلات الصحافية».
لكنها قبلت التصوير، كلّنا تصورنا معها.

حين دخلت الطائرة في الرياض متلفعة بعباءتها السوداء، سارت في خفر إلى مقعدها، لم يخطر ببالي أنها قد تكون قائدة طائرة.

عرفنا منها أن اسمها كابتن علياء، درست العلوم في كلية (جولد سمث) بجامعة لندن ثم تعلمت الطيران في أوكسفورد.

قلت لها «أظنك ثاني طيّارة عربية، أليست الأولى من عُمان؟».
«لا. أنا أول قائدة طائرة عربية».

تقود طائرات البوينغ والجمبو وتسافر إلى لندن ونيويورك وطوكيو وما شئت.

«هل تستطيعين قيادة طائرة الميراج أو الفانتوم؟».
«ليس صعباً عليّ أن أتحوّل من قائدة طائرة مدنية الى طائرة عسكرية».

سبحان الله، الذي لا يعرف العالم العربي يحسبه ميتاً وهو في الحقيقة يتأجج بالحياة. ألا ترى أنه لا توجد أزمات تدعو إلى اليأس،

كما يحلو ابعض أصحابنا أن يصفوا؟ توجد مصاعب، وكلها تتفرّع من قضية واحدة، سوف تُحلّ إن عاجلاً وإن آجلاً، إما بهذا وإما بذا.

في رحلتي من لندن إلى الرياض، لاحظ الشاب أنني أحاول تغيير مقعدي لأجلس مع المدخنين.
«أنت فلان؟».
«نعم. أهلاً وسهلاً».
«اتفضل اجلسْ معي. هذا الأخ لا يمانع أن يجلس مكانك».

وجدت أنه لا يدخن.
«سوف أحاول ألّا أدخن إلا عند الضرورة القصوى».

بعض مشائخنا يرتفعون بالتدخين من الكراهة إلى التحريم. وقد سألت الدكتور يوسف القرضاوي فقال لي:
«لا أجد وجهاً لتحليله».

حين ذهبنا لنسلّم على الرئيس علي عبد الله صالح، مع رئيس لجنتنا الرّجل الكريم عبد العزيز حسين ـ اللجنة التي كوّنها الدكتور محيي الدين صابر لوضع خطة شاملة للثقافة العربية ـ قال الدكتور محمد أحمد الرشيد للرئيس اليمني: «يا سيادة الرئيس، ليتكم تمنعون هذه العادة الرذيلة، عادة مضغ القات».

ضحك الرئيس وقال:
الناس (يخزّنون) ويتحدثون في السياسة وينشدون الشعر ويسبون الحكومة ثم ينصرفون إلى بيوتهم».

تحادثت زمناً مع جاري في الطائرة دون أن أعرف اسمه. عرفت أنه يعمل مستشاراً في السفارة السعودية في واشنطن ووجدته مستنير الفكر واسع الاطلاع، عميق المعرفة بشؤون الولايات المتحدة. وحين أعطاني بطاقته وجدت أن اسمه محمد بن فيصل بن تركي.

قلت له مازحاً «أنت إذاً من آل العائلة».

«أنا من آل سعود. نعم».

«يعني أمير».

ضحك قليلاً ضحكاً خالياً من أي توتر. بعض الناس الذين تمنحهم الحياة ميزات لم يبذلوا جهداً في الحصول عيها، قد يتحوّل ذلك عندهم إلى شيء من التعالي أو التكلّف أو التوتر بسبب الإحساس بالذنب. هذا الشاب لم يكن به أيّ من هذا. كان طبيعياً جداً. وحمدت الله أنني لم أعرف من هو منذ البداية. إذاً لعلّي كنت، ولو بأقل القليل، أقسو في حكمي عليه، وهو في واقع الأمر شاب يستحق أن يكون له شأن، حتى ولو لم يكن من آل سعود.

تغدينا معه في داره، وكان قد ألحّ عليّ في الطائرة، ثم كرر الدعوة بعد أن وصل إلى الرياض. كنا جماعة، أحمد عبّاس صالح، وعثمان العمير وعلي شلش وحسن خليل. ووجدنا بين من وجدنا عنده رجلاً نجدياً قال لنا أنه عدّى الثمانين. تحسبه لم يبلغ الستين، روى لنا بعض أخبار الحروب التي شهدها مع الملك عبد العزيز.

حين ذهبنا قال لي أحمد عبّاس صالح «الشاب دا عجيب، أنا ما قابلتش أبداً سعودي زي الشاب دا. البلد دي أتاريها مش سهلة».

قلت له «العقل العربي في كل مكان حين يتحرك يصنع الأعاجيب، أليست هذه الجزيرة منبع العرب؟».

وقد ذهبت أنا بفائدة أخرى عظيمة، فقد ألحّ الأمير أن يعطيني نسخته من ديوان الأمير خالد الفيصل، جاء ذكره في الحديث وقلت إنني معجب بشعره من زمن، وأنه أعياني الحصول على ديوانه، وقد فاتتني أمسيته الشعرية في لندن التي نظمها السفير الشاعر غازي القصيبي.

شعره بالغ العذوبة، يصدق فيه قول الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم في قصيدته إليه:

مصافيف عقد صفّ من لؤلؤ الصّفا
جواهر منقّاية كما صفوة الصّافي

وقد ردّ الأمير خالد عليه بقصيدة جاء فيها:

رمتْه العيون السّود من قبل ما رمى
وعوَّد خبير الصيد مصيود يا كافي
وذي عادة القنّاص يصبر على القضا
يشيل الحمول اللي ثقيلات وخفاف
ولا بدّ للطلاب ياصل على المدا
ولو عارضه عذّال وإن جاهُ خَسّافِ
ومن يطلب المثمون يشريه لو غلا
ومن يطلب العليا يجنّب عن الهافي

■ ■ ■

حوّمت الطائرة فوق مدينة تونس، بعد منتصف النهار بقليل، قبل أن

تهبط في مطار قرطاج. كلُّ هذه الزرقة وكل هذه الخضرة وكل هذا البياض. لا عجب أن كل ذلك قد خلب لب محمد المهدي المجذوب، الذي جاء يحدوه صوت أبي القاسم الشابي، وحل عليها كما حلّت قبائل الهلاليين في أول العهد. الوصول إلى سواحل المتوسط، ذلك حلم عربي قديم. وكان حاله كما وصف:

مَنْ عذيري من غُربة أخذَتْ روحي
وألْقتْ عليّ وجهاً معاراً

ذلك بُرج نزُل (أفريقيا) في شارع الحبيب بورقيبة. وغير بعيد منه على شاطئ البحيرة فندق الـ «أوتيل دو لاك» المبني على هيئة هرم مقلوب. حللتُ فيه أول مرة زرت تونس، عام ٧٣، في مؤتمر الأدباء، وكانوا قد افتتحوه لتوه، ثم نزلت فيه لبعض ليال عام ثمانين، فوجدته قد شاخ قبل الأوان وساءت أحواله. لا بد، فليس سهلاً على هرم أن يظل واقفاً على رأسه زمناً طويلاً، ذلك من شطحات بعض المهندسين المعماريين. حتى في الخرطوم، تجد معماراً غاية في الغرابة.

كان ذلك المؤتمر أول مؤتمر للأدباء أحضره وآخر مؤتمر، وقد جذبني الإغراء بأن أرى تونس. أسعدني أنني وجدت الشاعر الضخم محمد المهدي المجذوب، ومعه حسن أبّشر الطيّب، الكريم كعهده دائماً، يحفل بالمجذوب ويرعاه، وقد ظل يرعاه إلى آخر لحظة في حياته، بل حتى بعد ممات الشاعر. وكان معهما الشاب المستنير عبد الهادي الصديق. كان في تلك الأيام سكرتيراً ثانياً أو ثالثاً في وزارة الخارجية. لو سارت به الريح رخاء لوجب أن يكون اليوم سفيراً. الله أعلم ماذا لقي على أيدي أصحابنا هؤلاء.

وقع المجذوب فوراً في حب تونس. سحره البحر وبياض المساكن وشجر الزيتون ورقّة البشر. وفي القيروان استخفه الطرب حين سمع الموشحات الأندلسية بأصوات كأنها تنبع من أغوار الماضي. كنا في قاعة واسعة مبنية على النمط الإسلامي، فتماوجت الأصداء من السقف والجدران.

اهتز الشاعر مثل شجرة يأتيها الماء بعد طول يباس. كان أشعر شعراء ذلك الموسم لا مراء. لكنه حين وقف لينشد في القيروان، خرج صوته حيِيّاً خافتاً. لم يكن شاعرٍ خطابة ومهرجانات. يكون في أحسن حالاته في عدد صغير من أناس يحبّونه ويقدّرون شعره. وما أعظم ما أحب السودان:

ما سقتْني على الظّمأ شفة خضراء أحلى من الزّلال وأنقى
كشفت وجهها وزينتها الحُسنى وكم أشتهي وكم تتوقّى
غسلت مهجتي بطهر سجاياها فلم ترْض أن نهون ونشقى
أنا أهواك يا بلادي ما واليت غرباً ولا تبدّلت شرقاً.

أعجبته شاعرة (شامية) كان يسميها «الوعل». وكان يقول:

«لو وجدت بيتاً صغيراً على شاطئ البحر في هذا البلد الجميل، ومعي هذا الوعل. يا زول!».

كان سيصنع شعراً أعجب مما صنع ولا شك.

كان ذلك في شهر مارس (آذار) عام ٧٣. وشبّت الحرب في شهر أكتوبر (تشرين الأول) عام ٧٣. حينئذ كان بعض ما ساهمت به دول الخليج أنها أوقفت ضخّ البترول.

هذا، وقد أحبّ المجذوب في سنواته الأخيرة من لبنان، سيدة تعرّف بها في بيروت، أيام كانت بيروت تحرّك صبوات الشعراء. كان حباً عذرياً على البعد، أغلبه بالمراسلة. لكنه ألهمه شعراً بديعاً لم ينشر بعد. وكان المجذوب يكتب رسائل لا تقلّ جمالاً عن شعره. رعى الله تلك السيدة، فقد ملأت قلب الشاعر بالسعادة أخريات حياته. وليتها تنشر ما لديها من الرسائل، فهي ذخيرة أدبية لا ريب، وقد فتحت غادة السمان الطريق بنشر رسائل غسان كنفاني إليها.

رحم الله المجذوب. غنّى لسودان أبعد ما يكون عن السودان الذي يصنعه أصحابنا هؤلاء. كأنهم يريدون وطناً لا يتسع إلا لنوع واحد من الناس، ولم يقرروا بعد، أي نوع من الناس يريدون، لذلك فهم لا يزالون يغيّرون ويبدّلون، ويقومون ويقعدون، ويربطون ويحلّون. وهم ويا للأسف، لا يحبون الشعر، وليس بينهم شعراء. إذاً لوجدوا ان محمد سعيد العباسي، ذلك الشاعر الآخر الفحل، قد وصف منذ خمسين عاماً ما نحن فيه الآن:

تحية الله يا أيام ذي سلم
أيام لم نخْش بأس القاهر العادي
أيام كنا وكان الشمل مجتمعاً
وحيُّنا حي طلاب وقصّادِ
فإن جرى ذكر أرباب السماحة أو
نادى الكرام فإنا بهجةُ النّادي
واليوم أبدت لنا الدنيا عجائبها
بما نقاسيه من حرب وأحقادِ
وما رمى الدهر وادينا بداهية
مثل الأليمين: تفريق وإبعادِ

رحمه الله. كأنه معنا اليوم يسمع ويرى. إن الأمم التي تنجب أمثال هؤلاء الشعراء، لن تقهر أبداً. سوف يجيء زمان (اجتماع الشمل)، قريباً إن شاء الله، فهذا العهد قد مزّق أكثر، وخرّب أكثر، وبَعْثر أكثر مما يجوز حتى لمثله.

■ ■ ■

مطار (قرطاج) بُعيْد منتصف النّهار. الأرض مبتلّة في أعقاب المطر. الشمس واضحة تؤكد لك العبارة المكتوبة على واجهة المطار «مرحباً بكم في تونس». النسيم يحمل رائحة البحر والفل والياسمين، والبشرى التي تنتظرك خارج هذا المكان. أجد في صدري ذلك الحبور الذي أحسّه كلما هبطتُ أرضاً عربية، وسمعت اللّفظ العربيّ ورأيت الوجوه العربية.

إنني أعلم ما سوف يحدث. تحسّست الجواز السوداني في جيبي. كان أزرق اللّون فعملوه أخضر وصغّروا حجمه. كلّ عهد يجيء لا بد أن يغيّر شيئاً، خاصة إذا كان عهداً ثورياً، ونحن هذه الأيام، نتقلّب في بحبوحة (ثورة الإنقاذ). للّه درهم. حلّوا معضلة الجنوب، ونصبوا ميزان العدل، وأهابوا بالسماء أن تمطر وبالأرض أن تخضرّ، فأصبحنا نأكل مما نزرع، ونلبس مما نصنع، وأرخوا سدول الطمأنينة والأمن، فأمسى الرجل يسري من (محمد قول) إلى (تُوريتْ) لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه.

كنت أعلم ما سوف يحدث. في شهر رمضان جئت من مسقط وكنت قد أخذت الفيزا من السفارة التونسية في لندن. هنالك أيضاً وجدت سفيراً كريماً هو الأستاذ محمد اليسير. أحسن لُقياي، كما فعل قاسم بوسنينة في الرياض، ورحب بي كأفضل ما يصنع

التونسيون، وأعطاني الفيزا في الحال. في مطار قرطاج، نظر الضابط إلى الجواز، وقال لي دون أن يفتحه، قال ذلك بلطف:

«اتفضّل ارتاح شويّة».

طال انتظاري، وأنا أتأمل السياح الألمان والطليان والإسبان والأمريكان والفرنساوية، يسيلون على أرض تونس الجميلة، كما سالت أعناق مطيّ الشاعر على بطاح مكة. لا بأس. لا بد أن للأمر صلة بلون الجواز، وثورة الإنقاذ.

انتظرت حتى فرغت الصالة من الناس، وبعد لأْي جاءني الرجل بالجواز، وقال لي بلطف:
«اتفضّل. آسفين على التأخير».
«إيه المشكلة؟»
«أبداً. عملية إداريّة بسيطة».

الآن، في شهر نيسان، لعلّ الأمر يختلف قليلاً، فأنا أدخل تونس ومعي سند قويّ. شفيع أكيد، هو هذا السفير المقدام الشاذلي زوكار. وأنّى لي في كل مرة بسفير يشفع لي؟

وأنا بعدُ عابر سبيل، العلاقات مقطوعة مع حكومة (ثورة الإنقاذ) في الخرطوم. وهم قوم كما وصف الشاعر (إذا الشر أبدى ناجذيه لهم). فرغوا من إصلاح اعوجاج السوذان ويريدون أن يصلحوا العوج في كل مكان، في تونس والجزائر ولبنان. وفي مصر وبلاد الخليج وبلاد الأفغان. إنما أنا ما لي ولهؤلاء؟ إنهم زعماء أقيال، وأنا محض عابر سبيل، أرحل في بلاد الله، لا أحمل غير ثيابي وكتبي

وأوراقي. وإن كنت أحمل همّاً، فهو همٌّ كوْنيّ، لا علاقة له بالحكومات والدول. وفي حقيبتي الآن، بين الكتب التي أحملها، تلك الرواية الرائعة للكاتب التونسي النابغة البشير خريف (الدّقلة في عراجينها). أريد أن أعيد قراءتها. وقد كتبتُ مقدّمة الطبعة التي أصدرتها (دار الجنوب) في سلسلة (عيون المعاصرة)، وقلت فيها:

«عالم الجريد هذا في آخر نقطة في الجنوب الغربي من البلاد التونسيّة، كما تصوّره هذه الرواية، عالم أعرفه حق المعرفة. أعرف أرضه وسماءه ونخله وأهله. كانت قد شطت بنا الدار وبعدُ المزار، فجاء فنّان بديع التصوير، طليّ العبارة، مرهف الحس، فألغى الحدود وقرّب المسافة. وهذه العائلة التي هي محور الرواية أعرفها كما أعرف أهلي ولا ريب...».

إنما هذا لن يشفع لي عند ضابط الجوازات، فما له ولهذا؟ إنه ترْس في جهاز كبير معقد. ينفّذ الأوامر. يبحث عن ورقة، إن وجدها سمح لي بالدخول.

ولا بد أن هذا السفير الهمام، الشاذلي زوكار، كان يحس بشيء من هذا، إذ إنه لم يسر بي في الطريق العادي، الذي يدخل منه الألمان والطليان والإسبان والأمريكان والفرنساوية، ولكنه سار بي إلى مكتب جانبي، بدا لي أن مسؤوليه، يحملون مسؤوليات أكبر، وأنهم أقدر على قول لا أو نعم. عرّفهم بنفسه وأظنهم عرفوه، ثم قدمني إليهم وقرّظني لديهم بأكثر مما أستحق، وقال لهم إنني محبّ لتونس، وذلك حق. إنّما الحب يلزم له الصبر، وأنا وحياتك، لم أنْجُ من اختبارات الحب.

رعى الله ذلك الإنسان الفاضل الشاذلي زوكار. لقد بقي يرفُّ علي رفيفَ الأقحوانة في نداها. وكان أهله ينتظرونه خارج المطار، ولكنه أبى أن يذهب دوني، وظل يضاحكني ويمازحني، يريد أن يهوّن عليّ الأمر، وما كنت بحاجة إلى كل ذلك، فأنا هنا في وطني الثاني، وفي وطني الأول لعلهم يؤخرونني أكثر.

دخل الضابط وغاب ثم خرج. قال لنا بلطف:
«معليش اتفضّلوا شويّة. عملية إدارية بسيطة تَوْ نحلّوها».

طال الانتظار، وأنا أتأمل جحافل (الفائكنج) من أصقاع (العالم الأول)، تكتسح ديار تونس الجميلة. جاءوا يطلبون المتعة وسوف يحصلون عليها. سوف يتمتعون بالبحر والشمس والرمال، في الحمامات وسوسة وجربة وقابس. سوف يأخذون صوراً كثيرة، يتأملونها في ليفربول وليون ودسلدورف ونابولي وبوسطن. يدخلون ضاحكين، ويخرجون ضاحكين.

وهل أنا إلا سائح؟ جئت لبعض هذا وأكثر. جئت أتذكر وأتأمّل وأتعرّف. جئت أقيم الصّلات وأفتح النوافذ وأبني الجسور. جئت أرى بعض نفسي وأسمع بعض صوتي وأحب بعض أهلي وأحبّهم أكثر. جئت كما قال محمد المهدي المجذوب حين حلّ بأرض لبنان «جئت من السودان للصّلاة لا للحساب». فما لضابط الجوازات وما لي؟ وما لي ولـ (ثورة الإنقاذ)؟

■ ■ ■

حدث كما كان لزاماً أن يحدث، طال الانتظار أم قصر. جاءنا

الضابط بالجواز، والإذن بالدخول في بلاد تونس الجميلة. كان متهلل الوجه والحق يقال، فهو بطبعه العربي ولا بد، أميَل إلى أن يفتح الباب لا أن يغلقه، وأسرع إلى قول «يا هلا ويا حبا» منه إلى قول «ترْحاً وبُعداً». وكان صديقي الشاذلي زوكار أكثر فرحاً، فقد كان يغيب عني ويعود، ولا بدّ أنه استنجد بمسؤول أو أكثر.

ذهبت وإيّاه ضاحكين، وقد كنت أضحك أيضاً لسبب آخر عنّ لي في تلك اللّحظة. وعلى أيّ حال، فقد انصرف ذهني إلى البشرى التي تنتظرني وراء سياج المطار. ويا لها من بشرى. أن أقيم ما طابت لي الإقامة على ساحل المتوسط بين نابل والحمامات. أن أغطس، كمن يغطس في حلم، في زرقة ذلك البحر الأسطوري، الذي لشدة ما يصفو فكأنه يجذب لك المدن من الشاطئ المقابل في الشمال، وكأنك تراها رأي العين. أن أقرأ الكتب التي لم أجد الوقت لقراءتها، وأكتب إن فتح الله عليّ بشيء.

بلى، سوف تتحلحل عقد الخيال، وتسكن ثائرات الروح، فيا للانتظار من ضريبة صغيرة، لقاء هذه الخيرات السابغة. وفعلاً، ما هو إلا بمقدار ما تصل السيارة من المطار، حتى احتواني ذلك الدفء الذي وصفته في نزل (البلفدير) من صديقي محمد الفراتي والعاملين معه. خديجة وحياة وسيدة وزهير والآخرين. فرحوا بقدومي وأحسنوا استقبالي كعادتهم.

ثم قضيت أمسية في معرض الكتاب عند صديقي محمد المصمودي صاحب «دار الجنوب» أوقّع الكتب، فقد نشروا لي روايتين في سلسلة «عيون المعاصرة». يجيء الرجل ومعه أبناؤه وبناته. ويجيء شبان وشابات من الجامعة. ويجيء المعلّم ويجيء

الطبيب. ما أجمل حفاوة التونسيين بالأدب والفكر. وجاءت سيدة من أقصى الغرب، على الحدود مع الجزائر، وقالت إنها سمعت من الإذاعة فجاءت لتراني. ويا لها من وجوه ذكيّة تضيء بالتطلع. ألّا ينسيك كل هذا ملالة الانتظار؟

ثم جاء العالم النابغة الدكتور توفيق بكّار، فالتفّ حوله الناس وأكثرهم من الشباب، فوقّع لهم على كتاب المسعدي «السدّ» و«حدث أبو هريرة قال» فقد كتب لهما المقدّمة. وبالليل وجدت في دار الرجل الكريم محمد المصمودي، أناساً أعرفهم، وأناساً كنت اتطلع إلى معرفتهم. وبعد ليلة في نزل «البلفدير» عدت أدراجي إلى ذلك المكان الجميل بين نابل والحمامات.

إنما المحب يلزمه الصبر، كما قلت. كنت أزور مصر العزيزة، وهل العربي، خاصة من السودان، يحتاج إلى برهان على حب مصر؟ كنت أجيء من عمّان، أيام فتنة حرب الخليج، وأكثرُ المجيء، في رمضان وفي عيد الأضاحي، فقد كنت أعمل مع مكتب منظمة اليونسكو في عمّان، والمسافة غير بعيدة كأنك تسافر من الخرطوم إلى بورسودان. ووراء سياج مطار القاهرة، لي مواثيق قديمة، وذكريات تليدة، وأصدقاء أفديهم ويفدونني، وأكثر ممّا يصعب شرحه لضابط الجوازات.

تجد أمامك سبيلين، واحد يدخل منه المواطنون، والآخر يدخل منه الأجانب. في بعض ديار العروبة تجد طرقاً شتّى. للمواطنين، ولمجلس التعاون إن وجد مجلس تعاون، أو مجلس اتحاد إن وجد مجلس اتحاد. وأحياناً دربٌ يسلكه العرب. هنا في تونس يوجد طريق واحد، يدخل منه المواطنون والأجانب.

أقف في صف الأجانب في مطار القاهرة، وهو طويل بطبيعة الحال، وشديد الزحام. تكون محظوظاً إذا وجدت أمامك أجانب واضح أنهم «أجانب»، حينئذ يتحرك الناس مثل الماء في جدول متّسع. وغالباً ما يكون الجدول ضيّقاً.

تصل إلى الضابط فيفتح الجواز ويقلب صفحاته. يجد أنني دخلت بلاداً لا يسهل دخولها، ومنها من أذن لي بالدخول والخروج مراراً بتأشيرة واحدة. وأقول، إذا كانت كل هذه الدول قد وثقت بي، فبالأحرى أن تثق بي الشقيقة الأثيرة مصر. بيننا وبينها من الحب ما لا يقْدر واشٍ يفسده. وقبلاً قال شاعرنا العبقري التجاني يوسف بشير، منذ ستين عاماً:

طبعُ مصرٍ تقصّياً ونشاطاً
لو دهى الصخر داهمٌ منه أوْرى
كيف يا قومنا نباعد من فكْ
ريْن شدّا وساندا البعضَ أزْرا؟
كيف قولوا يجانبُ النيلُ شطّيْه
ويجري على شواطئ أُخرى؟
كلّما أنكروا ثقافة مصر
كنتُ من صُنْعها يراعاً وفكرا
جئتُ في حدّها غراراً فحيى اللّه
مستودع الثقافة مصرا

ناهيك بالعبّاسي وأحمد محمّد صالح ومحيي الدين صابر والمحجوب والمجذوب والفيتوري ومحيي الدين فارس وتاج السر الحسن والحردلّو وآخرين لا يحصيهم العد. طبقات فوق طبقات من تراكمات التاريخ منذ قبل عهد الفراعنة، لا يقوى على خلْخلتها

حكم قام في مصر أو السودان. والنيل يسعى بيننا مثل النّبأ السار منذ الأزل وعبر القرون.

لوهلة بدا على وجه ضابط الجوازات أنه استحضر كل ذلك، وأنه سوف يغض الطرف، إنّني أحمل جواز (ثورة الإنقاذ)، وإنني قادم من عمّان، وإنه لن يعوقني ويفسد عليّ لهفتي للقاء المدينة العتيدة المُفعمة بكل تلك المعالي، والشمس تغطس في النّيل، وراء سياج المطار.

■ ■ ■

ابتسم الضابط في وجهي، بتلك الطريقة المصريّة الجذّابة، التي تجعلك تسامحه سلفاً على أيّ تقصير يمكن أن يحدث. كانت تجلس إلى يساره سيّدة تعكفُ على جهاز كمبيوتر. أذكر القناع الّذي غطّت به رأسها. كان لافتاً للنظر أكثر مما لو تركت رأسها عارياً. أعطاها الضابط الجواز، فاقتحمته بعينها ووضعته إلى جانبها، وانصرفت إلى الجهاز أمامها.

الّلون الأخضر، لونٌ وديعٌ مسالمٌ عادة. بدا لي الآن كأنه يشع إشعاعات غامضة، توحي بالخطر.
«اتفضل ارتاح شوية».
«ليه؟ إيه المشكلة؟».
«أبداً، إجراءات إدارية بسيطة».

جاءت أفواج بعد أفواج من شمالي المتوسط وغربي الأطلسي وشرقي المحيط الهادي. النساء الأوروبيات، لأنهن جئن من البرد إلى

حيث الشمس والدفء، لم ينتظرن حتى يصلن، لكنّهن تهيّأن للحرارة مقدماً، فجئن يلبسن لباس الصيف في عز الشتاء. والنساء الأمريكيات، فوق الستين والسبعين، مات عنهن أزواجهن كما يحدث في الغالب، فجئن فرحات في لغط وضوضاء، حالَ من يخرج من السجن. قبضن حاصل بوليصة التأمين، وغدت الحياة عامرة بالاحتمالات، والسيّاح اليابانيون، قاماتهم سواسية، وشُكولهم ضربة لازبٍ، وثيابهم واحدة، ويحملون حقائب كأنّ حقيبة نسلَت من لونها وحجمها حقائب. في رقابهم تتدلّى آلات التصوير، أكثر من الأمريكان. هم وإيّاهم، لن ينظروا بعيونهم ولكن بعيون الكمرات، ولن يذكروا شيئاً إلا ما سجلته العدسات.

كان في الصالة شيء يشبه المهرجان. مندوبو شركات السياحة رافعين لافتاتهم، يجدون جماعاتهم فيخرجونهم زُمُراً زُمُراً، كالمدرسين مع التلاميذ في الرحلات المدرسية.

وهل أنا إلا سائح؟ لاحظت فتى كأنه ساعٍ، يغدو إلى مكتب جانبي، فيعطونه رزمة من الجوازات. يغيب زمناً ثم يعود بها. يسلمها إلى ضابط أو مسؤول، فيقوم ينادي على الناس، كل واحد يأخذ جوازه وينصرف. واسمي لا يجيء.

سألت ذلك الفتى ماذا يصنع.
«أصل الحالات اللّي تحتاج لمراجعة من الأمن بناخدها لمكتب الأمن».

«وفين مكتب الأمن؟»
«في المطار القديم. حضرتك جوازك إيه؟».

«سوداني».
«واسم حضرتك؟».
«الطيّب محمد صالح».
«ولا يهمّك أنا حاخلّص لك الجواز حالاً».
«إيه المشكلة؟».
«ما فيش أي مشكلة. هو في بينّا وبين بعض مشاكل؟ أحنا أخوات بحق وحقيق. آه والله».
«طيّب ما دمنا أخوات معطّلينّي ليه؟».
ضحك، وتلفّت حوله، مثل الجرسون الذي لا يُسمح له بمحادثة الزبائن:
«أصله بصراحة الجواز بتاعكم اليومين دول شكله مش ظريف».
«ليه؟».

«ليه؟ ما أنت عارف. أحنا حنخبّي على بعض؟ أصله بصراحة جماعة الإنقاذ دول بيعملولنا متاعب. وأحنا مش فاضيين لوجع الدماغ».
«وأنا إيه علاقتي بالحكاية دي؟».

«إيه! أنت بتستعبط يا أستاذ؟ ما أنت فاهم وأنا فاهم. على أي حال ولا يهمك. أنت نوّرت مصر والله. ثواني وأجيب لك جوازك إن شاء الله».

أسعدني حديثه. إنني أتطلع لمثل هذه الظروف. دائماً أخرج منها بفائدة. مطارات العروبة عامرة بالفوائد. تمعّن الموظف مليّاً في الجواز وأنا أخرج من عاصمة عربية. كنت في عمل، وأحمل جواز الأمم المتحدة. المفروض أن يكون الخروج أسهل من الدّخول. نظر فيه ملياً

وقلّب صفحاته وأمعن النظر في أختامه، حتى خفْت أن يكون وجد فيه شيئاً لا يسرّه. وبعد أن أطال التفكير سألني:
«بالله قول لي، الواحد كيف يحصل على جواز متل هادا؟».

يا له من سؤال فلسفي عويص، مثل سؤال (هاملت)؟ رأيت في وجهه أنه يتكلم بجد، كمن يريد أن يعرف بالفعل. قلت له:
«تَفْضى وظيفة في منظمة من منظمات الأمم المتحدة. يعلنون عنها في الجرايد. تقدم طلب. إذا نجحت يعطوك جواز متل هادا».
«هيك إذاً؟».
«نعم».

ختم لي على الجواز وقال لي «الله معك» وقلت له «الله معك». تركتُه مهموماً. علق بذاكرتي لبضع دقائق. الله أعلم ما هي قصته، وماذا وراءه وأي همّ عناه. لعله تخيّل في الجواز الغريب عوالم بدت له أسعد مما هو فيه. ولعله غبطني على الذي بكيتُ منه كما بكى سيدي أبو الطيب.. الله معك.

قال الضابط لصاحبه العاكف على آلة الكمبيوتر، في مطار آخر من مطارات العروبة:
«هادا سويدي».
قلت له:
«يا أخي حرام عليك. هل أنا شكلي سويدي؟».

«أنا أيش درّاني؟ هادا الرجّال الدخل قدّامك عربي، يتكلّم عربي ومعاه جواز كندي... يمكن أنت تكون سويدي».

صدق. العالم لم يعد واضحاً كما كان. استعجم العُربُ في البراري واختلط الحابل بالنابل. ولم يعد أحد يعرف أين هو، ومن هو.

تعزّيت بالشعر في مطار القاهرة. تذكرت أبيات جميل في صبره على بُثينة، والمحب يلزمه الصبر:

وإنّـــي لأرضـــى مـــن بـــثـــينة بـــالـــذي
لـو أبـصـره الـواشـي لـقـرّت بـلابـلُـه
بِـــلا، وبـــألّا أســـتـــطـــيـــع، وبـــالمنـــى
وبـالأمـل المرجُـوِّ قـد خـاب نـائـلُـه

إنما بثينةُ هذي سوف تجود، مهما طال الانتظار. وكان أحرى بها أن تصنع صنيع حاتم طي، فذلك لعمري هو الجود:

أمـــاوي إمّـــا مـــانـــعٌ فـــمـــبـــيِّـــنٌ
وإمـا عـطـاءٌ لا يُـنَـهْـنِـهُـه الـزّجُـرُ

ولعمري، إن انتظار مثلي في مطارات العروبة، إنما هو ضرب من الزّجر.

فجأة انتبهت، كمن يطفو إلى سطح الماء بعد غطاس، أنّ المكان قد أقفر كلية من الناس، وأنني أجلس وحدي. كأن الزّمن قد توقف. كأنّ الطائرات المتجهة إلى القاهرة، من أقطار الدّنيا كلها لم تُقلع. كأنّني الإنسان الوحيد في الدنيا بأسرها الذي نُودي ليهبط أرض مصر، ولما جاء وجد الأبواب مغلقة والحجّاب قد ناموا. كأنني (المهرج) في بيت صلاح جاهين:

أنا المهرج قُمتوا ليه؟ خُفْتوا ليه؟

لا في إيدي سيف ولا تحت منّي فرسْ

«يا خبر! هوّ أنت لسّه بتنتظر؟ همّ لسّه ما خلّصولكش جوازك؟ دا ما يصحّش والله. معليش أنا آسف والله».

ثم نظر إليّ برهة.
«تكونش حضرتك الكاتب السوداني صالح الطيب؟».
«نعم».
«اللّي كتب رواية رحلة الطيور المهاجرة؟».
«نعم».
«يا نهار أبيض. دا أنت نوّرت مصر. دا شرف عظيم والله».

كلّم بالتلفون شخصاً ما، في مكان ما، وأطراني لديه بأكثر مما أستحق، وقال له أنني محبٌّ لمصر، وذلك حق، فمنذا الذي لا يحب مصر؟ إنما الحب، كما قلت، يلزمه الصبر. وأنا هنا في وطني الأوّل ـ الثاني، وفي وطني الأوّل ـ الأول، لعلّهم يعطلونني أكثر.

■ ■ ■

ضحكت أيضاً ونحن نغادر مطار (قرطاج) لأنني تذكرت كيف حصلت على ذلك الجواز الأخضر العسير المنال، جواز (ثورة الإنقاذ)، ولو كان السفير غير ذلك الرجل المقدام، لعلّني لم أكن أحصل عليه. وهم حين يسمحون لك به، فكأنّما يستودعونك همّاً مقيماً كما رأيت.

هذه الكلمات التي كانت أيّام السودان (سودان) والريحُ رخاء، والسفينة لم يصبها العطب، وسواعد الملاّحين لم يفتَّ منها الوهن ـ بعد أن كانت تؤخذ مأخذ الجد، لم تعد لها قيمة. أصبحت تثير الريبة والحذر:

«يطلب السيّد وزير الداخلية بجمهورية السودان، باسم جمهورية السودان، من جميع أصحاب الاختصاص، أن يسمحوا لحامل هذا الجواز، والذي هو سوداني، حرية المرور، بدون تأخير، وأن يقدموا له كل مساعدة وحماية قد يحتاج إليها».

وهبْ أن ذلك لم يحدث، فماذا تفعل؟ وما هو ثقلك في موازين الحكومات والدول؟ وإذا كنت أنت لا تساعد رعاياك وتحميهم فوق أرضهم وفي أكناف موطنهم، فلماذا تطلب من الآخرين أن «يقدّموا لهم كل مساعدة وحماية؟».

عفا الله عنهم، ما أشدّ ما عبثوا بالوطن. كأنّ طفلاً يبني قلاعاً من الرمال على شاطئ البحر، ما يلبث أن يهدّمها ثم يعيد بناءها من جديد. أصبح الناس قلوبهم شتّى، وكان الهمّ واحداً، فأصبح همّاً وثانياً وثالثاً.

وما كان أهون أن أطرح عنّي هذا العبء، وأقطع الحبل السرّي الذي يربطني إلى هذا الوطن المستحيل. ما كان أسهل أن أبدّل تابعية بتابعيّة، وجوازاً بجواز، لكن حاشا واللّه لا أفعل. سوف أظلّ أتشبّث بهذا الجواز كالذي يقبض على الجمر، أمشي به في مناكب الأرض بإصرار فيه معنى التحدّي والغيظ والحسرة.

أيّ سودان يمثله هذا الجواز؟ هذا السودان المؤقت؟ أم السودان في صيرورته اللامتناهية؟ سودان أصحابنا هؤلاء الذين رفعوا المصاحف الشريفة على أسنّة الرماح؟ أم سودان الرجال والنساء الذين مشوا على الأرض هوناً، ودفعوا بالتي هي أحسن، وربطوا البطون على الطوى، تحسبهم أغنياء من التعفّف؟ بسّامون في الضحوات، بكّاءون من خشية الله بالعشيات، متحزّمون ملتزمون في الملمّات. علموا أن العدل والرحمة صنوان. و«إذا سمعوا اللّغو اعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين».

* * *

كنت في الدوحة حين انتهى أمدُ الجواز. رحت إلى السفارة، وأنا بين الشك واليقين، فقد كنت أعلم أن الجواز لم يعد حقاً مشروعاً في هذا العهد، ولكنه صار منّة وتفضلاً، يمنحونه ويمنعونه كما يحلو لهم. وكانت تردِ إلى السفارة من الخرطوم قوائم بأسماء مواطنين حرامٌ عليهم التمتّع بالحق الذي فرضته لهم القوانين والأعراف. وما يدريني أنني واحد منهم.

لكنني وجدت سفيراً غير هيّاب ولا وجِل، سودانياً كأحسن ما يكون السوداني، من سماحة وشجاعة الأكفاء وترفّع. كان من القلّة القليلة التي بقيت من الدبلوماسيين، بعد حملات التطهير والتشريد والإحالة على المعاش. وكان الناس يعجبون كيف أنهم لم ينتبهوا إليه، فظل في منصبه. يعامل المواطنين على اختلاف انتماءاتهم السياسية دون تفرقة. دائماً تجده بينهم في مسرّاتهم وأحزانهم، لا يبالي إن كان الشخص مرضيّاً عنه أو مغضوباً عليه من النظام. ولم يكن يهاب أن يجدّد الجوازات لمستحقيها دون أن يطلب الإذن من سلطات الخرطوم، لأنه يعلم أنه لو سألهم، فسوف يجيبون بلا.

من خِيار النّاس وخيار السفراء، بشهادة أهل البلد التي عمل فيها، وكل من عرفه أو تعامل معه. أعادوه إلى الخرطوم ضربة لازب، ولم يلبث غير أشهر حتى أحالوه إلى التقاعد. ذلك وهو في عز الشباب وعلوّ النشاط، وقصارى الجهد في خدمة الوطن.

إنما هو قد خدم السودان في صيرورته التي تظل ثابتة، بعد أن تجيء العهود وتذهب. اسمه أحمد يوسف التّني. ومن سخريات الأمور، أن والده يوسف مصطفى التّني، كان من كبار شعراء السودان، ومن المناضلين الأوائل، ومن الجيل الأول من السفراء الذين جعلوا للسودان رصيداً بدّده أصحابنا هؤلاء فعل من لا يخشى الفاقة. وفوق ذلك هو صاحب النشيد الذي ألهب خيال أجيال من السودانيين. يقول فيه:

نُـــــدنـــــي بـــــالائـــــتـــــلاف
آمـــالـــنـــا الـــبـــعـــيـــدة
لا نـــــعـــــرف الـــــخـــــلاف
فـــي الجنـــس والـــعـــقـــيـــدة
فـــالـــديـــن لـــلإلـــه
والـــمـــجـــد لـــلـــوطـــن

٨

القاهرة

قال الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة المصري في افتتاح مهرجان الإبداع الشعري في القاهرة:

«... إن مثل هذا الملتقى يكتسب أهميّة بالغة في الوقوف على حال فنّ العربية الأول... الفن هو نتاج للتمكن من ارتياد الجديد. والشعر بالذات هو أخصب الفنون التي يُتاح للمبدع الجاد التجريب من خلالها للوصول إلى وسائط حديثة في التعبير الإبداعي...».

وقال الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة الذي نهض بعبء تنظيم المهرجان:

«الشعر هو الحضور القديم والجديد للإبداع في الحضارة العربية، تلك الحضارة التي وضعت الشعر في مقدّمة فنون القول، وربطت بينه

وبين المعرفة الواعدة التي تتجدّد بها الحياة. ومنذ أن تحدث الشعراء العرب القدماء عن الشعر الذي لولاه ما عرف طالبو المكارم معنى المكارم، والساعون وراء المجد معنى المجد، فإن الشعر يواصل حضوره الخلاّق في الحياة العربيّة، ويواصل الشاعر المعاصر الحفاظ على النّار المقدّسة التي ورثها عن أسلافه والتي نفخ فيها من روحه الخاص ما منحها طابعها الجديد الفريد...».

كذلك ترى أن في ما تقدّم، مغزيين مهمّين. أولهما الاعتراف مجدداً بأن الشعر هو (فن العربيّة الأول) كما قال الوزير، وتردد المعنى نفسه في كلمة الدكتور جابر عصفور. الأشياء حين تصدر عن مصر، يكون لها تأثير آخر، بسبب تأثير مصر نفسها ومركزها الرّيادي.

وجدير بالذكر أن جابر عصفور هو الذي قال إن الرواية قد حلّت محلّ الشعر فأصبحت هي (فن العربيّة الأول) في هذا العصر وأن هذا (زمان الرواية). وحذا آخرون حذوه فقالوا إن الرواية أصبحت الآن هي (ديوان العرب).

إنني، رغم كوني كاتباً روائياً، لم يراودني الشك في يوم من الأيّام، أن الشعر هو الوسيلة الأولى في التعبير عن خوالج الوجدان العربي والضمير العربي. بل هو الوعاء للغة العربيّة نفسها ـ ما عدا القرآن الكريم بالطبع. وبهذا المعنى يرتبط الشعر العربيّ أشد الارتباط بالهوية العربية. كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه مدركاً لهذا حين قال «روّوا أبناءكم الشعر».

الرواية، كما لا يُنكَر، حققت إنجازات بالغة الأهميّة، وارتادت

تخوماً لم يصل إليها الشعر، لكنها لا تستطيع أن تقوم مقام الشعر في الضمير العربي.

المغزى الآخر، هو أن القاهرة، بإقامتها هذا المهرجان، وحشدها هذا العدد من كبار الشعراء والدّارسين والأكاديميين، كأنها عقدت العزم على أن تمسك بعنان الزعامة الثقافية والريادة الفكرية في العالم العربي، بعزيمة أشد، وجدّية أكثر.

ما من أحد في العالم العربي، أنكر في يوم من الأيام على مصر زعامتها، خاصة في ميادين الثقافة والفكر. ولكنّ مصر بدت في سنوات القطيعة والبلبلة السياسية، كأنّها ضاقت ذرعاً بذلك الدّور. وخيّل لبعض الناس أن مصر بدأت تتجه وجهة أخرى. وصار بعض المثقفين في مصر، وكانوا قلّة لحسن الحظ، يرددون ما يروّجه الآخرون عن العرب، أنهم أمة بلاغة وخطابة وشعر، إذْ إن العصر عصر علم وتكنولوجيا ومال واقتصاد وأخذٍ بأسباب القوّة. وكأن الأمرين لا يتّفقان.

هذا، وجاء في كلمة الدكتور جابر عصفور:

«لنطرح سؤال المستقبل على الشعر في هذا المهرجان بالقدر الذي نطرح به مستقبل الشعر على بساط البحث. ولنبحث عن آفاق جديدة واعدة يضيف بها الشعر إلى حضوره الممتد في جذور الحضارة العربيّة ما يفتح به المغلق من الأبواب، ويتيح له أن يصل إلى المناطق التي لم يصل إليها من فضاءات الروح وإبداعات العالم الواعدة بالعطاء...».

■ ■ ■

قدّم حفل الافتتاح لمهرجان الشعر في دار الأوبرا، الشاعر المصري الكبير فاروق شوشة. وقد كان ذلك اختياراً موفقاً بحق، فهذا إنسان مهذب الصوت، مهذب الشعر، مهذب السلوك، فكأنه بذلك أعطى المهرجان وسْمه وطابعه.

ثم تأكّد هذا الانطباع في الكلمة الرّصينة التي أدلى بها الدكتور جابر عصفور، الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة. كانت كأنها دعوة للتصالح مع الذّات.

إذا قبلنا أن الشعر هو أصدق تعبير عن الذّات العربية، فلم يكن أدّل على مدى البلبلة والتمزّق في الذات العربيّة من التيارات المتضاربة والمدارس المتناقضة والفوضى التي طغت على النشاط الشعريّ. الآن يجيء ناقد أكاديمي بارز فيقول:

«.. هذا الحضور القديم الجديد، المتصل المنفصل، هو مفارقة الشعر العربي التي تجمع علاقاته ما بين المؤتلف والمختلف، المتقارب والمتباعد، فتعلّمنا إمكان الجمع بين الأجيال المتباعدة والتيّارات المتعارضة، في أفق الحوار المتفاعل بين الأطراف المتكافئة، وفي دائرة وحدة الحلُم الذي ينطوي على تنوع الوسائل المتعددة في الوصول إلى وعد المستقبل.

«ويعلّمنا هذا الحضور نفسه معنى آخرَ من معاني الوحدة القومية للثقافة العربية، التي ينبغي أن تقوم على تعدد الأصوات لا الصوت الواحد، وعلى التنوُّع لا التنافر، وعلى التسامح لا التعصب، وعلى تعدّد المراكز لا المركز الواحد الأحد، فالتعدُّد والتنوُّع والتسامح، كالحوار والتفاعل والتبادل، هي بعض طرائق الثقافة في تحقيق وعد

المستقبل الذي يحلم به كل الشعراء...».

هذا الكلام الجميل، لعلّه قيل بعبارات أخرى من قبل، لكنني أبداً لم أجده يقال بهذا الوضوح وهذه البلاغة. وهو يكتسب قيمة إضافية لأنه يصدر عن أحد كبار العاملين في ميدان الثقافة في مصر، التي هي قطب الرحى في مجال النشاط الثقافي العربيّ. وكأنَّ مصر تُعلن بلسان الدكتور جابر عصفور، أنها لا ترضى أن تكون ضوءاً وحيداً في سماء مظلمة، بل قمراً منيراً في سماء مرصّعة بالنجوم.

بلى، ذلك هو، «وحدة الحلُم الّذي ينطوي على تنوع الوسائل المتعددة في الوصول إلى وعد المستقبل».

إنها في الواقع دعوة للتصالح مع الذّات، ليس في الشعر وحسب، ولا في الثقافة وحدها، وإنما في الحياة العربية برّمتها. ولو كنا وعينا هذه الحكمة البالغة على بساطتها من قبل، إذاً لكنّا وفّرنا على أنفسنا كثيراً من الجهد بلا طائل.

عاشت أجيال عربيّة متعاقبة زماناً بائساً، كانت فيه كلّ حركة ثورة، وكلّ قصيدة فتحاً وكل مقالة انقلاباً فكرياً، وكلّ وجهة نظر كأنها ديانة جديدة. فلا عجب أنه لم يكن يوجد حوار، بل عراكٌ بين مؤمنين وكفّار. ولا عجب أننا لم نحصد من ذلك كله إلّا القليل... بل لعلّنا لم نحصد شيئاً.

الحمد لله ان صوتاً مرموقاً من مصر، يطلع علينا الآن من حنايا تلك الغياهب، ليقول لنا بعبارات رصينة بليغة:

«... وها نحن نزداد إدراكاً في فعل الممارسة وعلاقات الاستقبال، أن القصائد التي أخذت تجذبنا إليها أكثر من غيرها هي تلك التي تبين عن نموذج جديد لشاعر يسير مختالاً بطيئاً ضاحك العينين، لا ينتبه إليه أحد لأنه لم يعد يزعم لنفسه أداء دور الشاعر الخالق شبيه الإله الوثنيّ، أو حتى شاعر القبيلة، أو الصورة الأخرى للزعيم الواحد الأحد، وإنما دور الإنسان البسيط الذي لا يملك سوى أن يرقب ما حوله، معيداً إنشاء كل شيء بواسطة المجاز الساخر والمفارقة الإيقاعية والسؤال الذي يتجلّى من خلال (الكولّاجات) التي تصل بين ما لا يتّصل في العالم المملوء أخطاء...».

ذلك، ومن المفارقات السّعيدة، أنّ مصر، كلّما قامت على زعامتها برفق ـ كما تصنع الآن ـ زاد إجماع النّاس على تلك الزعامة، وأن الشعراء كلما قلّلوا من تأكيد تفوُّقهم وتفرُّدهم، زاد تقدير الناس لقيمة الشعر.

■ ■ ■

أدركني رمضان الكريم في القاهرة، وهي نعم البلدة لصائم رمضان.

المسلمون كلُّهم يحتفلون برمضان، ولكن حفاوة المصريين به شيء آخر. كأنّه حقاً ضيف عزيز طال انتظاره. يستقبلونه بالتهليل والترحاب والطبول والأضواء.

الحركة في الشوارع والأضواء على المآذن، وجلبة البيع والشراء في الأسواق، وحتى ضحكات الأطفال، وأصوات السابلة. حتى ضوء الشمس في الضحى، وحين تميل إلى الغروب. ثم في اللّيل، في

سهرات القاهرة المشهورة. كل ذلك يأخذ طابعاً جديداً من البهجة والسِّحر.

أقول (السِّحر) لأنني لا أجد كلمة أفضل أصف بها ذلك الإحساس العجيب المزيج بين الحبور والأسى. وهو إحساس عرفته مصر خاصة، لطول ما أرهفت السمع لوقع خطوات الزّمن.

قبل ذلك قضيت أسبوعاً في الدوحة للمساهمة بمحاضرة في النشاط الثقافي الذي يُعقد بمناسبة معرض الكتاب. وكان ذلك بدعوة من الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني وكيل وزارة الإعلام، والأستاذ يوسف درويش المسؤول عن المطبوعات والنشر في الوزارة، بالإضافة إلى أنه رئيس نادي الجسرة الأدبي. كانت فرصة طيّبة أتاحت لي أن أجدّد صلتي بهذه المدينة التي أنفقت فيها ردحاً من عمري، وصادقت فيها أناساً أخياراً من أهل قطر ومن النازحين إليها. ولأن تلك المرحلة كانت حدّاً فاصلاً بين الشباب والكهولة، فإن الذكريات التي أحملها عنها، تستدعي في نفسي أحاسيس يختلط فيها الحبور بالحزن.

هذا، ونادي الجسرة، منذ أيّامي في وزارة الإعلام القطرية، يقوم بنشاط ثقافي واسع. وقد كانت دولة قطر في تلك الأيّام، مركزاً لحركة ثقافيّة متأججة، تتعدّى حدود الدولة بمراحل. ولعلّهم اليوم، يريدون أن يوقدوا جذوة تلك الحركة، فأرجو أن يكون ذلك صحيحاً.

من النشاطات المتميزة هذا العام، ندوة عن الديموقراطية، شارك فيها الدكتور برهان غليون من جامعة السوربون، والدكتور سعد الدين إبراهيم من الجامعة الأمريكية في القاهرة، وأدارها الدكتور محمد صالح المسفر من جامعة قطر. تميّزت تلك الندوة بحيوية فكرية

عالية. وطرح أفراد من الجمهور الكثيف الذي أمَّها من الرجال والنساء، أفكاراً ذكية متنوعة.

كذلك كانت الأمسية الشعرية التي أقامها الشاعر العراقي الكبير سعدي يوسف، وقدّم لها الأستاذ حسن رشيد، كانت حدثاً فريداً، أصغى فيها الجمهور الذي ضاقت به القاعة، باستغراق عظيم، إلى الشاعر وهو يتنقّل بهم في أجواء متنوعة مشحونة كلها بالأشجان التي تفرّد بها شعراء العراق.

لفت نظري أيضاً النشاط الثقافي الكبير، إذ نوقش عدد من القضايا التي تهم المرأة القطرية والمرأة العربية بوجه عام. وكان حضور السيدات ملحوظاً في معرض الكتاب وفي الندوات والأمسيات. وقد ساهم عدد منهن في ذلك كلّه.

ولعل أهم حدث في ذلك الأسبوع الثقافي في قطر، كان محاضرة العالم الفقيه الدكتور يوسف القرضاوي عن قضية الاجتهاد في الإسلام.

لم يزل هذا الفقيه الحبر، منذ سعدت بمعرفته أيّام إقامتي في قطر، يقدح ذهنه ويوسّع آفاقه، وينوّع مصادر اطلاعه، فيغوص في أعماق الفكر الإنساني المعاصر كما تبحّر قبلاً في أعماق الشريعة والفقه. أضف إلى ذلك سماحة في الطبع واستنارة في الإدراك، وتفهماً عظيماً لحيرة الإنسان المسلم وبلبلته، في هذا الزمان المليء بالبلبلة والحيرة.

كانت محاضرته ـ كما بدا لي ـ فتحاً فكرياً جليلاً بحق. وذلك

كان إحساس كل الذين استمعوا إليه في تلك اللّيلة.

أسعدني أيضاً أنني جالست طويلاً ذينك الإنسانين الكريمين، برهان غليون وسعدي يوسف، فقد كنا جيرة في النّزِل نفسه. وكان رابعنا دائماً الشاعر المصري العذب حسن توفيق. وهو إلى جانب أنه شاعر راسخ القدم، فهو إنسان كريم لم يألنا طلفاً وحفاوة. ويذكر له أنه من موقعه مشرفاً على الصفحة الثقافية في صحيفة (الراية)، لا يملّ من الكفاح لتوصيل أكبر قدر من النشاط الثقافي العربي إلى قرائه الكثيرين.

هذا وقد أغراني مناخ الدوحة البديع، أن أقضي رمضان ثمة في كنف أخوتي وأصدقائي بشير محمد صالح وعبد المنعم المكي وعثمان سيد أحمد وإبراهيم الصلحي ثم الرجل الزاهد أحمد محجوب والشيخين العالمين عبد الكريم وعمر يوسف، وشيخ العرب شبل العريش درويش الفار، وأصدقائي منذ عهدي بوزارة الإعلام أمثال عبد العزيز نعمة وعبد الله صادق وأحمد السليطي وجاسم زيتي وموسى زينل وناصر العثمان، وكثيرين غيرهم وددت لو يسمح هذا الحيّز المحدود لعدهم جميعاً. وبعض هؤلاء كانوا غرساً ناشئاً على أيامي، فأسعدني أنني وجدتهم قد استووْا على سوقهم، يُعجب الزراع نباتُهم.

أقول أغراني الهواء الجميل، والصحبة الطيبة أن أبقى في الدوحة. لكنني كنت قد اتفقت مع أخي وصديقي منذ أيام الشباب الباكر، عبد الرحيم الرفاعي، أن يقْدم هو من محبسه في (بيرن) وأنا أخرج من منفاي في لندن، فنلتقي في القاهرة. وهي، كما قلت، نعم البلدة لصائم رمضان.

٩

حلوان

كانت «حلوان» فيما مضى، بلدة قائمة بذاتها، يقصدها الناس من مصر ومن خارج مصر، للاستشفاء في مياهها المعدنية. كذلك اشتهرت بصناعة النسيج. ثم ضاقت مدينة القاهرة بسكانها، فبنى الناس على طول الطريق الممتدة حتى حلوان، فأصبحت كأنها جزء من المدينة الكبيرة. لذلك حين تصلها، لا تكاد تميز أنك قد انتقلت من مكان إلى مكان، ولكنك حين تدقق النظر، تجد المباني والأسواق والمزارع والبساتين، كأنك في حاضرة من حواضر الريف. ذكرتني قليلاً بمدينة «ودْ مدني» السودانية في الجزيرة. لم تبق مزارع ولا بساتين في القاهرة. التهمت مباني الأسمنت والزجاج الخضرة والزرع وخاصة في منطقة الهرم، كما حدث لغوطة الشام الفيحاء.

يقول العلماء أن تلك الأرض هي أكثر أرض الله خصوبة، ويا

للعجب كيف يردم الناس طمى النيل بالأسمنت، ثم ينفقون المال الطائل لاستصلاح أرض الصحراء. ويا ليته كان بناء يسرّ العين. هياكل دميمة مكدّسة بعضها إلى بعض، وبعضها فوق بعض. وقد ظل الأستاذ الجليل الدكتور حسن فتحي يصرخ ولا مجيب، يحاول أن يوقف ذلك الطوفان. رحمه الله. مات وفي قلبه حسرة، فقد رأى مدينة القاهرة الجميلة تكاد تغرق تماماً، كما حدث لأغلب المدن العربية.

تركنا الطريق الكبير، ودخلنا معسكراً كشفياً، ثم عرّجنا يساراً في طريق ليست معبّدة، حتى وصلنا إلى مجموعة من المباني التي بدت لي كأنها بُنيت على عجل لغرض مؤقت. هذا هو «مركز تعليم الكبار متعدّد الأغراض». وسرعان ما تأكد لي صدق إحساسي بأنه بناء «مؤقت». فقد علمت من المدير، الأستاذ حسن قاسم، أن الأرض التي أقيم عليها المركز هي جزء من المعسكر الكشفي الذي «أعارهم» إياها، ويطلب الآن إعادتها. ورغم ذلك فهو مركز فريد من نوعه، افتتحته وزارة التربية عام ١٩٧٨ بمساعدة من منظمة اليونسكو.

وسط هذا التقشف، يمضي السيد حسن قاسم، والسيدة عنايات الفقي المشرفة على التدبير المنزلي في عملهم النبيل، بحماسة وإيمان وإخلاص يدعو إلى الإعجاب. إنهما من هذه الفصيلة النادرة، مثل كل الناس الذين يعملون في هذا الميدان. وقد تأكد لدي في تلك الزيارة إحساس ظل يخامرني منذ أن بدأت رحلتي، انطلاقاً من عمّان إلى بغداد إلى الكويت إلى صنعاء، والآن في حلوان. مشكلة الأمية في الوطن العربي مشكلة غير عادية، ولن تُحلّ بالطرق العادية، ولكن بواسطة رجال ونساء منقطعين لخدمة المجتمع ولديهم رغبة جامحة لفعل الخير.

وها هم أولاء، أجدهم ماثلين أمامي حيثما حللت. عبد الحسين زويلف في بغداد، وعبد العزيز النجدي في الكويت ومحمد المضْواحي في صنعاء وإبراهيم الفوزان في الرياض، وآخرون سوف أقابلهم في الرباط وفي تونس وفي دمشق وفي حلب، وآخرون لم أسعد بمقابلتهم ولكنهم موجودون ولا شك في كل أنحاء العالم العربي. جنود مجهولون أو كالمجهولين، يضيئون مثل النجوم في ظلمات الليل، يبددون اليأس والخذلان، ويوقظون من سباتها، تلك المعاني النبيلة التي تكمن في وجدان هذه الأمة العظيمة. يساهمون بحق في صياغة المستقبل، بلا جلبة ولا ضوضاء، ولا غطرسة ولا كبرياء.

وهنا في حلوان، في هذه الأبنية «المؤقتة» في هذه الأرض «المعارة»، هذا الرجل الكريم حسن قاسم، وهذه السيدة الوسيمة الصبوحة الوجه عنايات الفقي.

ينظم المركز للدارسين والدارسات فصولاً لتعلّم القراءة والكتابة، كما يهيئ لهم الفرصة لتعلّم حرَفٍ مثل النسيج والتدبير المنزلي والتفصيل والخياطة والنجارة والحدادة والسباكة وغيرها. بالإضافة إلى ذلك يقوم المركز بدور المرشد والموجّه، فيتعرف على الظروف الخاصة للدارسين والدارسات ويسعى جهده لتذليلها، كما يوفر لهم دخلاً من تسويق مصنوعاتَهم التي تصل أحياناً إلى درجة عالية من الجودة.

وجدت بين الدارسات فتاة لم تتجاوز الخامسة عشرة من العمر، توفي والدها، وترك لها أخوة وأخوات فاضطرت أن تساعد أمها على إعالتهم. ووجدت واحدة صغيرة السن دهشت حين عرفت أنها زُوجت وطُلقت من رجل أساء معاملتها ثم هجرها. ونساء بين

العشرين والخمسين، مطلّقات أو أرامل، يقمن بإعالة أطفالهن بلا سند ولا عون. كل هؤلاء فتح لهن هذا المركز الفريد باباً لأمل وجدد ثقتهن في الناس والحياة. ذلك تراه واضحاً في الوجوه التي أخذت الحيوية تدب في قسماتها، والعيون التي بدأت تُشع بالذكاء. وهذه السيدة العجيبة، عنايات الفقي، تسبغ عليهن من عطفها، فهي لهن بمثابة الأم والأخت والصديقة، تأخذ بأيديهن إلى أن يكملن تدريبهن، ثم تجد لهن عملاً في مصنع أو محل تجاري. وأحياناً تستقل الواحدة منهن في عمل حر.

كانت آلتان من آلات النسيج متعطلتين. وقالت لي السيدة عنايات الفقي، أن ثمن الواحدة منهما ألف دولار، لا أكثر، وأنها لا تجد المال لشراء مكنات جديدة.

تأمّل عشرة آلاف دولار يجود بها إنسان سبّاق إلى الخير، في هذه الأمة الطويلة العريضة، الغنية الفقيرة، تحدث أثراً كبيراً في هذا المركز. ومائة ألف أو مئتا ألف دولار لعلها تبني مركزاً جديداً «دائماً» يستقبل أضعاف العدد الحالي من الدارسين والدارسات. وما مائة ألف ومائتا ألف وأكثر؟ إنها محض أرقام ميتة سجينة على الورق، في مصرف ما، في مكان ما. مثل الحروف والكلمات، إذا نفخت فيها الحياة، تحولت إلى ابتسامات على الشفاه وأضواء في العيون.

١٠

دلهي

طوال إقامتي في «دلهي» أو «دلهي الجديدة» بالأحرى، لازمني إحساسٌ كأنني في دار من هذه الدور، التي بناها في ضاحية من ضواحي الخرطوم، ثري من أثرياء العهود الأخيرة. يكون أثرى من تجارة العملة أو تهريب البضائع المحظورة، أو بطريقة من الطرق الملتوية التي تشجع عليها قوانين مرتجلة لا تملك الدولة القدرة الكافية على تطبيقها.

غير بعيد بيوت الطين وزحام الفقراء، وصاحبنا هذا أقام داره على مساحة أفدنة، وجعل فيها حوضاً للسباحة وملعباً لل«تينس» وملعباً لل «سكواش» وما شئت من غرائب. حوّطها بسور من الحجر، فوقه أسلاك شائكة تحمي الدار من غائلة اللصوص والمتطفلين. طوابق فوق طوابق، وغرف وراء غرف مثل الهوتيل، ولا هي بالقصر ولا بالهوتيل. تغلب فيها نوافذ الزجاج في عز الحر والشمس الساطعة.

والأثاث هذا من أمريكا وهذا من إيطاليا وهذا من هونغ كونغ. شيء مفتعل لا يمتّ بصلة إلى البيئة التي وجد فيها، مثل المستعمرات القديمة التي أقامها اليونان والرومان في الصحراء، ما لبثت أن طمرتها الرمال وعفّى عليها الزمن.

كذلك هذه المدينة، أنشأها الإنجليز حاضرة لملكهم في الهند، وسط عالم غريب كأنه بحر متلاطم الأمواج. أرادوها واحة من «الحضارة» والنظام والعقل، وسط عالم «همجي» في زعمهم، وتيارات من الفوضى. وكما أن «سير كرسْتفر رن» خطط مدينة لندن وأعطاها سمْتها وطابعها، فقد استقدموا إلى الهند مهندساً معمارياً شهيراً هو «سير ادْونْ ليوتنزْ» فرسم «دلهي» وفي ذهنه قصر بكنجهام وشارع الـ«مال» الذي يؤدي إلى ميدان الطرف الأغر وحدائق سان جيمس ومقر رئاسة الوزارة في «داوننج ستريت» ومؤسسات الدولة في وايتهول. وإذا كان قصر بكنجهام هو «صُرَّة» لندن ومركز الجذب فيها، فمركز الجذب في «دلهي» هو مقر الـ «ڤايس روي» نائب الملك أو الملكة، وظل العرش البريطاني على أرض الهند. الميدان هنا أوسع من الميدان أمام قصر بكنجهام، ودور الحكم المبنية من حجر أحمر أكثر فخامة وأبّهة من مثيلاتها في لندن. هنا بنوا ببذخ، لأنهم ظنوا أنهم سوف يبقون إلى الأبد، أما عندنا فلم تكن عندهم نيّة البقاء، فبنوا بلا اكتراث وعلى عجل.

أقاموا نمطاً هزيلاً مصغراً في الخرطوم المسكينة. اتخذوا القصر الذي قتل فيه غوردون، مقرّاً للحاكم العام، وجعلوا أمامه باحة على نمط الباحة أمام قصر بكنجهام، ومدوا شارعاً على غرار شارع الـ«مال» في لندن، يؤدي إلى محطة السكك الحديدية. ويا ليتهم تركوا لنا محطة معتبرة، مثل محطة واترلو أو فكتوريا، أو على الأقل مثل

محطات الأقاليم في «نيوكاسل» أو «برايتن». إذاً لحمدنا لهم ذلك أبد الدهر، لأن الحكام الوطنيين «أولاد البلد» لم يجدوا الوقت حتى الآن ليبنوا محطة تليق بدولة مساحتها مليون ميل مربع. حتى الحكام العسكريون، وهؤلاء كما قرأنا في كتب التاريخ، يحبون الأبهة والفخفخة لم يفعلوا ذلك عندنا. لم يجُد علينا الزمان إلى الآن، بحاكم مثل «نابليون» أو حتى «فرانكو» يترك وراءه صرحاً فخماً تسمو إليه أنظار الأجيال القادمة بخليط من الاعتزاز والمهابة وتقول «صحيح أنه أغلق البرلمان وحظر الأحزاب وعطّل الصحف. ولكن انظروا ماذا بنى. يا له من حاكم عظيم حقاً»!

لم يكن عسيراً على عوادي الزمن أن تطمس معالم الحُلُم المتواضع الذي حققه الحكم البريطاني في بلاد السودان، الأشجار الضخمة المتشابكة الوارفة الظل على امتداد شارع النيل، شارع كتشنر سابقاً، وكانوا قد جاءوا بها من الهند، شاخت وبعضها سقط وبعضها قُطع. قصر الحاكم العام، مقر رئاسة الجمهورية الآن قالوا إن سقفه تداعى وحيطانه تشققت. الميدان الذي ورّثنا إياه الإنجليز، وكنا نراه جميلاً أول عهدنا بالخرطوم، ذبلت أزهاره وصوَّحت أشجاره، وهاجرت أطياره، ويبس عشبه.

الحلم الإنجليزي المتواضع لم تبق منه إلا أصداء بعيدة، أبعد مما وجد امرؤ القيس من أطلال سلمى بذي خال.

ومع ذلك أجد في «دلهي» طعم الخرطوم. الحلم الإمبريالي هنا أعظم وأوسع مدى. لكنها هي الأخرى سوف تستسلم مثل الخرطوم، فهذه أحلام مهما كانت جميلة فهي أحلام الغرباء والسودان مثل الهند، يحلم بمنطق آخر!

غير بعيد من وسط المدينة، وراء الشوارع الواسعة والباحات الفسيحة، وراء الأشجار الظليلة والحدائق المهذبة، وراء القلل الراقية والهوتيلات الـ«لوكس»، تزخر أمواج من البشر هم أهل الهند كما كانوا منذ قرون، تتدافع نحو مركز المدينة لتغرق الحلم الإمبريالي إلى الأبد. وها هي ذي الطلائع. أبقار مهملة ترعى في الأحياء الراقية. من نافذة غرفتك ترى الحواة ينفخون مزاميرهم للأفاعي، وترى مشعوذين يوهمونك بأنهم يجعلون الناس يسبحون في الهواء. تسمع صراخ الباعة وزحمة البشر، وخليطاً من الأنغام الهندية وموسيقى القرب الاسكتلندية ومارشات عسكرية من أبواق نحاسية. والخلق حول المسجد الكبير، كأنهم في يوم الحشر.

ماذا يفعل «النظام» الإنجليزي في هذه الفوضى الأزلية؟ لا بد أنهم كرهوا هذا التزاحم وهذه الضوضاء. هؤلاء الناس المنطوون على أنفسهم المؤثرون العزلة والابتعاد عن الآخرين، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، ما الذي أتى بهم إلى هذا العالم المسحور وجذَبهم إلى هذا الأفق البعيد المحيِّر؟

■ ■ ■

أن ترى (جواهر لآل نهرو) وتستمع إلى حديثه عن قرب..

كان ذلك عام ستين، في ذلك الاجتماع المشهود للجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك.

كان يشرح للأمريكان في مؤتمر صحافي، أن عدم الانحياز ليس (معسكراً) ولكنه تجمّع لدول يوحد بينها التقارب في وجهات النظر

والمصائر المتماثلة والخوف من أن تكون ذيلاً لهذه القوة العظمى أو تلك.

كانت الولايات المتحدة قد استقرت إلى أن عدم الانحياز (معسكر) من دول تضمر العداء لها، وتدور في فلك الاتحاد السوفياتي، فقال لهم (نهرو) أن تجمع عدم الانحياز ليس موجهاً ضدهم أو ضد أي أحد.

وقد شهد الأمريكان في تلك الدورة أكثر من دليل على صدق قول (نهرو) فقد تصدى عدد من زعماء عدم الانحياز لـ«نيكيتا خروتشوف» زعيم الاتحاد السوفياتي تلك الأيام، وكان أحمد سيكيتوري رئيس غينيا الذي كانت وسائل الإعلام الأمريكية تصوره بأنه شيوعي، يخرج من الاجتماعات ويؤدي فريضة الصلاة ثم يعود. كذلك شرح لهم (نهرو) لماذا يتحتم عليهم أن يعترفوا بالصين الشيوعية ولا يحولوا دون قبولها عضواً في الأمم المتحدة.

وقد أبحر بهم في آفاق التاريخ والحضارة والـ«جيوبوليتيكا» ليوضح وجهة نظره.

كان صوته هادئاً سهل الوقع على الأذن ووجهه طلق مبتسم، وسمتُهُ جميعاً، بزيه الهندي وغطاء رأسه الأبيض، والوردة الحمراء في عروة سترته، التي تميز بها، كل ذلك كان يشع جاذبية لا مراء فيها.

أصغوا كالمسحورين، إلى حديث رصين متنوع، زاخر بالحكمة، ومفعم بمرح داخلي، كما تجد عند كبار الفلاسفة والمفكرين. حديث بسيط بلغة إنجليزية عالية. ولكنها بعيدة عن التقعر، وكان

في الوقت نفسه شامخاً جمّ الكبرياء.

ولم تكن تلك هي المرة الأولى في تاريخ الإنسانية، يقف فيها مثل ذلك الموقف، رجل هو في حقيقته أكبر بمراحل من أناس يرجحونه في موازين القوة.

وأي زعيم أمريكي في تلك الحقبة وما أعقبها من حقب يمكن أن ترجح به كفة الميزان على (نهرو)؟

عجب البريطانيون حين انضوت الهند المستقلة تحت لواء رابطة شعوب الكومنولث، وعجبوا أكثر حين قال (نهرو) الذي قضى زهرة شبابه في سجونهم، في خطبة له في لندن أنه لا يحسُّ بأي مرارة تجاه بريطانيا. وهتف تشيرتشل الاستعماري اللدود وعيناه تكادان تدمعان من التأثر:

(هل هذا ممكن؟ نهرو لا يكرهني!).

لقد حاول تشيرتشل جهده ليحول دون استقلال الهند، واتهم رئيس الوزراء العمالي (كليمنت أتلي) الذي استقلت الهند في عهده، بأنه يتخلى عن أثمن ما تملكه بريطانيا.

يا له من فارق بين الرجلين! الرجل العظيم، والرجل الذي تمنحه الظروف مخائل العظمة.

وإذا كان غاندي هو روح الهند، فإن (نهرو) هو مؤسسها وواضع دعاماتها الأولى.

كان محظوظاً أن الأقدار قد جمعت بينه وبين ذلك الإنسان في ذلك الوقت بالذات، كأنهما كانا على موعد، وذلك لا يحدث إلا نادراً، أن يوافق رجل الروح، رجل الفكر والعمل.

نشأ في بحبوحة شأن نبلاء الهند الـ (براهمين) ودرج مع السادة المستعمرين في (أيتون) وفي (أكسفورد) وقد استهوته حياتهم واستجاب لإغراءات حضارتهم.

وكان في سجيته أمْيَل للوردات الإنجليز منه إلى فقراء الهند. ولو ترك نفسه على سجيّتها لعله كان يمضي مثل مئات الهنود من طبقته، ويصبح آخر الأمر، إن لم يكن إنساناً تافهاً، فإنساناً لا يؤبه له.

ثم تلاقيا هو وغاندي، كأنما على ميعاد. تعهده وحرك فيه طاقات التفرد الكامنة، وبث فيه من روحه. فبدأ رحلة طويلة مضنية في استبطان مجاهل نفسه. عاش على الكفاف، ولبث في السجن سنين، ومشى حافياً، وانخرط في زحام الدهماء وغمار الناس. فتح قلبه وعقله لتلك الأصوات البعيدة الخافتة، التي كادت تطمسها حياته في (أيتون) و(أكسفورد).

كل ذلك تجده في كتابه (اكتشاف الهند) ولما أيقن المستعمرون أن زمانهم في الهند قد انقضى، كان (نهرو) مستعداً. كذلك طوال التاريخ، تجيء لحظة يُحسُّ فيها الدخلاء، مهما كانت نواياهم حسنة، ومهما كانت أحلامهم كبيرة، أن زمانهم قد انقضى ولا بد من الرحيل. ولم يكن في الهند كلها، رجل واحد يمكن أن ينافس (نهرو) على الزعامة.

كنا نتابع كل ذلك، ونتأثر به ونحن أحداث في مدرسة (وادي سيدنا) الثانوية على بعد أكثر من ستة آلاف ميل، وشأننا في ذلك كما قال البحتري:

ذاك مــنّــي ولــيــســت الــدّار داري
بــاقــتــراب مــنــهــا ولا الجنسُ جــنــســي

ومن أجل ذلك أيضاً، لم تكن الهند غريبة عليّ، ولذلك وجدت في (دلهي) ما يذكّرني بالخرطوم.

هؤلاء القوم الفرنجة الجرمان الأنكلو سكسون، كل واحد منهم جزيرة قائمة بذاتها، أي حلم غريب طاف بهم فساقهم إلى هذا الأفق المسحور؟

■ ■ ■

تمثال «لورد كلايف» صاحب الهند، لم يزل قائماً في مكانه في «دلهي» تهبّ عليه الرياح من الجنوب والشمال، وتسفعه أمطار الـ«منسون» وتجلس الطير على رأسه، وهو يتحمل هذه المهانة بصبر، زامّاً شفتيه كما يفعل الإنجليز مثله، ناظراً إلى الأفق نظرة تجمع بين الاحتقار والرضى عن النفس. إنه مصير مهين حقاً لرجل كانت تنحني له جباه «راجات» الهند، وتوجف القلوب من خشيته، وتتعلق مصائر الملايين بكلمة منه. ولعل هذا ما أراده «نهرو»، أن يجعل الهند تثأر لنفسها من الغزاة الفاتحين على طريقتها. كذلك ظلت تماثيل كل الرجال الذين مكنوا لسلطان بريطانيا في هذه البلاد، لم يزيحوها عن أماكنها.

جاءوا إلى هذا الأفق البعيد، متشبثين بأذيال «شركة الهند الشرقية»

يحدوهم الطمع وأحلام المجد والفضول وحب المغامرة. وكان البرتغاليون والإسبان قد سبقوهم إلى تلك الأصقاع من آسيا، ثم تجاوزهم الفرنسيون فانصبّوا على القارة في هجمة شبيهة بهجمات القبائل البربرية التي انقضّت مثل الوباء على العالم القديم، فزلزلت أركانه وقوضت بنيانه، وقلبت أعلاه أسفله.

دخلوا بخليط من التدبير والحذر، والإقدام والإحجام، وقليلاً قليلاً، وجدوا أنفسهم سادة على شبه قارة، جزيرتهم بالنسبة لها، مثل الشامة البيضاء في جلد الثور الأسود. وجدوا عالماً يموج بألوان من البشر، ويرطن بلغاتٍ عجب، منهم من يعبد الشجر، ومنهم من يعبد الحجر، ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الإله الواحد الأحد. ماذا يصنع النظام البريطاني في هذه الفوضى الكونية؟ هالهم الأمر، ولكن كعهدهم حين يقعون في ورطة، فقد ربطوا جأشهم، واستجمعوا قواهم، وأذعنوا للنداء، نداء المجد والخلود. إنه وهم فتّاك أودى بأقيال قبلهم وبعدهم عبر التاريخ. لقد جرّ وراءه «حنابعل» عبر جبال الألب، وساق الإسكندر المقدوني إلى بلاد ما بين النهرين، وأغوى قيصر الرومان فأذهبه إلى مصر، وأخرج نابليون من مأمنه وقصم ظهره في فيافي روسيا، وحدا هتلر إلى فرنسا، وقاد اللنبي إلى القدس، وساق كتشنر إلى أم درمان. الحلم نفسه والخيلاء نفسها، مهما بدا لهم ذلك مختلفاً. حلم تافه لميزان العدل الكوني، ليس أجلَّ خطراً من إغفاءة العصفور على غصن الشجرة.

جاءوا باللغة الغريبة ونظامهم الطبقي المعقد، والقانون والوسكي والإنجيل. اقتطعوا البلاد إقطاعيات، وحكموها بمزيج من القسوة والرحمة والشجاعة والجبن، والاهتمام والنفور. وكانت البلاد تفعل فيهم فعلها وتؤثر فيهم من حيث لا يعلمون. يقضون الشتاء في

«دلهي» والصيف في «سملا» ويتبعون «كبيرهم» الـ«فايْسْ روي» ظل العرش البريطاني على أرض الهند، يرحلون حيث يرحل، وينزلون حيث ينزل، مثل قبيلة من البدو، يقيسون أهميتهم بمدى قربهم أو بعدهم عنه. وكان «كلايف» هو حامي بيضتهم وفارس عذرتهم، شأن «لوجارد» من نيجيريا، و«رودس» في روديسيا، و«كرومر» في مصر، و«كتشنر» في السودان.

أعطوا الهند وأخذوا منها، كما فعلوا حيثما حلّوا، وقد أخذوا أكثر مما أعطوا. ولم يكونوا يتصورون أنها سوف تغيّرهم وتفسد عليهم حياتهم. ذلك أدركوه بعد أن رحلوا عنها.

فرضوا شرائعهم وقوانينهم، وأقاموا «دلهي الجديدة» على هواهم رمزاً لهذا النظام الإمبريالي الجديد، الـ «باكس بريتانيكا». وقد خيِّل لهم، كما خيّل للذين من قبلهم، أنهم يستطيعون أن يخلِّدوا تلك اللّحظة العابرة إلى الأبد. فملأوا أرض الهند بتماثيل رجالهم والبرونز، هذا يمتطي حصاناً، وهذا يمتشق حساماً، وهذا ينظر بصلف، وهذا ينظر بحكمة.

ثم حان وقت الرحيل، كما يحدث حتماً للغزاة الفاتحين عبر التاريخ، ودقت ساعة منتصف اللّيل، وأعلن «نهرو» بصوت متهدج أن الهند قد عادت إلى نفسها.

كان يتوقع منهم، بل كان من حقهم أن يزيلوا تلك الأنصاب الاستعمارية من أماكنها. ولكن «نهرو» الخبير بتعرجات دروب التاريخ، المدرك لسخرية الأقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الإنسان، قرر أن يدع ذكريات ذلك العهد الغريب على

حالها، وظلت واقفة تعتورها الرياح، وتموج حولها وتكاد تغرقها جماهير الهنود في تدافعها الأزلي. كان يعي أن الحقبة الاستعمارية أيضاً، بخيرها وشرّها، أصبحت ملكاً للهند، تتصرف فيها كيف تشاء.

وهكذا بقي «كلايف» ماثلاً في «دلهي» مثل الأسير، بعد أن كانت تعنو له الجباه. لقد أصبح «رهينة» الحلم المجنون الذي طاف ببني قومه فأخرجهم من ديارهم، وجاء بهم إلى ديار لا يفهمونها ولا يعرفون عنها إلا القليل. سوف تمر به الحقب، وهو في أسره «الأبدي» لا يستطيع منه فكاكاً، تتماوج حوله جموع دهماء الهند، الذين أراد أن يفرض عليهم نظاماً غريباً بلا جدوى ولو استطاع لرآهم أحراراً طلقاء في عوزهم وفاقتهم وفوضاهم.

إنها «نكتة» من أعجب النكات في تاريخ الإنسانية، ابتدعها خيال زعيم عميق التجربة، مرهف الحسّ لسخرية الأقدار التي لا تني تضحك من تفاهة مسعى الإنسان!

■ ■ ■

ظلَّ «كلايف» صاحب الهند، ماثلاً حيث وضعته الأقدار، سجين الغرور الإنساني، تمر عليه الحقب وتقف على رأسه الطير.

أما صاحبانا «كتشنر» و«غوردون» فقد أفلتا من ذلك المصير، لأن الزعماء الذين آل إليهم أمر السودان بعد رحيل الإنجليز، لم يكن عندهم ذلك الحسّ التاريخي الساخر الذي كان عند «نهرو».

تمثالان فقط أقامهما الإنجليز في بلاد السودان المتّسعة الأكناف، فقد فهموا أن أولئك القوم البدو الرعاة في أرض البطانة والبحر الأحمر وكُرْدُفان، الزرَّاع العبَّاد حاملي كتاب الله الكريم، ليس لهم حفاوة بالأصنام. إنهم يعبدون الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي ليس كمثله شيء. أدركوا أن السودان بخلاف الهند. هناك أرباب متعددة، وأصنام من ذهب وفضة، تغُمُّ الخيال، كما يحجب الضباب أفق السماء.

ومع ذلك كان لا بد من خلق «رمز إمبريالي» من نوع ما. كانوا رغم كل شيء قوماً حكماء، يحاولون أن يسبروا غور الشعوب التي فرضوا سلطانهم عليها، وقد فهموا أنه لا بد للسلطة الجديدة أن تظهر بمظهر جديد. لذلك خططوا العاصمة على هيئة العلم البريطاني، وزرعوا على جنبات الشوارع أشجاراً لم يعرفها أهل السودان من قبل، جاءوا بها من الهند، أشجار النِّيم والَّلبلاب والكافور. شيّدوا دور الحكم بالحجر والطوب، وكان أهل البلد يبنون بالطين في الغالب، وجعلوا أسقف دور سكناهم بالقرميد الأحمر مما آثار عجب الناس. وكان «الحاكم العام» يخرج من حين إلى آخر في موكب فخم، إن لم يكن في عظمة موكب الـ«فايس رُوي» في «دلهي»، فقد كان كافياً لإدخال الهيبة في القلوب، وإفهام أولئك الزرَّاع الرّعاة، أنهم يتفيأون ظل حكم قادر، يعني ما يقول ويأمر فيطاع.

كذلك عملوا تمثالين من البرونز، أحدهما لـ«غوردون» المسكين على ظهر جمل، والثاني لـ«كتشنر» على صهوة حصان.

ظل «غوردون» في طربوشه وهيئته المنتحلة، يجلس على ظهر جمله،

طيلة خمسين عاماً ونيّف، يحدّق بعينين ساهمتين، كأنما إلى أعماق ذاته. وظل «كتشنر» على حصانه، ينظر بعينين غاضبتين، مشيراً بأصبعه إلى أم درمان وراء النهر. وكان حتماً أن يصبحا هدفاً لسخرية الناس. فكانوا يقولون عن «غوردون» إنه خيبة الأمل راكبهْ جملْ». وسأل سائل لا يدري ما يقول «أما آن لهذا الفارس أن يترجّل؟» وهو يعني «كتشنر». هذه العبارة كما نعلم، قالتها أسماء بنت أبي بكر، ذات النطاقين، حين رأت ابنها الذي صلبه الحجاج معلّقاً أياماً بمكة. شتان بين ذلك «العِلْج» وبين عبد الله بن الزبير، رضوان الله عليهم جميعاً.

ثم، كما يحدث لدخلاء الفاتحين طوال التاريخ، جاءت ساعة الرحيل، فجلا الإنجليز عن بلاد السودان، وأنزل إسماعيل الأزهري ومحمد أحمد محجوب رحمهما الله، العلم البريطاني ورفعا مكانه العلم الجديد على سارية قصر الحاكم العام الذي أصبح القصر الجمهوري وثم قصر الشعب فيما بعد. وهو علم صنعوه على عجل، فكأنهم أخذوا على حين غرّة، فلم يأخذوا أهبتهم للاستقلال. جعلوه من ثلاثة ألوان، وقالوا اللون الأزرق رمز الماء، والأخضر رمز الخصب والزرع، والأصفر لون الصحراء، وهي كما ترى رموز سطحية مفتعلة لا تصلح رموزاً حتى لرواية قصصيّة. وجعلوا شعار الدولة «وحيد القرن» وقالوا إنه رمز الصلابة، وقد كان حيواناً آخذاً في الانقراض ولعلّه انقرض بالفعل. وأسموا الدولة «جمهورية السودان» وهو تحصيل حاصل.

وكان حتماً أن يجلو «كتشنر» و«غوردون» ويلحقا بقومهما، فسارع الحكام الجدد إلى إنزالهما من منصتيهما، ولم يكونوا يعلمون أنهم بذلك إنما يطلقانهما من سجنهما التاريخي، مضيّعين فرصة نادرة

للسخرية كما فعل «نهرو».

ثم توالت العهود الوطنية، عهد يتلو عهداً، وثورة على إثر ثورة، وزعيم مخلص يعقب زعيماً مخلصاً، انطوى عهد الديموقراطية الأول بخيره وشرّه، وكان خيره أكثر من شرّه، وانطوى العهد العسكري الأول بسلام في الأغلب الأعم، وانطوى عهد الديموقراطية الثانية بأحزابه وضوضائه بلا خير ولا شر، ثم ظهر على المسرح «فتى الفتيان وأخو الأخوان»، الزعيم القائد جعفر محمد النميري، فكان عهده مراحل. المرحلة الأولى غلب فيها الخير على الشر، والمرحلة الثانية استوى فيها الخير والشر، والمرحلة الأخيرة غلب فيها الشر على الخير.

ثم هبّت رياح ثورة «نيسان» المباركة في رجب شهر الخير. وهنا يدخل مسرح التاريخ لوهلة قصيرة، أقصر مما يطرف جفن العين، صاحبنا إبراهيم طه أيوب، هل تذكره، الذي لقيناه في «دلهي» أنا و«منسي» صيف عام ثمانين وتسعمائة وألف.

١١

بانكوك

كنت قد قرأت أن الكاتب الإنجليزي «سمرْسِتْ موم» كان حين يزور «بانكوك» يقيم بنُزل الـ«أورينتال». وإذ إنني لم أكن أعرف أحداً في تلك المدينة، ولم تكن تربطني بها أيّة صلة فقد كانت تلك صلة من نوع ما. صلة واهية، أيْ نعم، فقد كان «سمرْسِت موم» كاتباً بالمعنى الحقيقي للكلمة، لا يضيره أن الإنجليز لا يعدّونه بين عظماء كتابهم، وبعض نقادهم يحتقرونه احتقاراً واضحاً، ولكنه كان من أنجح الكتّاب في التاريخ. قصصه القصيرة ورواياته ومسرحياته، إن لم تحدث «ثورة» في عالم الأدب، ولم تقدم «رؤى» طريفة للحياة، كما فعل الكتّاب العمالقة أمثال «تشارلز دكنز» و«توماس هاردي» و«جوزف كنراد» و«جيمس جويس» و«جريهام جرين» إلا أنها أعمال مصقولة مكتوبة بفن ومهارة.

كان «سمرست موم» يرد على هجوم النقّاد بقوله إنه لا يكتب

ليبشر بأية أفكار، وأنه ليس من هؤلاء الكتّاب الذين يريدون «تغيير العالم»، ولكنه يكتب لمتعته الشخصية ولإدخال المتعة على نفس القارئ. وربما يكون في هذا ظلم له، فقد سلّط قلمه الساخر بقسوة أحياناً على حياة «صنّاع الأمبراطورية» في آسيا خاصة، وقدّم نماذج عجيبة للغرور والطمع وحب التسلّط، وتقلبات نوازع القلب البشري. كانت كتبه توزع بمئات الآلاف، وترجمت إلى أكثر اللّغات، وكان الإنجليز من الطبقات التي اتخذها مادة لسخريته، تمتلئ بهم مسارح لندن، ينظرون إلى أنفسهم في مرآة الفن، ويستعذبون هجاء الكاتب لهم ـ ربما لأنه كان من تلك الطبقات العليا وكان يعرف أصول مخاطبتها.

كذلك جاءه مال وفير من السينما في بريطانيا وفي أمريكا، التي حوّلت عدداً من قصصه القصيرة ورواياته، إلى أفلام ناجحة. منها فيلم «الأمطار» المقتبس من قصته «العاصفة» ومثلت فيه الدور الرئيسي تلك الممثلة التعيسة الحظ، «ريتا هيوارث» التي أخنى الزمان على جمالها، فحسْن الوجوه «حال تحول» كما قال «الأستاذ». كانت صاعقة الحسن في شبابها، وتزوجها الممثل الأمريكي الموهوب «أورسن ولز» ومن بعده علي خان، ثم أفل نجمها وأصيبت بمرض عضال، وماتت في حالة مأساوية في مصحة في نيويورك. كان دورها في فيلم «الأمطار» من أدوارها التي لا تنسى، دور المرأة «الساقطة» التي نبّهت في القسيس، وهو يسعى إلى إصلاحها، عواطف مدمرة لم يكن يعلم أنها ساكنة في أعماقه.

نعم، هذا كاتب مليونير يستحق أن يسمى «كاتباً»، والمال في نهاية الأمر، واحد من المقاييس التي يقاس بها الناس. وهو مقياس سهل. شيء واضح، يُرى ويحسّ وله دوي. أما الذكاء، وأما حسْن الخلق،

وأما الفضل، وأما العلم، فكيف تقيس هذه الأمور؟ ولا عليك من قول الحسن بن هانئ:

وقد زادني تيهاً على الناس أنني
أراني أغناهم وإن كنت ذا فقرِ

باللّه هل هذا كلام؟ هل الفقير يجوز له أن يتيه على الناس بفقره؟ أجل! كان «سمرسِتْ موم» كاتباً حقيقياً، كتبه غلّت له الملايين، قضى حياته الطويلة في داره الشهيرة «فيلا مورسك» في خليج «آنتيب» على الـ«كوت دازور»، كيف قالوا؟ شاطئ اللازورد. ما هو «اللازورد» يا أم عمرو؟

ثمة لا حرٌّ ولا برد، وزرقة البحر الأسطوري مثل حلم قريب المنال. الصباح يوقظ الأفكار النائمة، وسكون اللّيل، «يجيب» الأصوات من بعيد. كان يجلس في «بلكونة» داره، ينسج أحلامه الغالية الثمن، يحمل له النسيم عطر الياسمين، وتغني له الطيور النازحة في هجرتها الأزلية من الشمال أو الجنوب، وتهدّئ ثائرة نفسه أمواج البحر المتوسط. حين يكون الطقس دافئاً يلبس الـ«روب دي شامبر» الحريري الشهير، وحين يبرد قليلاً يتلفع ببطانية من الكاشمير. يفرغ من العمل، فيرسله إلى الناشر الذي ينتظره بفارغ صبر، ثم يتوافد عليه أصدقاؤه من كل حدب وصوب، ليُسرّوا عنه، بعد الآلام التي عاناها في الكتابة. وأي أصحاب؟ نجوم الفن ونجماته، وأثرياء الكتّاب وأثرياء الشعراء، وأثرياء الرسّامين، وأثرياء الأثرياء. أليس هذا جميلاً؟ ما هو الخطأ في هذا؟

«شي حِلُو» تقولي يا أم عمرو؟ صدقت. وهل أنا غيران؟ نعم، سوى

أن الرجل قد ترك كل هذا وراءه، وذهب إلى حيث لا ينفع مال ولا شهرة. اللّه أعلم من ورثه فلم تكن له زوجة ولا عيال، ولم تكن له رغبة بالنساء أصلاً.

نعم، هذا كاتب، فهل تسمي نفسك كاتباً مثله يا أبا زينب؟ إنها لعمري صلة واهية، بل هي أوهى من خيط العنكبوت.

لي ناشر شهم شهلول، حفظه اللّه ورعاه، وأغدق عليه من جميل عطاياه، دخل ميدان النشر أصلاً لأنه يعشق الكتب، يبرها ويحنو عليها، ويلمّ شملها كما يُجمع اللقطاء من قارعات الطرق. يؤويها ويطعمها ويسقيها، وينفق عليها من حُرِّ ماله. وهو إنسان أبلج يهش لك ويحسن استقبالك، يفعل ذلك مع كل الكتّاب والشعراء الذين ينشر لهم. والإنصاف يقتضيني أن أقول إنه كلما لقيني، وإن كنت لا أراه إلا كما كان كثّير يرى عزّة، يدفع إليّ بالألف والألفين، أحياناً ليرات وأحياناً ريالات وأحياناً دولارات حسب المكان الذي يجود الزمان فيه باللقاء. وألف وألفان، بأي عملة كانت، ليس مبلغاً هيّناً، اللّهم إلا بعملة لبنان والسودان. وكنت أعلم أنه يقتطع ذلك من قوت عياله، فنشر الكتب عندنا، مثل كتابتها، لا يدر مالاً. وأين نحن من هذه الدور الكبيرة في باريس ولندن ونيويورك، حيث الناشرون أباطرة والكتّاب قياصرة. هذا، وهو يعاني من تزوير المزورين وشح الموزعين. يقوم المسكين بهذا العمل الجليل في خدمة الثقافة العربية، لا تدعمه دولة ولا تشد أزره حكومة، فالدول والحكومات، أيدها اللّه، مشغولة في ديارنا بما هو أجدى وأنفع.

أذهب عن هذا الناشر البطل الذي يخدم الثقافة في أصعب الظروف تحت وابل القنابل، وأنا أرثي لحاله وأعاتب نفسي قائلاً:

«يا أخي حرام عيك. تأخذ فلوس من هذا المسكين؟ من أين يجيب المال لك ولأمثالك؟ ألا يكفيك أنه أذاع اسمك في الآفاق؟ أما يرضيك أن كتبك تقرأ من عمان إلى القيروان؟ أما أصبحت بفضل هذا الناشر تدعى للملتقيات الفكرية والمنتديات الأدبية؟ ألم يجعلك شيئاً مذكوراً، بعد أن كنت لا شيء تكتب عنك الأطروحات الجامعية وتمنح لك الدكتوراهات الفخرية؟ تُرابٌ لك من كاتب! آليت، لو كانت عندك ذرة من أريحية، لدفعت أنت من جيبك لهذا الناشر بدل أن تسأله الدفع».

هكذا، ومع ذلك، فلا تحزن يا أبا زينب. إن عاجلاً وإن آجلاً سوف يجيئك المال. سوف يجدك صرت «كأشلاء اللجام» لا تستطيع أن تتمتع به، فهذا ديدن الحياة كما تعلم:

«تعطي حين يكون الوعي مشتتاً،
وحين تعطي، تعطي بطرق محيرة،
تجعل العطاء يغتال الشهوة».

هكذا قال الشاعر الإنجليزي. وأحسن منه قول «الأستاذ»:

«من رآها بعينها شاقه القطان فيها كما تشوق الحمولُ».

لا تحزن. واحمد اللّه على ما أعطاك وهو كثير. تفكر أنك أسعد حالاً من «فان قوغ» الذي مات مخبولاً، ولوحاته تُباع الآن بالملايين. و«بودلير» البائس، الذي يطلع اليوم عنه كل عام كتاب، ولم يكن يجد ثمن الطعام والشراب. و«قوقول» الذي خرج من تحت عباءته كل الكتّاب. ومن أيضاً؟ «أوسكار وايلد» التعيس، الذي خادعته الحياة برهة، فظن الأمر لهواً ولعباً، ولما هوى من

عليائه، نزح إلى باريس، فلم يكن يجد كراء غرفته الفقيرة، وكان يستجدي ثمن عشائه. وما لك تذهب بعيداً؟ انظر إلى الجاحظ العبقري الذي لن يجود الزمان بمثله. أكل طعامهم وكأنه يأكل سمّاً زعافاً.. والتجاني يوسف بشير، شاعر السودان العظيم، الذي لم يسمّوا إلى الآن شارعاً باسمه ولا يعرف إلّا القليلون أين قبره. وهلمّ جرّاً.

لا تبتئس يا أبا زينب، وتمتع بهذه اللحظة العابرة، واذهب إلى نزل الـ «أورينتال» حيث كان يحلّ «الكاتب سمرست موم». هذه المرارة التي خامرتك سحابة صيف، وهي ليست من طبعك. لعلك تعبت من الترحال، وتريد أن تأوي إلى جبل. تريد أن تخلد إلى مكان تحبه، لا تبرحه، تسمع فيه نداء الأذان في الفجر.. والنيل بعيد.. النيل بعيد. ولعلك أيضاً تذكرت، بل أنت يقيناً تذكرت أم عمرو.. وأين منك أم عمرو؟

■ ■ ■

قال الدّليل، بصوت ليس حسناً، ولغة إنجليزية ركيكة، ولكنة أمريكية تجرح الأذن:

«أنتم هنا في عالم الأحلام. في الشرق الساحر. في أرض «تايلاند» الخلاّبة. هذه البلاد يُطلق عليها «أرض الابتسام». هل تعرفون لماذا؟».

وأجابته سائحة أمريكية مسنّة، فأكثر السائحات الأمريكيات في هذه المجموعة مُسنّات:

«لأن الناس هنا سعداء، يبتسمون دائماً».

أسرف الدّليل في الضحك، واستجاب السيّاح الأمريكان لضحكه، وقد ظل يضحك طوال الرحلة، وفي أغلب الأحيان، دون سبب. قال:

«فري قود»... هذا هو.. أنت لست جميلة فقط، ولكنك ذكية أيضاً. الناس هنا كلهم سعداء... «هابي».. «هابي».. دائماً يبتسمون. هل أنتم سعداء؟».

وأجابته أصوات أمريكية، نساء ورجالاً:
«شُوْر».. بالتأكيد، نحن سعداء».

«طبعاً أنتم سعداء. واضح هذا على وجوهكم.. «آي لڤ أمريكا».. أحب أمريكا لأنها أرض السعادة.. مثل تايلاند.. تايلاند وأمريكا بلاد السعادة.. سوف تتمتّعون بهذه الرحلة النهريّة الرائعة. هل تعلمون ما اسم هذا النهر الرائع؟ هذا نهر «شاو فرايا»... يعني نهر الملوك».

أنا عادة أنساق وراء هذه الأوهام، وأستسلم لها تماماً في حينها، ثم أصحو منها. صحبت دليلاً أول مرة زرت فيها الأهرامات، كان يخلط التاريخ الفرعوني بالتاريخ اليوناني بالتاريخ الإسلامي، فكأنّ الخليفة المأمون من الملوك الفراعنة، وكأنّ رمسيس من خلفاء بني العبّاس. كان مرِحاً مرَحاً غير مصطنع، ويتحدث بطريقة ساخرة توحي لك أنه يعلم في قرارة نفسه أن الكلام الذي يقوله لك ليس صحيحاً. ولعلّه قدّر أن السيّاح، وخاصة الأمريكان، لا تهمهم هذه المعلومات على أي حال. كان دليلاً مملوءاً حيوية وجاذبية، يقدّم لك تاريخاً من صنعه هو، ليس موجوداً في كتب التاريخ. ولم لا؟

فالتاريخ في الغالب، رجم بالغيب. اختفى هذا النوع الآن، لسوء الحظ. أصبح الأولاد في مصر، خريجي جامعات، ويحسنون اللّغات الأجنبية، ويعطونك كمّاً هائلاً من المعلومات، التي سرعان ما تنساها.

لماذا أضيق إذاً بهذا الدّليل التايلاندي؟

أعجبني نزل الـ«أورينتال» الذي يقوم على حافّة النهر تماماً. وجدته فندقاً «كلاسيكيّاً» مريحاً، كل شيء فيه معمولٌ بذوق، دون ترف ودون بذخ. لا أدري ماذا حدث له الآن، ولكنه كان تلك الأيام، واحداً من أجمل الفنادق التي عرفتها. لاحظت أول دخولي، أنهم أسموا قسماً منه باسم «سمرست موم»، أعطوني غرفة واسعة، حسنة الأثاث دون مغالاة، تطل على النهر. ولم يكن ثمن الإقامة كبيراً، كان أرخص كثيراً من نظرائه في أي بلد آخر. وكما أفعل عادة، فقد انضممت في اليوم الأول إلى رحلة من الرحلات التي ينظمها الـ «هوتيل» أتعرف فيها على المعالم الرئيسية للمدينة. بهذه الطريقة تكوّن صورةٍ عامّة تضيف إليها بعد ذلك إذا شئت، بالمشي والتسكّع على مهل. وفي اليوم الثاني قمت بهذه الرحلة النهرية التي تستغرق اليوم كله.

كان الدليل التايلاندي يوجّه حديثه بصفة خاصة إلى السيّاح الأمريكان الذين غلبوا على هذه المجموعة. لا عجب، فهم سادة الدنيا الآن، الرومان الجدد، جيوبهم عامرة بالدولارات وكمراتهم مشرّعة كأنها مدافع رشاش. يصوّرون كلّ شيء. إذا رأوا معبداً أو بقرة ترعى، أو طفلاً نصف عار، أو امرأة تعمل في الحقل، أو قارباً «سامبان» ينزلق على وجه الماء. ويصوّر بعضهم بعضاً. ماذا يطلبون؟

هل يريدون أن يوقفوا الفلك عن الدوران؟ ويضحكون... إنهم سعداء... «هابي».. «هابي». يبتسمون ويضجون بالضحك.

هل يرون ما حولهم حقّاً؟ لقد جاءوا يحملون في مخيّلاتهم صوراً لن تتزحزح، عن عوالم ساحرة، صنعتها لهم الدعايات السياحية والروايات الرومنسية وأفلام «هوليوود». ينظرون إلى حياة الناس كما هي، فلا يرون إلا هذه الصور الزاهية التي استقرت في أذهانهم. الناس والحياة بالنسبة لهم، مثل تلك الألوان الغائمة في لوحات الرّسام الفرنسي «مونيه». و«تايلاند» خاصّة، تستجيب لكل مطالبهم، وترضي كلّ تصوراتهم الموهومة، فقد فعلت «هوليوود» فيها الأعاجيب.

أناس لطيفون، والحق يقال، ليس في طبعهم تكلف، يتعرفون إلى الناس بسهولة ويتحدثون بعفوية. ولكن ليس عندهم رغبة حقيقية في المعرفة، وسيّان عندهم إن كنت من مصر أو الصومال أو السنغال. وربّما يكونون معذورين، فبلادهم واسعة وغنية، وقد عملوا فيها بجد، وأخرجوا ما فيها من كنوز، وأصبحت التكنولوجيا في أيديهم مثل السحر عند قبائل بدائية، كل شيء ممكن، وكل حلم قريب المنال. وأنت تستلطفهم وتضيق بهم في الوقت نفسه، كما يحدث لك مع الأطفال.

مرّت سفينتنا على القصر الملكي بقبابة المذهّبة وقد رست أسفله، «الحراقات الملكية» المستطيلة. وقال الدّليل:

«في عام ١٩٨٧ سوف يبلغ ملكنا المحبوب، صاحب الجلالة «بوميبول» الستين من العمر. سوف تقام في بلادنا احتفالات خرافية

ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة. هذه القوارب الأسطورية التي ترونها سوف تنطلق فوق النهر مثل أجنحة الملائكة. لا بد أن تعودوا إلى «تايلاند» حينئذ لتشهدوا هذا الحدث التاريخي».

زرت القصر بعد هذه الرحلة، فوجدت معماراً «فكتوريّاً» كما في قصر «بكنجهام» في لندن، إلا أن السقف علته قباب مذهبة، ذات قمم حادّة تصعد في السماء كما في المعابد البوذية. ذلك أن «تايلاند» حكمها في القرن التاسع عشر ملك على شاكلة بطرس الأكبر في روسيا، ومحمد علي باشا في مصر، استهوته الحضارة الأوروبية وأراد أن يجعل «تايلاند» قطعة من أوروبا فعمل هذا الخليط العجيب، وبنى هذا القصر الذي لا هو بالشرقي ولا بالغربي.

■ ■ ■

السفينة النهرية ذات الطابقين، تسير على مهل فوق نهر «شاوْفرايا» متّجهة بنا إلى «أيوتّاهايا» العاصمة القديمة، على بعد سبعين كيلومتراً من «بانكوك». يا له من اسم جميل، «أيوتّاهايا». لماذا هجروها وأنشأوا عاصمة أخرى بدلاً منها؟

ظلت حاضرة المُلْك أكثر من أربعة قرون، كما أخبرنا الدليل، من عام ١٣٥٠ حتى عام ١٧٦٧. ثم حدث لها ما حدث لإرم ذات العماد وسَوَالِن البلقاء. سوف نرى أطلال القصور وشظايا المعابد، والحصون، وتماثيل بوذا، مقطعة الرؤوس، مكسَّرة الأذرع والأرجل، متناثرة الأشلاء على ساحات المدينة البائدة. سوف يلتقط السيّاح الأمريكان صوراً كثيرة لهذا الخراب وهم يضحكون. تركع المرأة عند قدمي الـ«بوذا» ويأخذ لها زوجها صورة. يقف الرجل على بقايا

درج قصر تقوّض، وتأخذ له زوجته صورة. ويبتسمون ويضحكون.

يضحكون لأوهى الأسباب، هؤلاء القوم، لأنهم واثقون من أنفسهم، ينتمون إلى أمة قاهرة و«حضارة» غالبة. وفي أعينهم، هذا النهر المربدُّ ذو المياه العكرة هو «نهر الملوك»، وهذه البلاد الفقيرة، هي «سيام الأسطورية»، التي لم ينشئها أهلها ولكن انشأتها السينما في «هوليوود». وقد وفدوا إليها في طائرات الـ«بان آم» الجمبو التي صنعتها مصانعهم يحملون الدولار «الخرافي» الذي تُقاس به العملات شرقاً وغرباً. فما لهم لا يضحكون؟

أما أنا فما الذي يسعدني؟ ليس معي آلة تصوير، وقومي رعاهم اللّه، وأصطحب شاعراً لا يدعك تهنأ باللحظة التي أنت فيها، يا يَني يوسوس لك بما يعكر صفوك:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا
وعَناهُم من شأنه ما عنانا
وتولّوا بغصّةٍ كلُّهم منه
وإنْ سرّ بعضهم أحياناً.

صدقت يا سيّد الشعراء، وليتك لم تصدُق، فهذا الحُطام والرُّكام خير شاهد على صدق قولك. وهو أمر لا يبعث على الضحك، ولكنه يبعث على الأسى. فها أنا قد أسيْت واستعبرت كما تريد. وهبْك أشعرَ العالمين من عرب ورُطّان، فما فائدة هذا الآن؟

هذا، ونحن لم نزل بعدُ في أول الطريق، لم نبلغ العاصمة الدّارسة «أيوتّاهايا»، يا له من اسم جميل له نغم سلس، بخلاف «بانجوك» الذي كأنه هولندي. و«سيام» أجمل من «تايلاند». ما الذي حدث

فغيروا اسم البلد ونقلوا العاصمة؟ وعزمت أن أقرأ في تاريخ هذه البلاد، حين أعود. ومرّت السنوات منذ عام ثمانين وأنا ما أزال أجهل لماذا انتقلوا من «سيام» إلى «تايلاند» ومن «أيوتّاهايا» إلى «بانجوك».

إلاّ أنني في تلك الرحلة، فهمت شيئاً، إن لم أكن فهمت غيره لكان ذلك حسبي.

أخبرنا الدليل، وهو يضحك كعادته أن «تايلاند» تقع في منتصف المسافة بين الهند والصين، وأن مساحتها تقرب من مساحة فرنسا، وأنها عرفت أقدم حضارة على وجه الأرض. عجبت لذلك، فقد كنت أظن السومريين وقدماء المصريين، هم روّاد الحضارة، وأن السومريين سبقوا قدماء المصريين بقليل. لا بأس. فليكن التايلنديون أول من أقام حضارة على الأرض. ولعل ضيقي بالدليل خفّ حينئذ، فقد أخذ يصنع التاريخ على هواه، كما فعل الدليل المصري. وربما بدأ يسخر من عقول السيّاح الأمريكان الذين أوسعهم ملَقاً أول الأمر.

أما أنها بين الصين والهند، فقد تأكد لي خلال إقامتي أن «تايلاند» لا تشبه الصين ولا الهند، بمعنى لم يقصده الدليل. ذلك أنني لم أجد فيهم حيوية الصينيين ولا سكينة الهنود. فيهم شيء آخر ذكّرني بناسٍ أعرفهم ظللت أجهد ذهني لأتذكر من هم طوال إقامتي في «بانجوك».

زرت معابد كثيرة في هذه الرحلة النهرية وخلال تجوالي - في مدينة «بانجوك». في كل معبد، بوذا. البوذا الضخم الراقد على جنبه، وبوذا الزّبرجد، وبوذا الذهبي. اختلطت المعابد في ذاكرتي فكأنها

معبد واحد لكنني أذكر بوضوح بوذا عملاقاً يجلس القرفصاء في معبدٍ ما. بوذا عظيم الثديين، عظيم الكفلين، عظيم الكرش، بين الأنثى والذكر، وجهه مليح يحمل تعبيراً بين الرضى والغضب، بين الحزن والابتسام. كان الوثن مثل ناقة عَبْلة يَزْحَمُ جنبات المعبد، ويسدُّ نوافذ الخيال، في غيْم كثيف من دخان البخور والنَّد، وحوله عُبّاد يقرعون أجراساً صغيرة لها رنين ناعم، يختلط بعضه ببعض مثل ضحكات الأطفال، وهم يزمجرون بالدعاء، ويلقون للصنم بقصاصات أوراق، فيها ولا شك، رجاءاتهم وتوسّلاتهم.

هنالك، يا سبحان اللّه، طاف بي خاطر حنيفيّ كريم. اتّضح لي فجأة أمر كان يجب عليّ أن أفهمه من زمن. تخيلتُ الصنم العملاق وقد أُقْصي عن المعبد، وسكتت الزَّمزَمات وصمتت الأجراس. أصبح المكان فضاءً مفتوحاً على الأفق اللاّمتناهي، فهو جزء منه وهو امتداد له. أصبح مسجداً. زالت الحُجب بين خيال العابد في مكان عبادته والآفاق الممتدة داخل نفسه وخارجها. لا يوجد وثن يحصر أقطار العقل. لا ثمَّةَ إلّا المطلق، الإله الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء ولا يحدُّه زمان ولا مكان.. اللّه جلّ جلاله إله المسلمين والعالمين.

■ ■ ■

قفا بي يا صاحبيَّ قليلاً على مغاني «تايلاند» الساحرة، أرض «سيام» «الأسطورية» بلاد السعادة والابتسام.

فلْنحتفِ بهذا اليوم المشرق القصير على ظهر هذه السفينة، فإنه «رهين بأيّام الشهور الأطاول».

لا بد أن هذه البلاد كانت في يوم من الأيام فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. ولا بأس أن مثل هذه الأوصاف لا يبتدعها أهل البلد أنفسهم، ولكن يسبغها عليهم عادة الغرباء، وليس أكثر غرابةً من الأوروبيين.

خرجوا من ديارهم الجليدية كمن يخرج من كهف، وتدفقوا مثل سحائب من الجراد على أقوام بسطاء في آفاقٍ بعيدة. أخذوا يسمون الأسماء بلا هوادة، ويعلّقون الألقاب جزافاً. حدّثوا أن الإسبان حين وصلوا إلى حيث تقوم مدينة «مانيلا» الآن، مانيلا عاصمة الفيليبين، وكانت أرضاً عراء مستنقعاً، وجدوا رجالاً يذودون عنهم حشرة قارصة ويحكّون أجسادهم ويصرخون «مانيًا مانيًا» إشارة إلى الحشرة. فسألوهم بالإسبانية، التي لم يكونوا قد تعلموها بعد، ما اسم ذلك المكان، فقالوا «مانيًا مانيًا». فظن الإسبان أن المكان يسمّى «مانيلا». والعجيب أن أهل البلد قبلوا التسمية، فأصبحت عاصمتهم تحمل اسماً لا يعني شيئاً.

مثل هذا حدث في السودان. وجد الإنجليز عندنا بلدة عامرة على مفترق طرق، تسمّى «اتْبِرا» الذي يسميه الناس «الأتْبراوي». وهو نهر كبير يرفد النيل بعد أن يفارق الخرطوم، مشهورٌ ومذكور في آثارنا وأشعارنا. وقد قال الحَرْدَلُّو في معرض الفخر:

«شيخ الأتبراوي وماشي فيه كلامي».

وقد ذكر أولو العلم أن الاسم مشتق من «أتاوراسْ» أي النهر الذي يجيء من أرض الظلام.

جلب الإنجليز معهم مترجمين، ظنوا أننا قوم أعاجم غُلْف الألسنة، نجعل العين ألفاً والطّاء تاء كما في «عُطيْل»، فقالوا لا بدّ أنها «عَطْبرة».

فأخذنا نقول «عطبرة عطبرة» إلى يومنا هذا، كما قال الفيلبينيون من قبلنا مانيلا.. مانيلا.

ماذا تسمّي هذا يا رعاك اللّه، أظنه يدخل في باب الغزو الحضاري وطمس الهويّة ومحو الذاتية.

لكن لا بأس، لعلّ هذه البلاد كانت حقيقة في زمن غابر فردوساً من هذه الفراديس الضائعة. حتماً على كل أمة في ما يبدو، أن تضيّع فردوساً لتبكي عليه، فكأنها جِبِلَّةٌ جَبَل اللّه الإنسان عليها.

أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي
وعلَّمكم مفارقةَ الجنان

أذاك أنت يا صاحبي؟ أما تزال توسوس لي تريد أن تُفْسِدَ عليّ هذا اليوم القصير الأجل؟ صدقت، كما تصدق كلّ مرّة، ولكن ماذا يجدي هذا الآن؟

هذه بلاد واسعة، مساحتها أكثر من نصف مليون كيلومتر مربع، فيها الجبال والشلاّلات والغابات والسهول الخصبة والشواطئ الرمليّة الممتدة. وسواء أقامت فيها أول حضارة على وجه الأرض، كما زعم الدليل أم لم تقم، فثمة أدلة كثيرة تؤكد أنها أنتجت حضارة لا يُستهان بها. ترى ذلك في المعابد المُجمَّحة، بمعمارها العجيب،

وأبراجها العالية، بعضها يعلو في شكل مُكدَّس يضيق تدريجيّاً مثل بعض الأشجار الاستوائية. هذا بالتأكيد معمار أكثر طرافة وجاذبية من المعمار الأوروبي القوطي كما في كاتدرائية «نُوتردام» في باريس. معبد «واتْ أرونْ» ـ معبد الفجر ـ في بانجوك بناء مدهش حقّاً. ومعبد «وانْ فرا» ذو القبة المذهّبة حيث يسكن «بوذا الزمرّد». والحصون والقصور التي شيّدها الملوك المتعاقبون من آل «شاكري» ومن سبقهم. كذلك تجد آثار هذه الحضارة في الفنون والصناعات القديمة وأزياء النساء.

هذا كله يحتويه ثوب بوذي واسع فضفاض، فالبوذية أصلاً كذلك، وهي ديانة تسعين بالمائة من أهل «تايلاند» وقد وصلتهم في القرن الثالث قبل الميلاد، بواسطة مبشرين أرسلهم الأمبراطور «أسوك» الهندي. وليس صدفةً أن «تايلاند» التي تتجاذبها المؤثرات الصينية والمؤثرات الهندية، اختارت البوذية، مؤثرةً إيّاها على كنفوشية الصين وهندوكية الهند. والمسلمون يأتون في المرتبة الثانية بعد البوذيين، ويغلُبون في الجزء الجنوبي من القطر. كذلك توجد أقليات من المسيحيين والسيخ والهندوس.

عنصر الـ «تايْ» الغالب، جاءوا على الأرجح من الصين، وجلبوا معهم الأنماط الصينية في الإدارة والحكم. وقد مزجوا هذا بشرائع «مانو» الهندوكية، وغلّفوه بغلاف رقيق من الأساليب الأوروبية، فحصل لهم النظام الذي هم عليه الآن. وكما يحدث دائماً، اختلطت السلالات والأعراق.

امتزج الـ«تاي» بمئات الآلاف من الأسرى الذين جازوهم في حروبهم الطويلة مع جارتهم «بورما». ووفد عليهم الناس من الهند

وفارس والصين. وجاءتهم أعداد قليلة من العرب. وكما يحدث في كل الدنيا، تفرَّع الناس قبائل. فإذا كان عندنا كنانة وطيء وتميم وبنو أسد وبنو كلب وبنو مُرّة ومن لفَّ لفَّهم، فعندهم الـ «مُنْ» والـ «لاوأ» والـ «كارِنْ» والـ «تشاونام».

■ ■ ■

بلى، المدن مثل البشر، لها ظاهر وباطن، تُخفي عنك وجهاً وتلقاك بوجه. إلّا أن هذه المدينة، كأنها بلا أسرار، وكأنّ ظاهرها هو باطنها.

السائق الذي استقبلني في المطار، إذ إن الهوتيلات في «بانكوك» ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلاً. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت إليّ وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسألني:

«ما هي رغبات سعادتك؟ ما هو الصنف الذي تفضله؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوفر».

كانت إجراءات المطار قد تمت بسهولة، فالسياحة عندهم مصدر رئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحية تقول لك إن في مدينة «بانكوك» ما يرضي كل «الأذواق». حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم أضيّع وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له:

«أنا متعب الآن» بعد أن أستجم سوف أخبرك بـ«رغباتي». كان الفصل صيفاً، وهذا مناخ استوائي. والمكان كأنه.. كأنه.. بماذا يذكرني هذا المكان والطائرة، هذه الرَّكوبة المجنونة، تنقلك في لمح البصر من مناخ إلى مناخ، ولا تترك فرصة لخيالك كي يلحق بك.

نثرت أشيائي في الغرفة فصارت أقل وحشة، غرفة غريبة في بلد غريب، في أفق بعيد.

نظرت من النافذة إلى النهر، الذي أصبح منذ الغد «نهر الملوك». إنه الآن قبيل الغروب نهر عادي، وهذا يكفيني. تستطيع أن تتخيل لوهلة أنك في القاهرة أو الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الأنهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد أبعادها، فكأنه مغناطيس يجذب إليه الحياة على الضفتين.

لأنني نشأت على ضفة نهر، فإنني أعتاد أسرع، على المدن التي تقوم على ضفاف أنهار. أول ما قدِمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وأنا أحس أن المدينة كأنها بلا مركز ثقل وكأنها معلقة في الهواء. ثم أدركت أن سبب هذا الإحساس أن المدينة لا تقوم على ضفة نهر وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المثير، صوت قعقعة القطارات أواخر الليل، طبعاً ألفتها بعد ذلك وأحببتها كما هي.

كنت قد تمهلت وأنا أتعرف على سكني الجديد الذي سوف يُؤويني بضع ليالٍ ثم أرحل عنه، وقد لا أعود إليه أبداً. ونسيت أمر السائق الذي أوصلني من المطار. ولم يخطر لي أنه سوف يأخذ مزاجي

مأخذ الجد، لذلك دهشت حين وجدته ينتظر عند باب النزل. أسرع نحوي:

«ها؟ هل ارتحت الآن؟».
قلت له:
«لسَّع. ما أزال متعباً».
«غداً إذاً؟».
«نعم، غداً».

تسكّعت قليلاً غير بعيد من الـ«هوتيل»، إعلانات «مقاصر التدليك» وصور النساء، شبه عاريات، تحاصرك من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميّزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبحاً على قبح. وقد اتضح لي فيما بعد، أن مصيبة هذه المدينة أنها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد أنشئت منذ أكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والأبنية القديمة، وهنا هذه الحياة «الحديثة» بكل آفاتها منفصلة لا تمت إلى ذلك الماضي بصلة. الأمر ليس سهلاً، ونحن أيضاً. انظر إلى القاهرة المحروسة. في الوسط، تلك العمارات التي تُعد تحفاً في فن المعمار، انظر إلى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، وإلى الخراب الذي حاق بالمدينة على أيدي المقاولين والتجار، رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البريّة. والخرطوم أتعس حالاً. تلك المدينة التي تقوم في موقع من أجمل مواقع المدن في العالم، أي بشاعة حاقت بها، من سوء التخطيط وقلة الذوق! هل نحن حقاً فقراء إلى هذا الحد؟

وقفت سيارة أمريكية فارهة، فيها امرأتان. التي تجلس وراء عجلة

القيادة كأنها خليط من دم صيني ودم أمريكي. أنثى لا مراء في ذلك، ولكن شعرها قصير جداً «ألا جارسون» كأنها غلام. قالت: «هل تحب أن تمضي وقتاً طيّباً؟».

يا له من سؤال! ومن الذي لا يحب أن يقضي وقتاً طيّباً في هذه الحياة الدنيا؟ ولكن ما أبعد هذا الذي يدعونني إليه من الوقت الطيب! أليس كذلك يا أخا كِنْده؟ ما لك أخلدت إلى الصمت؟ ألم تقل شعراً يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فأنا أعلم أنك تسمو عن هذا، وتربأُ بنفسك عن مثل هذه القاذورات. ولا تثريب عليك أنك جريتَ وراء خيالك أبعد قليلاً مما يجوز، حين قلت:

عُـــدْ وأعـــدْهـــا فـــحـــبـــذا تـــلـــفٌ
ألـــصـــقَ صـــدري بـــ (...) الـــنَّـــاهـــد.

قلتُ للمرأة مازحاً:
«هل أنت بنت أم ولد؟».

لم أتوقع ما حدث، وانتابني ما هو أكثر من الدهشة، إذ إن المرأة كشفت فجأة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر أنثى لا مراء في ذلك، وأغلقت باب السيارة بعنف، وانطلقت لا تلوي على شيء.

أضحكني ذلك، ولا أدري ماذا كان يجب عليّ أن أفعل، فأنا بعدُ كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصادٌ يُجمع ويُخزن إلى حين.

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كأنه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق. البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بدّ لها من عزيمة تحميها. قال:
«غداً إذاً؟».
قلت له:
«نعم. غداً».

■ ■ ■

في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب عليَّ أنني أضيّع على نفسي فرصة ثمينة:

«ما هي حكايتك؟ أنت دائماً تعبان.. تعبان؟ لك ثلاثة أيام. ألن تستجم بعد؟» قلت له ضاحكاً:

«تريد الصراحة؟ ليس لي رغبة في ما تعرضه عليّ. ولكن تعال أستضيفك على شراب».

جلسنا في مقهى النُّزل، وكنت قد أشفقت عليه، وأحسست ببعض الذنب أنني ضلّلته. مسكين. لا بد أن له زوجة وأطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع أنه بار بأبويه، رؤوف بأبنائه. ليس من «بانجوك» على الأرجح، فأغلب سكّان المدن في عالم الفقراء، العالم الْماذا؟ الثالث؟ نزحوا إليها من الرّيف. كأنه من «كوستي» أو «المُجلد» أو.. «جوبا».. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ «جوبا» وهؤلاء الناس يذكرونني بأهل جنوب السودان، دعْك من اختلاف الألوان. هل كان عندهم في سالف

العصر والأوان فردوس ثم أضاعوه؟ إذاً لماذا لا يبكون عليه كما نبكي نحن على فراديسنا الضائعة؟

رأوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية الموسقة بأصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدّقوا الوعود وظنوا ذلك الجحيم هو الفردوس الموعود.. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاءوا يسعون وراء الحلم المستحيل.

مسكين لا بد أنه أيضاً أميّ، أو شبه أمي، يخوض غمار الحياة بلا سلاح. قال وهو يمتصُّ شراب الكوكاكولا المستورد من مصّاصة البلاستيك، وقد أشرق وجهه فجأة:

«على أي حال أنا سعيد جداً اليوم. حالفني الحظ فظفرت بزبونين ثريين. دبّرت لهما شيئاً ممتازاً.. هايْ كلاس.. ليس من النوع المبتذل الذي تجده في شوارع «بانجوك» ومحلاّت التدليك.. حاجة هاي كلاس بحق. لذلك أجزلاني العطاء».
«كم أعطياك؟».
«خمسين دولاراً».
«هذا مبلغ كبير؟»
«مبلغ كبير؟ هذا أكثر مما أكسبه من الشركة في أسبوع كامل».
«السيارة ليست ملكك؟»
«طبعاً السيارة ليست ملكي! كل التاكسيات في «بانجوك» تملكها شركات».

لا عجب أنه محبور لا يزعجه أي إحساس بالإثم. وجهه منبسط وضميره مرتاح.

كان معدّل الدخل في «تايلاند» تلك الأيام أقل من مائتي دولار في العام، لكل رجل وامرأة طفل وشيخ. يوفر هذا المسكين منها نفقة السكن والطعام والشراب والعلاج والتعليم، ويدّخر شيئاً يصد به غوائل الزمان ونوائب الحدثان.

لا عجب. مجرد وسيط. كأنه يساعدك على تأجير بيت أو شراء تذكرة سفر بالطائرة. ويأخذ «عمولة». البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها ولا بد لها من قوة تحميها.

آه! والسودان؟ معدَّل الدخل في السودان إلى الآن، لا يزيد عن أربعمائة دولار على أحسن الفروض. من هذه الحصيلة الضئيلة يبدّد المبددون وينهب الناهبون، وتجيّش الجيوس وتُشن الحروب. الفقر فضيحة.

نساء «سو دَرى» و«حمرة الشيخ» و«حمرة الوز» وأم بادر، بعد قرون من حياة مصونة وحمى آمن، إذ كن مثل البيض المكنون في أوكار النّسور، جار عليهن الزمان، وأجلاهن القحط وغباء الحكام عن ديارهن، فجئن يتسولّن في شوارع الخرطوم. الله يستر عليهن مما هو أسوأ. في أثناء ذلك تشتعل الثورات وتخمد، وتقوم العهود وتسقط.

الّـــلـــيـــلـــة والّـــلـــيـــلـــه
أم بـــادر يـــا خـــلـــيـــلـــه
زولا سَـــرْب ســـرّبَـــه
خـــلّـــى الجبـــال غـــرْبـــه
أدّونـــي لـــي شـــربَـــهْ
خـــلّْـــونـــي الأقـــصْ دَرْبـــهْ

الفقر مصيبة. والثراء أيضاً مصيبة. وإذا اجتمعت المصيبتان فتلكم الطامّة الكبرى.

هذه المدينة أفسدها الأمريكان، كما أفسدوا «مانيلا» عاصمة الفيليبين. كانت مرتعاً لجنودهم يستريحون فيه من عذابات المعارك، في المحيط الهادي وفي شرق آسيا، خلال الحرب العالمية الثانية ثم في حرب فيتنام. أناخوا عليها بكلكلهم، كما يفعل الجنود، وأراقوا عليها دولاراتهم. وجدوا قوماً بسطاء ضعفاء لا يعصمهم عاصم، فعاثوا في المدينة كما شاءوا، وتركوها كما ترى.

البراءة وحدها لا تكفي. مثل نبات الوسمي أو نار العشب اليابس، أو كما قال الشاعر السوداني:

الحِن نار عويش إن علّقوها تعيشْ
بَسْ ما أنت جاهل وإن جفيتْ معليشْ(*)

قلت للسائق التايلندي، وهو يجلس قبالتي في مقهى نزل الـ «أورينتال» الذي كان يُلمُّ به الكاتب المليونير «سمرسِت موم»:

«وهذه الدولارات العشرة مني أنا أيضاً، لأنني ضلّلتك».

فرح بها أيّما فرح. ولعلّه يسدُّ بها ثُغرة في حياته.. ثوب يشتريه

(*) الحِنْ، تعني العطف، وهنا تعني الحب.
عويشْ، أي العشب الجاف وسيقان القصب وما شابه. وناره سرعان ما تنطفئ.

لابنته أو لابنه. كان سعيداً مرتاح الضمير، لا يعذبه أدنى شعور بالإثم.

وأنا أيضاً شعرت ببعض الرّاحة. غفر الله لي، فإنني لا أعلم إن كانت تلك حسنة أثاب عليها. ولكن الأعمال بالنيّات، كما جاء في الأثر، أليس كذلك يا رعاك الله؟

■ ■ ■

لفت نظري في تلك المجموعة من السيّاح الأمريكيين، رجل متوسط القامة، حسن الوجه، رأسه مكسوّ بشعر أبيض كثيف. كان مختلفاً عن بقية الأمريكيين لا يحمل آلة تصوير ولا يضجُّ بالضحك لأوهى سبب كالآخرين ولكن يبتسم من حين لآخر ابتسامة رصينة. وكان واضحاً أنه يسافر وحده، لا ينتمي إلى أي مجموعة منهم.

«هاي».
«هلو».

كنا نتجول في أطلال مدينة «أيوتّاهايا» الدّارسة، ثم وقفنا ننظر إلى تماثيل زعم الباعة التايلنديون انها تماثيل أثرية.

قال وهو يقلب تمثالاً نحاسياً صغيراً لفرس مجنّح:

«كل هذا لا قيمة له. يدفنونها في الأرض حتى تصدأ، ويبيعونها لهؤلاء السيّاح الأمريكيين الأغبياء على أنها تحف أثرية. إنهم مهووسون بكل ما هو قديم.. وعندهم المال.. يشترون أي شيء».

«ولكن.. ألست أمريكياً؟».
«بلى. من بوسطن، وأنت؟».
«من السودان».

لم أتوقع أن يكون سمع بالسودان، مثل أغلب الأمريكيين الذين لا يميّزون بين السودان وزائير وتنزانيا.

«آه. ذاك بلد يستحق أن يزار. يبدو بلداً ذا تاريخ حافل. إنه بلد واسع، أليس كذلك؟».
«مليون ميل مربع».
«مليون ميل... تصوّر».
«أكبر بلد في أفريقيا».
«عاصمته الخرطوم، أليس كذلك؟ عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. لا بد أنه منظر ساحر».
«من أجمل ما يرى الإنسان».
«لا بد أنها مدينة جميلة. ما اسم المدينة الأخرى؟ التي حدثت فيها المعركة الشهيرة... التي هزم فيها الإنجليز جيش المهدي؟».
«أم درمان».
«نعم. معركة أم درمان... كانت معركة غير متكافئة».
«كان مع الإنجليز أسلحة حديثة، ومع ذلك لم يكن النصر سهلاً».
«أعرف. لقد أظهر جيش المهدي بسالة نادرة».

عجبت من هذا الأمريكي الذي ليس كالأمريكيين كما تخيلت. قلت له:

«الأمريكان عادة ليس عندهم اهتمام ببقية العالم. ما هو سر اهتمامك بالسودان؟».

قال ضاحكاً:
«صدقت، نحن في الغالب مشغولون بأنفسنا.. كأنه لا يوجد أحد غيرنا على وجه الأرض.. الأقوياء دائماً هكذا.. ومع ذلك لا تعدم أمريكيين لا ينقصهم حب المعرفة».

«الواقع أنني قرأت بمحض الصدفة كتابين أثارا اهتمامي بالسودان، فأخذت أقرأ كل ما يصادفني عنه... كتابين مدهشين بحق لكاتب أسترالي».

«ألن مورْهد... النيل الأبيض والنيل الأزرق».
«نعم. ذلك هو... هل قرأتهما؟».
«نعم».
«يا له من كاتب! يشد انتباهك كأنك تقرأ رواية بوليسية».
«له كتاب آخر لا يقلّ روعة... عنوانه «اللقاء المدمر» هل قرأته؟».
«أبداً. عمَّ يتحدث؟».

«كيف أن الأوروبيين والأمريكيين بصفة خاصة ذهبوا إلى مجتمعات بدائية كانت تعيش مطمئنة على الفطرة في المحيط الهادي.. جلبوا إليها آفات «الحضارة الغربية» ومنها الأمراض الجنسية مثل مرض الزهري.. مزقوا نسيجها الاجتماعي ودمَّروها تدميراً».

قال بحزن:
«نعم. هكذا نحن. بلاء.. نحن برابرة هذا العصر.. حيثما

نحلُّ نترك وراءنا آثار الدمار والخراب.. بحسن نيَّة طبعاً.. وهذا ألعن».

زاد عجبي من هذا الأمريكي، الذي حيَّر كل تصوراتي عن الأمريكيين. نحن على ظهر السفينة الآن، عائدون إلى «بانجوك». السيّاح الأمريكان حولنا يضحكون ويلغطون ويأخذون الصور، والدليل التايلندي الذي رفع الكلفة مع بعضهم فيما يبدو، يمازحهم ويناديهم بأسمائهم.

قلت له ونحن متكئان على حاجز السفينة ننظر إلى مياه النهر:
«أتمنّى أن تتمكن من زيارة السودان».
«لا أظن، يا للأسف».
«ولم؟».
«ليس عندي وقت».
«لماذا؟».
«أنا في السادسة والسبعين على أي حال... لم يبق إلّا القليل من العمر».

قلت له:
«أنت تبدو في صحة ممتازة... من يدري؟ لعلك تعيش إلى التسعين أو المائة».

قال ضاحكاً:
«يا ليت. ولكنّ الأطباء لا يظنون ذلك. أعطوني عاماً واحداً فقط».

قبل أن أجد الكلمات المناسبة، قال:
«اكتشفوا أنني مصاب بنوع غريب من أنواع السرطان، لا يعرفون له دواء. قالوا إنني لن أعيش أكثر من عام واحد، على أقصى حد، قلت فليكن. إذا كان الأمر كذلك، فلأذهب لملاقاة الموت في منتصف الطريق، بدلاً من ان أجلس وأنتظر. قررت أن أقوم برحلة تستغرق عاماً كاملاً أزور فيها كل البلاد التي حلمت بزيارتها وأقرأ الكتب التي لم أجد الوقت لقراءتها.. أن أبدأ حياة جديدة... إذا صح القول».

ضحك دون مرارة، ثم صمت. وأنا أيضاً، فماذا أقول؟

«لحسن الحظ عندي من المال ما يكفي. في واقع الأمر عندي من المال أكثر بكثير مما يلزم أي إنسان في الحياة. طول حياتي وأنا مشغول بجمع المال.. نشأت نشأة فقيرة.. فقيرة جداً.. أصبح هدفي في الحياة أن أصير غنياً. المال لعنة. تقول أصل نصف مليون وأقف.. ثم تقول لا بأس خلّيه مليوناً وكفى.. ثم مليون ومليون وهكذا... إلى أن يتدخل القدر ويضع حداً للسباق رغماً عنك».

نظرت إليه الآن نظرة جديدة، فبدا لي وهو يتكئ على الحاجز الخشبي يحدق في ماء النهر، إنساناً مختلفاً. إنساناً غير عادي، يسير بخطى ثابتة نحو النهاية الحتمية. ولكنها نهاية مأساوية على أي حال، فيه شيء.. كيف أقول؟ بطولي. قال:

«لسوء الحظ نحن نضيّع جزءاً كبيراً من الحياة في أشياء تافهة. مثل جمع المال. تعرف أنني الآن أرى الدنيا بعيون جديدة.. كأنني أرى الأشياء لأول مرة.. كل شيء له وقع آخر.. مذاق آخر. لعل هذا

العام الذي بقي لي هو أهم عام في حياتي. بل لعلّه العام الوحيد في حياتي. أنا الآن، ولأول مرة في حياتي، حرٌ من كل القيود.. رتبت أموري وصفيت شركاتي، أحمل وصيّتي معي. أقول فيها أن يدفنوني حيث أموت. إذا مت في عرض البحر أن يلقوا بجثماني في البحر...».

تودعنا في «بانجوك» وكنت أظنه آخر لقاء. ولكن كأنما الحياة أرادت أن تؤكد لي شيئاً، أو تعزّيني عن شيء أضعته.

ذهبت إلى «سيدني» حيث وجدت «منسي» في انتظاري. ثم سافرت وحدي إلى «طوكيو» أقمت في فندق الـ«نيو أوتاني» الضخم. كأنك في سوق عامر. من كثرة الناس والزحام، الإنسان الذي تراه، لا تراه بعد ذلك أبداً. ورغم ذلك بينما أنا أسير في الممر الطويل الذي يؤدي إلى الاستقبال، إذا أنا فجأة بصاحبي الأمريكي. سمعت صوته ينادي وسط الزّحام:

«هي.. هي..».

«هلو.. أهلاً أهلاً. يا لها من صدفة عجيبة أن نلتقي مرة أخرى».

«صدفة عجيبة حقاً. لا أكاد أصدق».

«كيف حالك؟».

«عظيم».

«والصحة؟».

«ممتازة... إنني أبداً لم أشعر بالصحة كما أشعر الآن، يبدو أن الموت قد نسيني».

«أما قلت لك أنك قد تعيش إلى التسعين أو المائة؟».

«لا أظن. سوف أقابل الموت حتماً في هذه الرحلة. ولكنني مستعد له. يا للخسارة! أنا الآن في طريقي إلى المطار. أديو.. وداعاً.
«أديو.. مع السلامة».

١٢

سيدني

السادس والعشرون من شهر يناير عام ١٧٨٨، تاريخ له طعم مرير في حلوق الأستراليين، ومع ذلك فهم يحتفلون به، ربما لأن للشعوب رغبة لا تُحد في الاحتفال، وربما كما يحتفل السجين بإطلاق سراحه.

تسير في شوارع «سيدني» فكأنك في «نيويورك» تارة وفي لندن تارة أخرى، هنا في وسط المدينة حيث يقوم نزل الـ «هلتن» في شارع «بت» Pitt تحس كأنك في «نيويورك» لا بد أنهم أسموه باسم «وليم بتْ» رئيس وزراء بريطانيا الذي استُعمرت أستراليا في عهده. هذا المعمار البشع الذي ابتدعه الأمريكان، كما في «مانهاتان» في «نيويورك» لا لحاجة الناس إليه، ولكن لمجرد التباهي بما في أيديهم من تكنولوجيا، وإحساس الكائن البشري، وهو إحساس جهول كما نعلم، بأنه قادر على كل شيء. وتسير باتجاه البحر، وهو غير بعيد،

فإذا أسماء الشوارع وهيأة المباني، كأنك في لندن.

وفي واقع الأمر، فإن أوجه الشبه بين أستراليا عموماً وبين أمريكا أكثر مما بينها وبين إنجلترا، فأستراليا مثل أمريكا، نشأت على أطراف الحضارة الأوروبية، وهي مثلها قامت على أكتاف المهاجرين من العالم الأوروبي، وقد كانت مثل أمريكا مستعمرة بريطانية ثم كسرت القيد وشبّت عن الطوق.

ولكن شتّان بين الهجرتين، فالأوروبيون الذين نزحوا إلى أمريكا، كانوا في الغالب، رجالاً ونساء ذوي عقيدة ومبادئ، فرُّوا بدينهم من الاضطهاد أو سعياً وراء العيش الكريم. أما هؤلاء فكان لهم شأن آخر.

كان البحّار المغامر «وليم دامبْيير» أول بريطاني تطأ قدماه أرض أستراليا. وكان ذلك عام ١٦٨٨. إلا أن ذلك لم يحدث أثراً يذكر، فقد أهمل الأوروبيون قاطبة أمر أستراليا التي كانت تبدو لهم عالماً أقرب إلى الخرافة منه إلى الواقع، مما جعل «جوناثان سوفْت» مؤلف «رحلات قلفر» يطلق عليها اسم «بلاد الياهو». ثم في التاسع والعشرين من نيسان/أبريل عام ١٧٧٠ رست سفينة «كابتن كوك» في خليج واسع في الطرف الجنوبي الشرقي لأستراليا، أطلق عليه اسم «بوتاني بيْ ـ خليج النَّبات». لكنه لم يمكث طويلاً بل واصل سيره شمالاً بحذاء الساحل. هبط في لسان ممتد في البحر وهنالك غرز العلم البريطاني وأسمى كل ذلك الجزء الجنوبي الشرقي «نيو ساوث ويلز ـ ويلز الجنوبية الجديدة».

أيضاً لم يأبه الإنجليز بأستراليا، ولم يلتفتوا إليها إلا بعد أن ضاعت

منهم مستعمراتهم الأمريكية بعد حرب التحرير. أدركوا أنهم بضياع تلك المستعمرات، ما عادوا يجدون أرضاً ينفون إليها الفائض من المجرمين الذين ضاقت سجونهم عنهم. وبدا لهم أن تلك الأرض البعيدة التي أضافها «كابتن كوك» إلى ممتلكات التاج البريطاني، تصلح لذلك الغرض. وأعلن رئيس الوزراء «وليم بتْ» في البرلمان أن النفي إلى أستراليا هو أنجع وسيلة وأرخصها، للتخلص من المجرمين الذين لم تعد سجون بريطانيا تتسع لهم.

وهكذا، في ١٣ أيار/مايو عام ١٧٨٨، أبحر أسطول من إحدى عشرة سفينة تحمل ألفاً وثلاثين سجيناً، تحت إمرة «كابتن آرثر فيليب»، الذي أصبح أول حاكم للمستعمرة الجديدة. وفي ١٨ كانون الثاني/يناير ١٧٨٨، بعد رحلة دامت ثمانية أشهر، ألقت السفن مراسيها في «بوتاني بيْ» حيث حل «كابتن كوك» قبل ثمانية عشر عاماً.

لم يرُق الموقع لـ«كابتن فيليب»، فاختار مكاناً أبعد شمالاً بقليل. هنالك ألقى عصاه، وأفرغ حمولة سفنه من المجرمين، ورفع في تلك السماء البكر، العلم الأمبراطوري البريطاني، وأسمى المكان «سيدني» على اسم «لورد سيدني» وزير المستعمرات. كان ذلك على وجه التحديد في السادس والعشرين من كانون الثاني/يناير عام ١٧٨٨، أي قبل ما يربو بقليل عن قرن، من دخول الجيش البريطاني لبلاد السودان. وإذا كانت حرب التحرير قد صبغت علاقة الأمريكيين بالإنجليز، فإن هبوط أولئك النفر من «المجرمين» في ذلك المكان قد صبغ علاقة الأستراليين بالإنجليز إلى يومنا هذا.

على السطح لا ترى شيئاً، وأنت تتجول الآن في شوارع هذه المدينة

المزدهرة ذات الثلاثة ملايين أو أكثر، بدورها التجارية العامرة، وأبنيتها التي تشرئب بأعناقها في السماء، وأسماء شوارعها التي تذكّر بالعهد الاستعماري، ووجوه أهلها التي يغلب عليها السَّمت الأنجلوسكسوني. ولكنك حين تمعن النظر، تدرك أن تاريخ هذا الشعب عبارة عن ملحمة من فظاظة الإنسان الأوروبي، ضد نفسه وضد الآخرين. نحن نعلم من الكتب التي ظهرت مؤخراً، أن معظم أولئك «المجرمين» لم يكونوا مجرمين حقيقة، ولكنهم كانوا «ضحايا» نظام اجتماعي ظالم. وكما يحدث دائماً، فإن الظلم يولّد الظلم، والعنف ينبت العنف. بعد ذلك حين آل الأمر إلى هؤلاء «المجرمين المضطهدين» أوقعوا هم بدورهم الظلم والاضطهاد على سكان البلد الأوائل، الـ «ابُورُوجِنيزْ» المساكين الذين عاشوا في تلك الأصقاع قروناً، على الفطرة في غفلة عما تخبئه لهم الأقدار.

ليس عجيباً إذاً، أن يخرج من هذه البيئة، كاتب عظيم الموهبة هو «باترك هوايتْ» الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٧١، صوّر في رواياته صراع الإنسان الشرس من أجل البقاء. من هذه البيئة أيضاً، خرج الرسّام الكبير «سيدني نولان» الذي رسم الإنسان والطبيعة بشكل ليس له مثيل، كأنما في كوكب خرج عن المدار وأهملته الأقدار. ولا عجب كذلك، أن تنبت بيئة كهذه، كاتباً مثل «ألنْ مورْهد»، مؤلف «النيل الأبيض» و«النيل الأزرق» و«اللقاء المدمِّر»، كاتباً مرهف الشعور، عميق الإحساس بوطأة الظلم الذي يلحقه الإنسان بأخيه الإنسان.

■ ■ ■

ربما يخيّل لك من هذا الموقع في البحر، وأنت تنظر إلى المدينة تعلو

وتهبط، وتتفرّق وتتجمّع في أنصاف دوائر، أنك قد حللت في فردوس من فراديس الأرض. الزرقة تحيط بك من كل النواحي، زرقة صافية شفّافة. وشمس الضحى، رغم لدغة البرد، تغمر الماء والسماء، وتنعكس من زجاج إلى زجاج، ومن قمة إلى قمة، فوق العمارات الشاهقة على الشاطئ.

القصور الجميلة والـ«فلل» الأنيقة، والحدائق المزهرة والعشب الأخضر الغضّ، والبشر يسبحون أو يستلقون على الرمال تحت شمس الشتاء. بعض النساء صدورهن عارية تترجرج وهن يتراكضن لاحتضان موجات المحيط الهادئ، ويضحكن ويحمل الموج ضحكاتهن من شاطئ إلى شاطئ. وتعلو فوق ذلك كله قمم الجبال «الزرق» عند الأفق.

لم يكن «منسي» يحب المشي. اعتاد على السيارة، فكانت مسيرة بضع خطوات تجعله يلهث من التعب. ولم تكن له رغبة في التعرّف على معالم المدن التي يزورها. كان ينظر إليها نظرة مُجْملة، وكأنه يجد في ما يرى صوراً قد رآها من قبل. وكنت أعجب من أين يحصل على معلوماته، فلم أكن أراه يقرأ شيئاً، ولم يكن يتمعّن في شيء، ورغم ذلك يدهشك حين تسأله، بدقة ملاحظته، وغزارة معلوماته.

أقنعته بعد جهد أن نقوم بهذه الرحلة، وأن نمشي سيراً على الأقدام إلى المرفأ، بادئين سيرنا من مبنى البلدية، غير بعيد من نزل الـ«هلتن» حيث نقيم. اتجهنا شرقاً صوب البحر في شارع «جورج ستريت» تاركين حديقة «هايدبارك» إلى يميننا، ومرفأ «دارلينج» إلى يسارنا. نحن الآن في الجزء القديم من المدينة، كما خطّطها «الانْجلانْ

ماكْوري»، الحاكم الذي يُعزى إليه الفضل أيضاً في إسباغ اسم «أستراليا» على القارة بأكملها، بعد أن كانت تُعرف من قبل باسم Terra Australis . الأرض الجنوبية!

هذا رجل من طراز الرجال الذين برزوا خلال المد الاستعماري البريطاني، رجال التقت أوهامهم وطموحاتهم الشخصية، مع المرامي الكبرى لبلادهم، مثل كلايف وكيرزن في الهند، وكرومر في مصر، ولوجارْد في نيجيريا، وكتشنر في السودان، ورودْس في روديسيا. «بناة الأمبراطورية» كما تسميهم كتب التاريخ. كانوا جميعاً ينتمون إلى الطبقة العليا، لا يخامرهم أدنى شك في تفوق طبقتهم خاصة، وتفوق العنصر البريطاني على وجه العموم، وأنهم أصحاب «رسالة حضارية» واجبهم أن يفرضوها على العالم حتى ينتشر السلم البريطاني (Pax Britanica) كما عمَّ من قبل السلم الروماني (Pax Romana).

كذلك ذهب «لاخلان ماكوري» إلى أستراليا عام ١٨٠٩، قائداً أعلى وحاكماً عاماً على مستعمرة «نيوساوث ويلز» وملحقاتها. كان حينئذ ضابطاً عالي الرتبة في الجيش في الثامنة والأربعين من العمر، يحمل خبرة واسعة من خدمته في الشرق الأقصى والشرق الأوسط، ويؤمن إيماناً راسخاً بتميز النظم البريطانية والديانة المسيحية البروتستانتية. ولا بد أنه حين استلم مهام منصبه في كانون الثاني/ يناير عام ١٨٠٩ نظر باشمئزاز لا حد له، إلى المجتمع الغريب الذي كُلِّف بتصريف شؤونه. وجد مجتمعاً انقسم فيه البيض إلى «سادة» و«عبيد» فقد انضم إلى المستعمرة في العقود التي تلت عهد «كابتن فيليب» بعض المغامرين والطامعين من الطبقة الوسطى والطبقة العليا. ووجد مظاهر انحلال خلقي لا بد أنها صدمت أحاسيسه

البروتستانتية. كان الرجال يعاشرون النساء دون زواج، والعربدة شائعة والجرائم متفشية. وكانت الأوبئة والأمراض قد فتكت بالأهالي، سكان البلد الأوائل الذين أخذ عددهم يتناقص بشكل ملحوظ، كانوا محط سخرية البيض وامتهانهم حتى أنه كانت من وسائل التسلية عندهم أن يغروهم بالسكر، ثم يتفرجون عليهم يتصارعون حتى الموت. تماماً كما كان يفعل الرومان.

أصدر الحاكم الجديد نداءات تهيب بالطبقات العليا أن يتحلوا بضبط النفس والنزاهة، وتهيب بالطبقات الدنيا «أن يعزفوا عن شرب الخمر». وطالبهم بعدم إيذاء «الأهالي»، وحثهم جميعاً، بيضاً وأهالي أن يقيموا شعائر الدين ويواظبوا على حضور الصلوات بانتظام في الكنيسة أيام الآحاد.

ولم يكتف الحاكم بالبيانات والنداءات، ولكنه فرض قوانين صارمة، وأغلق الحانات، ولاحق شاربي الخمر، ومنع مظاهر الانحلال الجنسي، وفتح المدارس لتعليم المذهب البروتستانتي. وصاحب هذه الحملة «الخلقية» جهد كبير لتخطيط المدينة وتعميرها. وقد أوكل الحاكم بهذه المهمة، مهندساً معمارياً نابغة كان سجيناً بتهمة التزوير، فأعتقه وأناط به أمر تخطيط المدينة. ويمكن القول، إن هذا «المجرم» الموهوب، «فرانسِسْ قرينويي» هو بالنسبة لمدينة «سيدني» بمثابة «سير كرستفر رن» بالنسبة لمدينة لندن، و«هوسمان» بالنسبة لمدينة باريس.

كذلك أقام «لاخْلان ماكوري» المؤسسات الملازمة أبداً للنظام الاستعماري: الكنيسة، والمدرسة والمستشفى، والسجن، وسمّى الأسماء. ذلك أيضاً أمر ملازم للاستعمار. أسماء الملوك والأمراء

والنبلاء وقادة الجيش والزعماء السياسيين في الوطن الأم، فكأنه فرض أحلاماً جديدة بدل الأحلام القديمة، لأن «الأهالي» سكان أستراليا الأوائل كانوا يقيمون الطقوس لما يسمونه «زمن الحلم» حيث تختلط ذكريات ماضيهم البعيد بحاضرهم في عناق سرمدي. في قلب ذلك الحلم غرس «لاخلان ماكوري» رمزاً أجنبياً جديداً بشكل خُيّل إليه أنه سوف يدوم إلى الأبد. أقام باحة سماها «باحة ماكوري» وبنى في وسطها مسلّة عالية. كأنما أراد ذلك الموضع أن يكون مركز العالم، منه تؤخذ الأبعاد، وبه تقاس المسافات. إنه ما يزال موجوداً غير بعيد من حيث نقف الآن.

ولما أنهى مهمته عام ١٨٢١، كان قد نجح بمقاييس النظام الاستعماري، نجاحاً جعل «تشارلز داروِن» صاحب نظرية «النشأة والتطور» يقول حين زار «سيدني» عام ١٨٣٦:

«.. كوسيلة لجعل الناس فضلاء لإعادة خلقهم من شرذمة من السفلة الذين لا يرجى منهم خير في جزء من العالم، إلى مواطنين صالحين فاعلين في جزء آخر. وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً، مركزاً مضيئاً للحضارة، فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

لكن شاعراً من شعراء أستراليا الأوائل، رأى كما يفعل الشعراء دائماً، الظلام الذي يكمن وراء ذلك السطح المضيء، فقد قال «البارون فيلد» الذي كان ثاني رئيس للمحكمة العليا، قال يصف أستراليا:

«ولدتْ في ساعة الخطيئة الأولى،
حين حاقت اللَّعنة بالأرض،
لذلك هذه الغابة من الأشجار اليابسة».

سرنا في شارع الملك «جورج» المحاذي لشوارع الأمراء «يُورك» و«كلارنْس» و«كنت»، مارِّين بـ «ماركت ستريت» و«كنج ستريت» و«مارجريت ستريت». المعمار إنجليزي أحياناً وأمريكي أحياناً، إلى أن وصلنا المرفأ. أخذنا هذه السفينة السياحية من سفن «شركة توماس كوك» ضربت بنا في عرض البحر. إلى يسارنا عجيبتان من عجائب الإنجاز الأسترالي، الجسر ومبنى الأوبرا. تجاوزنا خليج «ولُومُولو» ودخلنا خليج «إليزابث». الشمس ساطعة وزرقة البحر موازية تماماً لزرقة السماء. «منسي» يضحك، لأنه تذكر بفعل ترابط الأفكار البنات الأستراليات اللائي كن يجاورنه في شارع «سيدني» في لندن. وأنا أنظر إلى ناطحات السحاب ووراءها الجبال «الزرق» وأفكر في قول «تشارلز داروِن».. «نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

ثم أفكر في قول القاضي الشاعر، الذي كأنما رأى كل هذا من وراء الغيب: «لذلك هذه الغابة من الأشجار اليابسة».

■ ■ ■

من أعجب ما سجّله التاريخ من أقوال المستوطنين البيض في أستراليا، عبارة لرجل يدعى «سي. لوكهارت»، قالها عام ١٨٤٩:

«لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ«أبوروجنيز» الذين شاءت الإرادة الإلهية أن تسمح لهم بالاحتفاظ بالأرض ريثما يجيء عنصر أفضل يحل محلّهم».

هذا الرجل المغمور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يُؤْثر، استحق

«الخلود» وإن كان خلوداً خيرٌ منه النسيان، بأنه أفصح بهذه العبارة التي ظلت تزحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. إنه عبّر دون مواربة، ودون حياء، عن مبرر أساسي من مبررات الاستعمار الأوروبي، وهو أن الأجناس غير الأوروبية، الـ«همج» في زعمهم، ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين، وأن الحيّز الذي يشغلونه على سطح الأرض، هو في الحقيقة خالٍ من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنهم جعلوه قانوناً إلهياً. وأضفوا عليه مبرراً أخلاقياً. قد يكون الإله الذي تذرعوا به «برستنتيّاً» كما في أستراليا، أو «كالڤنيّاً» كما في جنوب أفريقيا، أو «كاثوليكيّاً» كما في أمريكا اللاتينية، وقد يكون «يهوه» إله اليهود كما في فلسطين. ويمكن أن يسمع الإنسان صدى عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد أكثر من قرن من الزمان، «الفلسطينيون؟ أين هم هؤلاء الفلسطينيون؟».

في ذلك الصباح من شهر كانون الثاني/يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن «كابتن فيليب» على شاطئ أستراليا، نظر البيض فلم تر عيونهم بشراً. رأوا شخوصاً مثل الأشباح هي في اعتقادهم «لا شيء» كانوا عراة تلمع أجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتمسَّحون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. بأيديهم الرماح، وفي أنوفهم أشياء مثل الزِّمام. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل آلة محدودبة.

وقف السود على صخور الشاطئ، وكانوا من قبيلة الـ«أيورا» كما نعلم الآن، ينظرون كالمسحورين، إلى المنظر الذي لا بد أنه بدا لهم مثل كابوس من قوى شرِّيرة اقتحمت حلمهم الطويل.

تلك المخلوقات الغريبة التي كأنما تسلَّخت جلودها عنها لشدَّة احمرارها، أخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت أضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء وأطفال. بعضهم كانوا يرسفون في أغلال الحديد، وبعضهم يلبسون خرقاً ممزَّقة، وبعضهم يحملون السلاح، ويعطون الأوامر بأصوات شرسة. ثم نظروا بدهشة أكبر إلى عدد منهم يتجمّعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحدّث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير إلى الأطفال. ثم أخذ كأنما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يرددها وراءه. ذلك الرجل، كما تحدثنا كتب التاريخ، كان قسّيساً بروتستانتياً يدعى «ريتشارد جونسون»، تخرّج من جامعة كيمبردج، وتشرَّب مبادئ المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الأيام. وقد انضم إلى هذه الرحلة ليخدم «الرب» في تلك الأصقاع البعيدة. سارع أول ما ألقت السفن مراسيها فأقام الصلاة شكراً للإله أنه بلّغهم مقصدهم سالمين، وأنه خوّلهم تلك الأرض، يتبوّأون منها كيف شاءوا. كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصة بين قومه البيض، الذين كانوا أبعد ما يكون، عن «الآباء المهاجرين» الذين ذهبوا من قبل إلى أمريكا. وأصبح «جونسون» هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسته الدينية.

نظر الفريقان بعضهم إلى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم يَعِ أحدهم عن الآخر أي شيء. كان «السود» غارقين في حلمهم الذي خُيّل لهم أنه سوف يدوم إلى الأبد. سوف تمضي حقب قبل أن يفهموا مغزى الكارثة التي حاقت بهم.

أما البيض فإنهم لم يدركوا ـ وما كان يهمهم أن يدركوا ـ أن تلك

الأشباح كانت جزءاً من «شعب» توطّن تلك الأرض منذ أكثر من ثلاثين ألف عام. جاءوا في هجرات متعددة من آسيا، عبر «تاسمانيا» و«غينيا الجديدة». انتشروا في جزيرة أستراليا بأكملها، وغطوا وجه الأرض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسّموا قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة ألف. كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامّة عن الأحداث التي ألمّت ببقية سكان الأرض. ولما وصل الأوروبيون، وجدوهم ما يزالون في مرحلة البداءة الأولى. كانوا يعيشون على الصيد من البر والبحر، ويعتمدون على آلات بدائية. ورغم ذلك فقد ابتكروا نظاماً مكتملاً للعيش يلائمهم تماماً، وابتدعوا «ثقافة» ليست تافهة إذا نظرت فيها بإمعان، يمتزج فيها البحر بالسماء بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدي أسموه «زمن الحلم». وكانت الأرض هي مركز الحلم، إذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء. كأنما انتزعت «هويتهم» كما يُقال هذه الأيام.

تقول الأرض، بلسان شاعر أسترالي معاصر - من البيض - فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائماً أكثر إنصافاً وأعمق إحساساً:

«... أين راح أبنائي الأبكار،
الذين أخرجتُهم من رحمي،
من زمان، من زمان؟
لماذا، لماذا يكون؟
ماذا حدث للأساطير،
الأساطير التي نسجتُ والقوانين؟
قل لي ماذا حدث؟
أنت الذي ولدتُ بعدهم

بزمان، بزمان.
لماذا، لماذا لا أسمع،
إلّا صرخات أرواحهم تدوّي في الكهوف؟

■ ■ ■

في أستراليا أكثر من أي أرض أخرى استوطنها الأوروبيون، وقفت فلسفتان متناقضتان كلية إحداهما إزاء الأخرى.

الفلسفة الأوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، فلسفة تعتبر «الأرض» مجرد «شيء» من حق الإنسان أن يملكه ويستأثر به، ويقسّمه كيف شاء، ويستغله كيفما بدا له. والإنسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الإنسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الإلهية وقوانين التمييز الطبيعية، أي الأوروبي، ليكون خليفة على الأرض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون إلى التفوق التكنولوجي وإلى المدافع والبارود. في الجانب المقابل، وقفت فلسفة «أسطورية ـ شاعريّة»، ترى «الأرض» على امتدادها، كائناً حيّاً، يحس ويتألم، مخلوقاً له قداسة مثل «كاتدرائية مفتوحة» كما وصفها أحد الكتّاب.

احتار المستوطنون الأوائل في أمر الـ «أبوروجنيز». رأوا أناساً لا يشبهون أي أناس عرفوهم من قبل، أو سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا أوثاناً يعبدونها ولا «ديانة» يؤمنون بها. ولم يكونوا يملكون شيئاً، لا بيوتاً ولا مزارع ولا مقتنيات ولا أرضاً. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كأنهم يبحثون عن شيء مبهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل أن الـ«أبوروجنيز» يعتبرون الأرض بأجمعها، معبداً لهم، وأن فيها علامات وألغازاً وأسراراً، لا بد من مواصلتها باستمرار، وإلا توقفت الحياة، وأن «الأرض» تناديهم وتتحدث إليهم، وأن لهم طرقاً على وجه الأرض لا يخطئونها، كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

يصف الكاتب الإنجليزي «بروس شاتْونْ» قصة ظهور المخلوقات على الأرض، كما يتصورها الـ«أبوروجنيز» في كتابه البديع «دُروب الفناء»:

«في البدء كانت الأرض طيناً لازباً منبسطاً، منفصلة عن السماء والبحر المالح الرُّصاصي. وكان يغمرها ظلٌّ رهيف مثل الشفق. لم تكن بعدُ شمسٌ ولا قمرٌ ولا نجوم. وكان يسكن في المدى القصي «سكان السماء». كانت لهم هيئة البشر وسيقانهم مثل سيقان النعام، وعلى رؤوسهم شعر عسجدي كأنه نسيج العنكبوت. كانوا في نضارة دائمة، يعيشون في فردوس مخضرّ وراء الغيوم في الأفق الغربي.

لم يكن على وجه الأرض، سوى حفر، سوف تمتلئ بالماء يوماً ما. لم تكن ثمة حيوانات ولا نباتات، لا شيء سوى مادة لينة مثل العجين، متجمّعة عند تلك الحفر. مادة ليست حيّة ولا ميتة، لكنها «عصارة الحياة».

تحت الغشاء الخارجي للأرض، كانت الأشياء غافية تنتظر ساعة الميلاد.. الشمس والقمر والأشجار والحشرات والطير والحيوان. نائمة مثل بذور في صحراء تنتظر المطر.

في صباح اليوم الأول تململت الشمس في رحم الأرض، فقد أحست برغبة ملحّة لأن تولد. شقّت غشاء الأرض وخرجت، فغمرت الأرض بالضياء والدفء، وغمر الدفء الحفر التي تحتها كان ينام «القدماء».

كانوا مُنهكين متعبين، بخلاف سكان السماء، مبيضّة لحاهم، ضامرة أجسادهم ظلوا نائمين طوال العصور.

وهكذا، أحس كل واحد منهم في هذا اليوم الأول، دفء الشمس، فإذا بجسده يتشقَّق عن أطفال. خرج ثعبان من صُرَّة الرجل ـ الثعبان. الرجل ـ الببغاء، أحس بشيء له ريش يخرج من جسده، فإذا هو ببغاء. الرجل ـ الكانغرو تمخض عن كانغرو، والرجل ـ النملة ولد نملة، والرجل الزهرة، خرجت من جسده زهرة. وكل مخلوق من هذه المخلوقات الوليدة، أول ما مسَّ الأرض، رفع وجهه نحو الشمس.

في قيعان الحفر، التي امتلأت بالماء، حرك «القدماء» أقدامهم، القدم اليسرى، ثم القدم اليمنى. ثم هزوا أكتافهم وحركوا أذرعتهم. انشقت أجفانهم ففتحوا أعينهم، نظروا فرأوا أطفالهم يموجون في ضوء الشمس.

تساقط الطين عن أفخاذهم كما تسقط المشيمة غشاء الجنين، عن جسد الجنين. وكما يصرخ الطفل أول ما يولد، فتح كل واحد من «القدماء» فمه وصرخ «أنا.. أنا ثعبان، أنا.. أنا ببغاء، أنا.. أنا زهرة».

هذا النداء الأول، نداء تسمية الأسماء، ظل بعد ذلك وإلى الأبد، أقدس طلسم في «غناء القدماء».

ثم، كل واحد منهم، خطا خطوة بقدمه اليسرى، ودفء الشمس يغمره، ونادى باسم ثان وخطا بقدمه اليمنى وهتف باسم ثالث.. نادى بركة الماء، ونبات البوص، وشجر الصَّمغ، ينادي ذات اليمين وذات الشمال ينادي المخلوقات أن تولد، يغنّي لها ويزجل أسماءها. ثم طاف «القدماء» العالم طولاً وعرضاً وهم يغنّون. غنوا للأنهار وجبال الملح وكثبان الرمل. وكانوا أثناء تجوالهم يتركون دروباً مثل خيوط غير مرئية، ويتركون علامات مثل بصمات الأصابع.

غطوا العالم بأسره بلحاف من الغناء، ولما فرغوا، أحسوا بالتعب. أحسُّوا بأعضائهم تبرد ببرد الحقب الطويلة، وتيبس. بعضهم اندس حيث هو في باطن الأرض. وبعضهم حبا إلى أعماق المغارات والكهوف، وبعضهم غاب في الحفر الأبدية، من حيث خرج. عادوا كلهم إلى رحم الأرض».

■ ■ ■

ذلك كان منذ عهد بعيد. الذي حدث، وكيف حدث، ظلَّ ثابتاً في الزمان. هذا هو «زمان الحلم» كما يسمُّونه. كل شيء قد تمّ وانتهى، لكنه سوف يتكرر ويتجدد في صيرورة مستمرّة. والإنسان هو الذي يعيد تلك اللحظة، يعيد نشأتها، بالهجرة في «دروب الغناء» في مواسم معيّنة، مهتدياً بعلامات تركها «القدماء» على الأرض، كما يهتدي الملاّحون بالنجوم، حتى يصل إلى الأماكن «الحارّة»، حيث تكمن الـ«كُرُمْبا» ـ روح الأرض.

تمتدّ «دروب الغناء» على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها، تلتقي وتتفرّق، مثل نسْج العنكبوت. وطوال الرحلة، يُغنّي الإنسان. يُغنّي حين يحلّ، ويغني حين يرحل، ينادي بالأسماء القديمة، ويسترجع اللحظة الأولى. تستيقظ الأرض وتتحول إلى جسم مضيء، إلى أفق ميتافيزيقي يحفظ كل تاريخ «الشعب» وسيرته في الحياة، وكيف غمرته الهبات والنّعم، مثل القدرة على الرقص والغناء، وصنع آلات الصيد، وكلّ المهارات التي أتاحت له العيش.

في رحلة الحلم، يعيد الإنسان صلته بالطبيعة، ليس بالمعنى البيئي المعاصر، ولكن بالمعنى الشاعري ـ الأسطوري القديم.

تقول الأرض للبشر، كما غنّى شاعرهم:

«لقد ذبلتم وغاضت نضارتكم. سوف أصوّركم. سوف أضع طلاء جديداً عليكم، فتعود إليكم نضارتكم من جديد».

ويقول أحد حكمائهم عن علاقتهم بالأرض:

«نحن نؤمن أن الأرض هي التي تملكنا ولا نقول إننا نملك الأرض. الأرض ليست لنا، ولكننا نحن للأرض».

لذلك حين جاء المستوطنون الأوروبيون، وقسّموا الأرض ملكيات تظل في حَوْزتهم إلى ما لا نهاية، بحكم القوانين المعقدة التي فرضوها، كانوا في نظر الـ«أبوروجنيز» كأنهم قطّعوا جسم كائن حَي. قطعوا أيضاً خيوط الغناء القديمة، وعفّوا على الأماكن «الحارّة» وطمسوا معالم الحلم. انتهكوا قداسة الأرض، في نظر الـ«أبوروجنيز»

انتهاكاً أفظع مما لو أنهم ألقوا عليها قنبلة ذريّة.

حينئذ، ضاع الإنسان في غمار المجتمع الأوروبي الجديد بمفهومه المادّي. تزعزعت صلته بالأرض، وتزعزع إحساسه بالأمن، وأصابته البلبلة والحيرة، وانصرف إلى السُّكْر والجريمة.

لم تكن عندهم مؤسّسات للحكم، ولا زعماء، فقط أعراف تنظم شؤون حياتهم، بطريقة عفوية. كان لهم نخبة من رجالهم، كانوا بمثابة الأمناء على تراثهم. أولئك هم الـ«كاراجي» أيْ «الحكماء». كانوا يُنْتَخبون منذ صغرهم حسب مواصفات معيّنة، ويُعدّون إعداداً طويلاً شاقّاً، يصيرون بعده مرشدين روحيين للشّعب، يقودونه في رحلة الحكم، يعرفون الدروب والأغاني القديمة والأماكن «الحارّة»، والكهوف حيث التصاوير التي خلّفها القدماء، التي لا بد من إعادة طلائها في أوقات معيّنة، وإلا اختلطت الأمور وضاعت المسالك.

كانت هذه النخبة من الحكماء تقف سدّاً في وجه الغزو الثقافي الأوروبي، فركّز الأوروبيون هجومهم عليها. ولمّا انهارت، انهار شعب الأبوروجنيز برُمّته.

يقول الكاتب الأسترالي (جيمس كاوان) في كتابه «أسرار زمن الحلم»:

«كي نفهم المِحْنة العظيمة التي يتعرَّض لها أي مجتمع قديم في صراعه للحفاظ على تماسكه للاستمرار في الحياة، لا بدّ لنا أن نفهم خطورة المواجهة المدمِّرة، بين المادية الأوروبية وال «كاراجي»، بصفته قدوة ومرشداً ثقافياً وروحياً للمجتمع. فإن الكارثة التي حلّت

بالأبوروجنيز من تدمير لتراثهم الروحي والمثلوجي، ما تزال تحدث لمجتمعات أخرى إلى يومنا هذا».

لذلك نستطيع أن نتخيَّل إحساس شاعرهم، وهو يغنِّي بهذه الكلمات:

«أتلفَّت خلفي نحو الجبال العالية،
صوب «بنْقارِنْجي»
صوب «ووريْ» و«لقْلاقْ»
نمشي نحو السهول ومَصبِّ الوادي،
أشعر بالحزن،
إذ نفارق المحلْ،
تلك الجبال الصخريَّة عند «دارنْقوا»
وجبهة الجبل التي اسمها «بلاويرو»
نقتفي أثر الكانغرو
عبر السهل الواسع،
أبكي لأنني أضعت «مكاني»
يتقطر قلبي وأنا أقف في السهل المنبسط،
أنتظر هطول المطر».

هذه الكلمات على بساطتها ألا تثير في نفسك شجناً ليس غريباً عليك، تعرفه في الشعر العربي القديم؟ ألا تذكرك هذه الكلمات بقول زهير بن أبي سلمى؟:

لمن طللٌ كالوحي عافٍ منازلُه
عفا الرَّس منه، فالرَّسيسُ، فعاقِلُهْ

فَـرَقْـدُ، فـصـاراتٌ، فـأكـنـافُ مـنْـعـجٍ،
فـشـرقـيُّ سـلـمـى، حـوضُـه فـأجـاوِلـهْ
فـوادي الـبـديِّ فـالـطَّـويُّ فـثـادِقٌ،
فـوادي الـقـنـانِ، جِـزْعُـه فـأفـاكِـلُـهْ،
وغـيـثٍ مـن الـوَسْـمـيّ، حُـوٍّ تـلاعُـه
أجـابـت روابـيـه الـنِّـجـاء، هـواطِـلُـهْ

انظر إلى ذكر الأماكن هنا وهناك، وأن الشاعر يغمغم بها كأنها طلاسم. تخيّل شاعر الـ (أبوروجنيز) وهو ينتظر المطر، والشاعر العربي وقد تذكر المطر يهطل في زمان مضى. ثم تأمَّل أن الطلل العربي ليس مكاناً واحداً، ولكنه واسع شمل عدَّة أمكنة، وأنه مثل سطور كتاب امَّحت واختلط بعضها ببعض.

تقول كأنها.. لعلَّها.. دروب الغناء.

■ ■ ■

«انتظرنا قليلاً، فإذا بيد سوداء تمتدُّ من فُرجة في المشمّع المشدود على باب سيارة الـ«فولكس واقون» التي استقرّت على الأرض بلا عجلات. ثم بعد برهة، خرج رجل مشدود عضلات الجسم، على رأسه قبّعة حالَ لونها، ويلبس بنطلوناً متّسخاً، وقميصاً عليه رسوم قيثار ونوَت موسيقية. وكان حافياً. وقف في ضوء الشمس، ونظر نظرة فاحصة إلى «اركادي»، ثم خفض رأسه بوقار. ضرب الكلب فكفَّ عن النباح.

خاطبه «أركادي» بلغة «والبيري». أصغى الرجل صامتاً، ثم اختفى وراء المشمّع.

* قلت لـ «أركادي»: إنه يذكّرني بهيلا سلاسي.
ـ «أكثر هيبة».

* أكثر هيبة. صدقت. بكثير. هل يعود؟
ـ قال «أركادي»: «أظن».

* «هل يعرف الإنجليزية؟».
ـ نعم. ولكنه يأبى أن يتحدّث بها. الإنجليزية ليست لغته المفضَّلة.

علمت من «أركادي» أن سوء الحظ شاء لقبيلة الـ«كايتيجي» أن تقطن عند ممرّ خط التلغراف، لذلك اضطروا للاتصال بالبيض مبكّراً. تعلّموا صنع السكاكين ورؤوس الرّماح من زجاج الموصلات السلكية. أراد البيض أن يرعبوهم ليكفوا عن ذلك، فقتلوا عدداً منهم. أخذ الـ «كايتيجي» ثأرهم فقتلوا عدداً من البيض. كنا قد مررنا من قبل، بقبر عامل التلغراف، الذي استطاع وهو في الرمق الأخير، أن يدقَّ على التلغراف رسالة إلى زوجته في «أدليد». كان ذلك عام ١٨٧٤، وقد أصيب بطعنة رمح. ظل البوليس يقتّل الـ«كايتيجي» انتقاماً حتى عام ١٩٢٠.

رأى «الآن» وهو صبي، أباه وأخوته يقتلون رمياً بالرصاص.

* تقول إنه آخر من بقي منهم؟
ـ آخر من بقي من عشيرته، نعم. في هذه الناحية.

استندنا إلى جذع شجرة صمغ، وأخذنا نتابع الحياة تسري في المخيّم. «ميفس» و«روبي» ذهبتا لزيارة صديقاتهما. «بيج توم» استسلم

للنوم. «تمي» يجلس القرفصاء، ويبتسم.

الأرض عطشى، يابسة، مشققة. صف طويل من النمل، يدبُّ نشطاً على مقربة مني.

* قال «أركادي» فجأة: «أين «ماذْيون»؟ كان يجب أن تصل منذ ساعات. على أي حال، لنصنع الشاي».

جمعتُ الحطب، وأوقدت النار، وأخرج «أركادي» عدّة الشاي من المتاع. أعطى «تمي» شطيرة لحم فالتهمها في الحال، وطلب شطيرة أخرى بطريقة رجل تعوّد أن يأمر فيُطاع.

كاد الماء يفور، حين طرقت آذاننا فجأة ضوضاء كبيرة في المخيم. ولْولت النساء، وركضت الكلاب، وأسرع الأطفال والكلاب يبحثون عن مكان يحتمون به. رأينا صرحاً عالياً من غبار أحمر يداهمنا.. إعصار الـ«ولي - ولي».

تقدم الإعصار وهو يدوّي ويزمجر. امتصَّ في جوفه أوراق الشجر والحطب وصفائح الحديد، ودفعها إلى أعلى والتف حولها مثل حلزون، وكنس أرض المخيم وعبَر الطريق.

لحظات، ثم سكنت الضجة، وعاد كل شيء كما كان.

بعد قليل، قدم علينا رجل في أواسط العمر، يلبس قميصاً أزرق، سماويّ الزرقة، رأسه عار، بلا قبعة. على رأسه شعيرات قليلة، بيضاء، جعدة، وكذلك على ذقنه. ذكّرني وجهه الواضح المبتسم

بوجه أبي هبط على مؤخرته، وأخذ كوباً كبيراً، صب فيه كمية كبيرة، من السُّكَّر.

كلَّمه «أركادي» فاستمع له الرجل دون أن يتدخَّل، ولما سكت «أركادي» ردَّ عليه الرجل بصوت خفيض وهو يخط بأصبعه رسوماً في الرمل. ثم اتّجه حو سيارة «الفولكس واقون» التي اتخذها الرجل العجوز «الان» داراً.

* سألت «أركادي»: «من هذا؟».
ـ ابن أخت الرجل العجوز، وهو أيضاً مدير أعماله الروحي.

* وجاء يطلب ماذا.
ـ يمتحننا.

* هل نجحنا في الامتحان؟
ـ توقّع أن يشرّفنا الشيخ.. الـ (Boss).

* متى؟
ـ قريباً.

* يا ليتني أستطيع أن أفهم حكاية مدير الأعمال الروحي هذه.
ـ صعب.

هبَّ الدّخان من نار الشاي في وجوهنا. طرد الذباب على الأقل. أخرجت دفتري ووضعته على ركبتي.

قال «أركادي» إن الخطوة الأولى هي أن أفهم مغزى عبارتين من كلام الـ«أبوروجنيز».. عبارة «كِرْدا» وعبارة «كتنقورلو». الرجل الكبير «ألن» هو «كِرْدا».. أي «الرئيس».. أو «صاحب» الأرض التي سوف نزورها. هو المسؤول عنها.. يعتني بها.. يتأكد أن تظل الأرض في عافية.. أغانيها تُغَنّى وشعائرها تؤدى في أوقاتها. الرجل في القميص الأزرق هو الـ«كتنقورْلو» بالنسبة لـ«ألان». إنه مساعده ومدير أعماله، وهو ينتمي إلى «فخذ» طوطمي مغاير رغم أنه ابن أخت «ألان» سواء حقيقة أو تخيّلاً. كلمة «كتنقورلو» تعني «ذا رَحِم».

* قلت هذا يعني أن مدير الأعمال، له دائماً «حلم» مختلف عن الرئيس.
- نعم. هو كذلك.

قال «أركادي» إن كلاً من الرجلين، يتمتّع بحقوق طقوسية متبادلة في أرض الآخر، وهما يعملان معاً كفريق واحد لرعاية أرض الطرفين. وكون «الرئيس» دائماً أسنَّ من «مدير الأعمال» معناه أن الحكمة الطقوسية حكمة قبلية، تنتقل من جيل إلى جيل.

* قال «أركادي» إن الأوروبيين ظنوا أول عهدهم بالـ «أبوروجنيز» أن «الرئيس» هو شخص مثل مدير مصنع أو شركة، وأن «مدير الأعمال» شخصٌ لا وزن له.. كانوا جاهلين.. قال إن الـ «أبوروجنيز» أحياناً يفسرون وظيفة الـ «كتنقورلو» بأنه بمثابة الشرطي. الرئيس لا يخطو أي خطوة دون موافقة الشرطي. خُذْ حالة «ألان».. يقول ابن أخته إنهما تعيسان لأن خط سكة الحديد سوف يُخَرّب مكاناً مهماً من أماكن «الحلم».. حيث يرقد «الضَّب»

أبو العشيرة.. ولكن هو الذي سوف يتخذ القرار، وليس الرئيس، (Boss) هل يخرجان معنا أم لا.

ـ الأمر المدهش في هذا النظام هو أن «مسؤولية» الأرض، ليست في يد «المالك» ولكن في يد فرد من أفراد العشيرة المجاورة.

* والعكس بالعكس.
ـ تماماً.

* أي أن الحرب بين الجارين تصبح صعبة.
بل مستحيلة.

كأن أمريكا وروسيا... كأنَّ كل واحدة منهما تملك حق رسم السياسة الداخليّة في البلد الآخر».
«هُسَ، ها هما قادمان».

(*) من كتاب «دروب الغناء» للكاتب الإنجليزي «بروسْ شَاتْوِنْ».

■ ■ ■

يقول الكاتب الأسترالي «جيمس كَوان» في كتابه «أسرار زمن الحلم»:

«علينا أن نفهم كيف يتحول الحيّز الطبيعي إلى تعبير ميتافيزيقي عامر بالمعاني، معبّراً بذلك أصدق تعبير عن الروح المميّزة لشعب

الـ «أبوروجنيز». وحتى يتسنّى لنا ذلك، فلا بد لنا من أن نفك الألغاز والأسرار التي تحيط بتاريخ الأرض والشعب. وعلينا بادئ ذي بدء أن نطلق عنان خيالنا، ونتعوّد على التفكير بالرمز والمجاز.

لا يجدينا أن نستمع إلى صوت الطبيعة، من وراء حجاب الحكمة الأوروبية، تلك المادة التي استسلمنا لها منذ انهيار الروحانية الدينية النّخبوية في القرن الرابع عشر وحتى القرن الخامس عشر. كل ما نلناه هو أننا قطعنا الصلة مع منابعنا الروحية العميقة، وفقدنا القدرة على أن نرهف السمع لتلك الأصوات الخفيّة الغامضة التي تحيط بنا على الدوام.

تلك القدرة على النظر إلى المحسوسات المادية في الطبيعة، كأنما من موقع خارج الزمن، هي قدرة يتميز بها الـ «أبوروجنيز» بدرجة خارقة. إنها بحق رهبة أتاحت لهؤلاء القوم العيش والاستمرار منذ أقدم العصور. ويمكن القول إن ثقافة الـ «أبوروجنيز» هي أقدم ثقافة ابتدعها الإنسان، وأنها أكثر الثقافات صلابة، وأنها عاشت دون أن ينال منها التشويه الذي يرتبط بما يطلق عليه «انحلال الثقافة». تلك فكرة أوروبية طارئة، فحتى وصول الأوروبيين في القرن الثامن عشر، ظلت ثقافة الـ «أبوروجنيز» التي عاشت على الأرجح منذ أربعين ألف عام، تعطي الدعم الروحي اللازم لمجتمع في أوج ازدهاره الاجتماعي والوجداني.

علينا أن نعي كيف نظر الـ «أبوروجنيز» إلى الأرض وماذا وجدوا فيها. علينا أن نغيّر نظرتنا إلى المثلوجيا على أنها نوع من التعبير البدائي المتخلّف، ونقبل بأنها لغة ميتافيزيقية بالغة التعقيد للتعبير عمّا يمكن أن يُسمّى بالحقيقة. سوف يتّضح لنا حينئذ أن قصّة يحكيها

شخص ما عن جبل أو نهر أو شجرة، ليست لغواً تافهاً، وإنما هي تعبير عن أحداث حقيقية، في نظرهم، بطريقة رمزيّة مجازية.

وهكذا حين تواجهنا تلك الصخور الضِّخام في وسط أستراليا، المسمّاة بصخور «ألورو» سوف يواجهنا في آن واحد، جسم مادي في هيئة صخور، وأيضاً وجود ميتافيزيقي هو عبارة عن الأساطير والرموز التي تحيط بتلك الصخور. ولا يبعد عن فهم الـ «أبوروجنيز» أن الصخور تكونت بفعل عوامل الطبيعة من شمس ومطر ورياح، ولكنهم يعتقدون أن ذلك لم يحدث ضربة لازب، وأن قوى الطبيعة تخضع لقوى خفيّة تنفخ روحها في الأشياء وتحدد مسارها..

هكذا صار الفراغ الممتد في الطبيعة ينطق بلسان المجاز الأسطوري. لم يعد عراء لا حياة له، ولكنه أصبح «ببلوغرافيا»، سجلاً غنيّاً بالمعاني، لشعب يملك ذاكرة قوية لا يفلت منها شيء، وحاسة مرهفة قادرة على توصيل المعلومات طازجة غضة كما جاءته أول مرة.

لا يجوز أبداً الاستخفاف بملاحم الشعب وطقوسه. إن القاصّ الذي يروي تاريخ الحلم لموقع من المواقع التي تحيط بتلك الصخور، يقوم بدور خطير قدِّر له منذ ولد. وكل موقع له قاص. فإذا كان القاصُّ من قبيلة «الأرنب» مثلاً، فإن مهمته أن يتذكر الأساطير الخاصة بموقع قبيلته، ويوصلها إلى بقية أفراد القبيلة أثناء الاحتفالات الطقوسية التي تقام في ذلك الموقع. وكذلك القاصّ من قبيلة «الثعبان» وقبيلة «الكانغرو» وغيرها.

على كلّ واحد منهم أن يوصِّل أدق تفاصيل الحلم إلى أفراد قبيلته،

كي يشاركوا جميعاً في استرجاع اللحظة البكر في الزمن الأول، وحتى تستطيع القبيلة أن تضيف حلمها إلى أحلام القبائل الأخرى.

تلتقي قبائل القطر جميعاً في مواسم معينة تجيء من كل الأنحاء. تعسكر في موقع خاص له دلالة عندهم. تقام احتفالات من الطقوس والرقص والغناء. كل قبيلة تحكي تفاصيل حلمها وتستمع إلى أحلام الآخرين. كل قبيلة تضيف جزءاً إلى ذلك النشيج الواسع الذي يسمونه «زمن الحلم».. نسيج متنوع الأجزاء يسع القبائل جميعاً».

■ ■ ■

ربما يغفر المرء بعض الغفران لأوروبا، ما ألحقه استعمارها بالبشرية من أضرار جسيمة، أنها أنجبت على مر العصور رجالاً شرفاء ونساء، دافعوا بشجاعة عن حقوق الشعوب المغلوبة على أمرها، وكانوا في أحيان كثيرة يقفون في وجه تيار قوي مناهض لهم.

من هذه الزمرة الكريمة، بروفسور «ڤي. جي كيرنان» أستاذ التاريخ الحديث في جامعة «أدنبره» سابقاً. لقد صدر كتابه المهم «سادة الجنس البشري» أول مرة عام ١٩٦٩. كان الاستعمار الأوروبي قد أخذ ينحسر حينئذ، ولكنه لم ينته تماماً. وكانت المبررات الخلقية والفكرية ـ للنظام الاستعماري ـ ما تزال سائدة. لذلك كان بروفسور «كيرنان» من العلماء الأوائل في أوروبا، الذي دمغوا، بأسلوب عميق مؤثر، الوحشية التي أظهرها الأوروبيون، في فرض نفوذهم على شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين. وكان أيضاً من الأوائل الذين نوهوا بأن ثقافات الشعوب التي اعتبرها الأوروبيون بدائية، تنطوي على حكمة إنسانية عميقة، لا تقل أهمية عن

الحكمة الأوروبية، بل تفْضلها في كثير من الأحيان.

يقول بروفسور «كيرنان» في الفصل من كتابه عن شعب الـ «أبوروجنيز» في أستراليا:

«الاعتقاد بأن ما يسمّى بالشعوب المتخلّفة، لن تستطيع أن تستجيب لمتطلبات الحضارة، ولا سبيل أمامها إلا الانقراض، كان اعتقاداً شائعاً لدى كثيرين من طلائع الاستعمار الأوروبي. ولم يكن بين قبول هذا الافتراض، والتعجيل بذهاب تلك الشعوب إلى العالم الآخر، إلا خطوة قصيرة. هذا ما حدث في جزيرة «تسمانيا» بشكل لم يسبق له مثيل، منذ أن فتكت جحافل الإسبان بجزر البحر الكاريبي...

وفي الأرض الأم «أستراليا» أخذت بشاعات مماثلة تتكشف يوماً بعد يوم. لعلها لم تصل إلى حد القضاء قضاءً مبرماً على الأهلين، في شكل «حل نهائي» كما حدث في «تسمانيا». لم يستطيعوا ذلك، لأن الأرض كبيرة، انتشرت فيها قبائل الـ «أبوروجنيز» على مساحات واسعة، ولأن البيض أرادوا أن يبقوا على أعداد من الأهلين، كطبقة من الأرقاء. ولا ريب أن نظام «المهجرين المجرمين» كان له أثر عميق على نظرة الأوروبيين إلى الـ«أبوروجنيز».

في عام ١٨٣٤ وحده، نفي إلى أستراليا من هؤلاء السجناء، أكثر من خمسة آلاف، ولما احتجت سلطات «نيوساوث ويلز» أنها لن تستطيع استقبال المزيد منهم بعد عام ١٨٤٠، صاروا ينفونهم إلى غرب أستراليا حتى عام ١٨٦٧. ولمّا توقف المد كان مجموع السجناء الذين أبعدوا إلى أستراليا، قد بلغ ما يقارب نصف تعداد

السكان السود. ولا شك أن كثيرين من أولئك السجناء كانوا أفضل أخلاقاً من القضاة الذين أدانوهم ولكنهم فسدوا بعد ذلك بالعيش في مناخ إجرامي. وفي ظل النظام الاستعماري، كان فقراء البيض يجدون عزاء في احتقار الملوّنين، وكان السجناء المعتقون يحاولون أن يقوّوا الثقة بأنفسهم ويكسبوا الاحترام، بالإمعان في تعذيب السود واضطهادهم. وكانت جماعات من السجناء، تعمل تحت الحراسة المسلحة عند كبار الملاك من المزارعين، فلا غرو أنهم وقد استعبدوا أبناء جلدتهم من البيض، لم يكونوا يجدون في قلوبهم قطرة من الشفقة على شراذم من السود.

أحس «شارلز دارون» بالرضى أول مرة زار فيها أستراليا، من مظاهر التقدم الذي تمّ بفضل نظام السُخرة، مثل إنشاء الطرق بكلفة زهيدة. ولكن إحساسه تغيّر في زياراته اللاحقة. لقد أحسَّ حين أقام في مزرعة يعمل فيها أربعون من السجناء، أن نظام السُخرة، سوف يفسد المناخ الاجتماعي، وأن السلوك الإجرامي الشائع سوف يُعدي الوافدين الجدد، وأن الفساد الاجتماعي سوف يتسع ويستمر.

كان سهلاً على البيض أن يمتهنوا أولئك القوم الوديعين المسالمين، أسهل كثيراً مما تأتّى لهم مع قبائل الماوري الشجعان الأشاوسْ، وهو أمر إنْ دلَّ على شيء فإنما يدل على ضعف الأثر المسيحي على سلوك المستعمرين. كانت أستراليا مثل نيوزيلنده، أرضاً لا تكفل رغد العيش إلا لأولئك الذين يملكون نواصي التكنولوجيا المتقدمة. وإنه لأمر يدعو إلى الإعجاب حقاً، أن الـ «أبوروجنيز» نجحوا رغم مهاراتهم المحدودة، في أن يستمروا في العيش أصلاً. ولا جدال، أنهم استخدموا ما تيسر لهم من مهارات، أحسن استخدام.

كانوا صيّادين على درجة عالية من المهارة، وقد ابتدعوا سلاح الـ«بومَرانْج» المدهش، الذي لم يستطع البيض رغم تفوقهم التقني، أن يبتدعوا مثله. صحيح أن الحرب كانت تشبّ أحياناً بين القبائل ولكنها كانت حروباً صغيرة قليلة الضرر. ولم تكن تحدث إلا قليلاً، بسبب اتساع الأرض، وبعد القبائل بعضها عن بعض.

لم يحسّ الـ «أبوروجنيز» بالخوف من الرجل الأبيض أول ما التقوا به، فقد كانوا قوماً ودودين، لا يعرفون الخوف، بعضهم يثق ببعض، وقد وثقوا بالرجل الأبيض وظنوه «أخاً في الإنسانية»، بل إن قبيلة منهم ظنت الرجل الأبيض روحاً من أرواح أسلافهم بعثت إلى الحياة على تلك الصورة. أما الرجل الأبيض فقد كان أبعد ما يكون عن اعتبار إنسان الـ «أبوروجنيز» أخاً في الإنسانية.

لم يحسَّ الرجل الأبيض بحاجة إلى إخفاء احتقاره أو السيطرة على غطرسته، إزاء «الأهالي» العزّل من السلاح الذين لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم. وقد أصدر قائد حملة استكشافية عام ١٨٦٠، وهو رجل يُدعى «بيرك» الأوامر إلى رجاله قائلاً:

«إذا أحسستم منهم بأي استفزاز، لا تترددوا في إطلاق النار عليهم في الحال».

أنه لأمر يدعو للعجب أن الرجل الأبيض كان يشتط غضباً، إذا أبدى «الأهالي» أي استعداد للمقاومة، وإذا تفرقوا خوفاً من طلقات الرصاص، يحتقرهم متهماً إياهم بالجبن، ورغم ذلك فقد كان هؤلاء القوم البؤساء، يغدقون على الأوروبيين ألواناً من الرأفة والشفقة حين

يجدون أحداً منهم في شدة. كانوا يرأفون بهم كما يرأفون بأطفالهم. وقد اعتنت مجموعة منهم برجل يدعى «كنج» ضلّ الطريق فأقام في ضيافتهم وعنايتهم زهاء شهرين. وقد قال كاتب معاصر (ألان مورْهد) إن المذكرات التي تركها «كنج» عن تجربته تعد «أروع سجل للعرفان بالجميل، وهي كلمات تهز المشاعر وتقدم خير دليل على إنسانية الأبوروجنيز. ولعلها أيضاً بمثابة مرثاة للسود في «خليج كوبر» بعد أن أنقرضوا الآن كلية».

اقتطع المستوطنون البيض، الذين وصلوا حثيثاً على إثر الرواد المكتشفين، مساحات واسعة من الأرض جعلوها مراعي لتربية الأغنام والخيول. كانوا صنفاً شرساً من الرجال الذين جابوا الآفاق بحثاً عن الثروة وكانوا بمنأى عن أي سلطة تحدُّ من غطرستهم. وقد وجدوا في أستراليا قوماً يختلفون عن الماوري الأشداء، فساغ لهم استضعافهم، ولم يجدوا ما يحملهم على الاعتراف بحقهم في ملكية الأرض. كانوا يسخّرون أعداداً قليلة من الأهالي في أعمال بغيضة. هؤلاء كانوا ينفصلون عن قبائلهم بمرور الزمن ويصبحون «مدجّنين» في نظر البيض، أما بقية الـ«ايبو» ـ كما كانوا يسمّونهم احتقاراً ـ فكانوا يتركونهم هملاً مثل الوحوش الضالّة.

أما النساء فقد كان أمرهن مختلفاً. هؤلاء عندهم دائماً شيء يُطلب، ومهما أمعن البيض، هنا وفي جنوب أفريقيا، في احتقار «الأجناس المنحطة» فإن هذا الاحتقار لم يمنعهم من معاشرة نسائهم. لذلك فإن غالبية الملونين في تلك البلاد اليوم، هي من دماء مختلطة.

ماذا يفعل الناس حين تغتصب منهم أراضيهم غير اللجوء إلى

النهب، حينئذ يجد البيض المغتصبون مبرراً أخلاقياً في إبادتهم، إما رمياً بالرصاص، أو بالسّم أو بأي وسيلة فعّالة في عرفهم. وكانوا يقولون إن السود ليست لهم أرواح، لذلك فإن التخلص منهم لا يعتبر قتلاً.

ثارت احتجاجات في إنجلترا من قبل الناس الذين يحتجون عادة على مثل هذه الأمور. ولم يعدموا من يستمع إليهم. ففي عام ١٨٣٧، أعلنت لجنة برلمانية كان مستر «جلادستون» أحد أعضائها عن استنكارها للأعمال البشعة التي كان البيض يمارسونها ضد السود في أستراليا، ووصفتها بأنها «من البشاعة بدرجة لا يقبلها العقل». وقد وجهت الحكومة البريطانية من لندن نداءات استنكار إلى أستراليا، لم يكترث لها المستوطنون. وحين مُنحت أستراليا الحكم الذاتي عام ١٨٥٥ ـ ١٨٥٦ انتهت أي سيطرة لبريطانيا على مجريات الأمور هناك. لم تحتفظ الحكومة البريطانية بأي حق في حماية الأهالي وضمان حقوقهم، في حين أنه ضمنت لنفسها جني الأرباح من الاستثمارات واستيراد لحوم الضأن، دون أن تكلف عناء السؤال عن الوسائل التي تجيء بها تلك الهبات.

سادت في أوروبا كلها في ذلك الوقت فلسفة روَّج لها ممثلو الاستعمار في تلك البلاد المقهورة، أن الشعوب «المنحطة» لا مفر لها من أن تُستبدل، بل أن تنقرض في النهاية، وأن ذلك أمر طبيعي مثل ضحايا المناجم ومصانع الغزل في أوروبا. لا بد أن يصير التقدم ولا بد من دفع الثمن لهذا التقدم والأفضل أن يدفع آخرون هذا الثمن. وهكذا نجد «لورد روزبيري»، الذي استدرج حزب الأحرار إلى تبنّي الإمبريالية يستلهم هذه الفلسفة في خطابه الذي ألقاه في «أدليد» بأستراليا عام ١٨٨٣.

«إن الأقدار قد اختارت العنصر البريطاني ليحمل الرسالة ويكون معبِّراً عن آمال البشرية في الرقي والتقدم».

هكذا طغت في أستراليا، ليس فكرة «أخوة الإنسان» ولكن فكرة «أخوة الإنسان الأبيض».

■ ■ ■

قال لي المسؤول الكبير في وزارة الخارجية:

«اسمع. كوننا نبيع القمح والزُّبد واللحوم للعرب، هذا لا يحتم علينا أن نؤيد مواقفهم السياسية».

سافر «منسي» إلى لندن، وكان قد عجز عن أن يجد وسيلة يصحبني بها إلى «طوكيو» فجئت إلى «كانبرا» وحدي وقلت يا ليته كان معي فإن وقاحته تنفع في مثل هذا الموقف.

العرب، لأسباب بعضها واضح وبعضها غامض، يثيرون أحاسيس متناقضة عند الناس. الإعجاب والكراهية والخوف والطمع والحسد والاحتقار. على العربي أن يتوقع هذا ويصبر. صحيح أن الناس مخطئون في الغالب في حق العرب، ولكن العرب مخطئون أكثر في حق أنفسهم. وكما بين الأفراد، كذلك بين الأمم. الناس حيثما كانوا مشغولون، بمشاكلهم، ولا وقت لديهم لالتماس العذر للآخرين. وإذا كان الأمر كما قال «الأستاذ»:

ولم أر في عيوبِ النّاس عيْباً
كنقص القادرين على التَّمامِ

فإن الاحتقار يكون بمقدار «التّمام» المُحتمَلْ، و«النُّقصان» الماثل للعيان. فليكن ذلك شأني مع هذا الرجل.

أعجبتني المدينة بقدر ما أغاظني المسؤول في وزارة الخارجية، وحاولت أن أجد له عذراً فيما بعد وأنا أتمشى في «شارع الكومنولث» الواسع في اتجاه بحيرة «بيرْلي قرفنْ». إنها بحيرة اصطناعية ضخمة أعطوها اسم المهندس المعماري الأمريكي الذي خطط مدينة كانبرا. وتقول الكتب إن طول شطآنها يبلغ ٣٦ كيلومتراً، وقد زرعوا على حافّاتها الأشجار. زرعوا اثني عشر مليون شجرة في مدينة «كانبرا».

مدينة أنيقة مجلوّة مثل عروس، تمشي في شوارعها كما كان يمشي فلاسفة اليونان في شوارع «أثينا» على عهد «برِكْليس».

حدثت نفسي، أن الرجل كان ولا بد، يطوي صدره على إحساس بالإهمال والإهانة، لأن أحداً من كبار المسؤولين العرب لم يأت لزيارته منذ زمن. وأستراليا، مهما كان الأمر، قارة بأكملها، قطر محظوظ، فيها كل شيء. كل أمة تظن أنها مركز العالم «إنسانُ عين» الكون. وما فائدة أن تنشئ المدن وتشُقّ الطرق وتعمل بحيرات اصطناعية إذا لم يزرك أحد يعبّر لك عن إعجابه بما صنعت. الأمم مثل الأفراد، فيما يبدو، لا تحيا إلّا في عيون الآخرين. والعرب خاصة، يفهمون هذا الإحساس جيّداً، فهم دائماً مشغولون بما يقولِ الناس عنهم.

قلت لنفسي، لعلّ الرجل حسبني مسؤولاً كبيراً، وما كنت كذلك فعبّر لي عن إحساسه بالإهمال، بتلك الطريقة الملتوية.

والحق أن العرب لم يكونوا يكترثون بأستراليا تلك الأيام. لعل الحال قد تغيّر الآن. أغلب الدول العربية لم تكن لها سفارات في «كانبرا»، والسفراء القليلون الموجودون كأنهم في منفى، حين تزورهم يستقبلونك بترحاب عظيم، كما يفرح القريب النائي الذي لا يزوره أحد من أقربائه إلا لماماً. سفارات كأنها مهجورة، لا أحد يقف على أبوابها، والداخلون إليها والخارجون منها قليلون.

كان السفير اللبناني في وضع مريح نسبياً، فلم يكن لبنان في تلك الأيام، قد أصابه الخراب الذي حاق به فيما بعد. كان ما يزال يتشبّث بالرمق الباقي من دوره «الحضاري» الذي اختاره لنفسه. يحكّم العقل، ويعمل على جمع الشمل، ويدعو بالتي هي أحسن. هذا، والجالية اللبنانية أكبر جالية عربية في أستراليا، بعض أفرادها نزح منذ أكثر من قرن. منهم «مليونيرات» ورجال أعمال بارزون.

أما السفير المصري فقد كان في وضع صعب. كانت مصر قد أبرمت صلح «كامب ديفد» الذي عارضه أغلب العرب، وذهبوا في معارضته حداً بعيداً، ونقلوا خلافهم حتى إلى أستراليا، فكانوا يتحدثون بألسنة شتّى، بعضهم يناقض البعض الآخر. ولا شك أن المسؤول في وزارة الخارجية الأسترالية، كان على علم بكل ذلك، فكان سبباً إضافياً في عدم اكتراثه بالعرب.

بعد ذلك في «طوكيو» عبّر لي مسؤول في وزارة الخارجية اليابانية عن فكرة مماثلة. كان رجلاً مهذباً، يتحدّث اللّغة الإنجليزية بطلاقة لافتة للنظر. قال لي وهو يضحك:

«هؤلاء العرب ماذا يريدون منّا؟ كل كَمْ شهر يجيئنا وفد يطلب

منا أن نؤيد القضايا العربية. موقفنا واضح وقد أصدرنا به بياناً. نحن لم نُعطِ وعد بلفور ولسنا مسؤولين عن قيام دولة إسرائيل، ولا نبيعها السلاح، ولا نعطيها الدعم الديبلوماسي، علاقتنا بالعرب علاقة بسيطة تقوم على التبادل التجاري. نشتري منهم البترول ونبيعهم السيارات والمعدات الإلكترونية وغيرها. هذا كل ما في الأمر».

أعجبتني مدينة «كانبرا» وهي كلمة من لغة الأبوروجنيز تعني «مكان التجمع». وجدتها كما أحب أن تكون المدن، ليست ضخمة بحيث يحس فيها الإنسان بالضآلة والغربة، وليست قميئة بحيث تقتحمها العين. فيها كل المقوّمات التي تجعل المدن مدناً.

بدأوا في بنائها عام ١٩٠٨، في موقع بين المدينتين الكُبْريَين المتنافستين، «سيدني» و«ملبورن» على مساحة ٢٣٥٩ كيلومتراً مربعاً اقتطعوها من ولاية «نيو ساوث ويلز». وهي تمتد على نهرين، نهر «مورومبدجي» ونهر «مولوقولو». كما لها مدلولات في لغة الـ «أبوروجنيز»، وحيث تقوم المدينة اليوم كان ولا شك مكاناً تتجمع فيه القبائل، تستعيد ذكرى تلك اللحظة البكر في «زمن الحلم». ولكن هذا حلم جديد، شيّده قوم آخرون، جاءوا من وراء البحر.

ظلوا يبْنونها، ويحسّنونها ويجملونها حتى عام ١٩٨٨ حين افتتحوا مبنى البرلمان الفدرالي الجديد، بمناسبة مرور مائتي عام على قيام أستراليا.

قلت للمسؤول في وزارة الخارجية، وكان قد أثار فضولي، كأنه

شخصية في رواية قصصية:
«ولكن... ألا تهمكم الجالية العربية في أستراليا على الأقل؟».

قال:
«إنها جالية صغيرة لا وزن لها».

قلت له: .
«تعدادهم حسب علمي أكثر من ثلاثمائة ألف».

قال، وهو يتصنع الدهشة:
«حقاً؟ هل هم بهذه الكثرة؟ لم أكن أعلم».

ثم زادني إيضاحاً، بعد أن فكّر قليلاً، وكأنه يصف لي العرب إطلاقاً:
«إذا كان عددهم كما تقول، فإنهم من ناحية التأثير كأنهم... كأنهم لا شيء».

■ ■ ■

قبل أن يبنوا دار الأوبرا في «سيدني»، كان الأستراليون يتباهون بالجسر الذي يصل الشاطئ الشمالي للمرفأ بالشاطئ الجنوبي. إنه هيكل ضخم، كان يعتبر في زمانه، آية من آيات الإنجاز الهندسي. وما تزال له مهابة إلى اليوم، خاصة إذا نظرت إليه عند الفجر وقبيل الغروب.

أتمّوه عام ١٩٣٢، بعد تسع سنوات من عمل متصل. وكانت

فكرة إقامته قد خطرت لذلك «المجرم» النابغة الذي خطط مدينة «سيدني». ولكن حلم «فرانسس قرينويي» لم يتحقق إلا بعد أكثر من مائة عام. طوله ٥٠٣ أمتار، وترتفع قوسه عن سطح الماء في أعلى نقطة منه بمقدار ١٣٤ متراً. وقد أنجز في مناخ من التوتر السياسي والركود الاقتصادي. وكما حدث في أنحاء أخرى من العالم، فقد قامت في أستراليا حركة يمينية متطرفة، متأثرة بالحركة النازية في ألمانيا. وكانت في مقاطعة «نيو ساوث ويلز» حينئذ حكومة ليبرالية. ويحكي الأستراليون بشيء من الفخر، أنه في يوم الافتتاح، وقبل أن يقص رئيس الوزراء الشريط، ركض أحد زعماء حزب «الحرس الجديد» على حصانه وقطع الشريط بسيفه «باسم شعب نيو ساوث ويلز». لم تمكث الحكومة طويلاً، بعد هذه الحادثة، فقد سقطت، وحلّت محلها حكومة يمينية متطرفة.

كنا قد سمعنا القصة من قبل، ولكن «مستر كامرون» رئيس المجلس الأسترالي لرعاية الفنون، أعادها علينا، ونحن نجلس في مكتبه في مبنى الأوبرا، أمامنا البحر وإلى الشمال الجسر وقد ازدحم بحركة السيارات وقت الضحى. لم يكن فخوراً وهو يروي لنا القصة، فقد كان رجلاً مستنيراً متحضراً واسع الثقافة، من الناس الذين تركوا الدينا ذكرى طيبة. وقد وصفه «منسي» في ما بعد بأنه يشبه لوردات الإنجليز.

كان منسي يحس بجاذبية تلقائية نحو أفراد الطبقة الأرستقراطية من الإنجليز، فتزوج منهم، وجاورهم في حي «تشلسي»، وكان يصول ويجول في الأحياء الراقية، «بلقرافيا» و«سلون سكوير» و«نايتسبردج». وتعمّد أن يشتري مزرعة وداراً بجوار «لورد مونتباتن» قريب الملكة. وانتهت حياته هناك، بين خيله وسياراته وخدمه

وحشمه، كما تخيّل كيف تنتهي حياة اللوردات.

ليس كل لوردات الإنجليز أخياراً، فقد خرج من بينهم قتلة ولصوص ومزورون ونصابون. ولكن الأخيار منهم، يتمتعون بجاذبية لا تنكر. وخِيارهم أكثر. يكونون أثرياء في الغالب، أو ميسوري الحال على أقل تقدير، فينشأون بمنأى عن الخلال التي تتأتى للناس بسبب الصراع من أجل لقمة العيش. ويعيشون في دور رحبة، تحيط بها أكثر الأحيان مزارع واسعة، فيعلق بأشخاصهم إحساس السّعة والرّحابة. وفي تقاليد أسرهم طلب العلم، أما عن رغبة أو وجاهة، فيلحقون بالمدارس العريقة، مثل «هارو» و«أيتن» و«رقبي» ومن ثم يمضون إلى إحدى جامعتين، لا غير، إما «اكسفورد» وإما «كيمبردج». وعادة يلحق الابن بالمدرسة نفسها، مثل أبيه وجدّه، والكلية نفسها، والجامعة نفسها.

وعندهم الوقت والمال للسفر والاطلاع والتمتع بالموسيقى والأوبرا والباليه وما شابه، ولا بد أن كل هذا يكسبهم ثراء روحياً واتساعاً عقلياً كما لا يتاح لغمار الناس. وفي طبع الأخيار منهم بساطة وبعد عن التكلف، لأن التصنع والكبر وما شابههما، أمور مبعثها فقدان الثقة بالنفس، وهؤلاء لديهم ثقة بأنفسهم لا حدود لها.

حيّرني دائماً ما ورد في الإنجيل «الذي ليس عنده يُؤخذ منه، والذي عنده يعطى ويزاد». كان «منسي» يتمثل كثيراً بهذا القول أيضاً، حسب ما تقضي الظروف. إلّا أنه قول ينطبق على هذه الطبقة. يكونون أكثر وسامة من بقية خلق الله، فيتزوجون نساء جميلات. ويكونون أثرياء، فيتزوجون بنات الأثرياء. وقد تزوج عدد منهم أمريكيات من عائلات ثرية، طلباً للمال في الغالب، فالأمريكان

تغريهم الألقاب ويشترون العراقة بالمال. منهن أم ونستون تشيرتشل وأم هارولد ماكملان وأم لورد «هيلشام».

أنجبت هذه الطبقة، إلى جانب رجال الحكم والسياسة، أشخاصاً مشهورين في عالم الأدب والفن والفكر. منهم الفيلسوف الكبير «برتراند رَسِلْ» والروائية المعروفة «ڤرجينيا وولف» والناقد الأدبي البارز «لورد سيسيل» والشاعر الرومانسي الذائع الصيت «لورد بايرون».

وفي هذه الطبقة تقليد قديم بعدم المبالاة يلخّصه شعار «آل سيسيل» المنحدرين من صلب أحد وزراء الملكة إليزابيث الأولى «آل سيسيل لا يعبأون بأحد». يظهر هذا في عدم تقيدهم بالأصول المتبعة في المأكل والملبس والسلوك، فتراهم أحياناً في ثياب رثة، ويلبسون الجاكتات المرقعة، فأصبحت موضة، وصار الناس يضعون رقع الجلد تقليداً لهم. وعندهم أن التأنق في الملبس والإسراف في التظاهر من علامات «الوضاعة».

ربما يفسر عدم المبالاة هذا، أن كثيرين من أفراد هذه الطبقة، دافعوا بشجاعة عن قضايا الشعوب المستضعفة، وثاروا في وجه طبقتهم نفسها. من هؤلاء «لورد بايرون» الذي انحاز إلى جانب اليونانيين في حربهم ضد الأتراك العثمانيين، و«لورد ولْفرد بلنْت» الذي أيد الثورة العرابية في مصر ضد الاستعمار الإنجليزي، وظل يدعو للقضية المصرية طول حياته. و«لورد كيرْزُن» العتيد، الذي قال قولته الشهيرة في مجلس الوزراء، قبل صدور وعد بلفور «أنتم تتحدثون عن إقامة «دولة» يهودية في فلسطين، والأرض ليست خالية من السكان».

هذه الطبقة، ما تزال تمسك بمقاليد الأمور في بريطانيا في واقع الأمر، رغم ما يبدو على السطح من تحولات اجتماعية وسياسية. وقد احتفظوا بنفوذهم بسبب قدرتهم على التأقلم ومجاراة التغيرات الاجتماعية. لذلك فهم، حين تقتضي الظروف، يتبنون زعماء من الطبقات الوسطى والسُّفلى. وقد جعلوا دزرائيلي الفقير اليهودي الأصل، رئيساً للوزارة، وكذلك «لويد جورج» الذي نشأ نشأة فقيرة في ويلز، ومارغريت ثاتشر التي تنتمي إلى طبقة العمال وصغار التجار.

كان «منسي» منجذباً إلى هذه الطبقة، وكانت له صلات مع بعض أفرادها. ولعل تلك الصلات هي التي حالت بينه وبين الطرد من إنجلترا، حين اقتحم قصر بكنجهام دون وجه حق. لا عجب أنه سعيد الآن بهذا اللقاء مع «مستر كامرون» فقد رأى فيه سمات لورد من لوردات الإنجليز.

■ ■ ■

وجدنا في مستر «كامرون» إنساناً متحضراً مستنيراً متواضعاً. ولو كان بخلاف ذلك لالتمسنا له العذر. النجاح يغري بعض الناس بالغطرسة والخيلاء، وهذا رجل مهم، في موقع مهم، في قطر ناجح. بل إن البناء الذي يجلس فيه، هو رمز من رموز الإنجاز البشري في هذا الركن من الأرض. ما أطول الطريق الذي سارته أستراليا منذ أن أفرغت سفن كابتن «فيليب» حمولتهم من «المجرمين» في ذلك الصباح من عام ١٧٨٨. وكأنما تاريخ أستراليا حتى هذه اللحظة هو بمثابة محاولة مستمرة للهروب من تلك البداية. لقد وصموا بأنهم ينحدرون من أصلاب مجرمين، فظلوا يحاولون أن يقنعوا العالم

بأنهم لا يقّلون تحضراً عن مراكز الحضارة العريقة في أوروبا.

مبنى دار الأوبرا الوطنية حيث نجلس الآن في مكتب مستر «كامرون» تحفة معمارية وعجيبة من عجائب الدنيا، يسمونها «عجيبة الدنيا الثامنة». وإنها كذلك. مثل سفينة ذات أشرعة عدّة توشك أن تنطلق في البحر. وأحياناً يبدو المبنى مثل طائر خرافي كثير الأجنحة على أهبة أن يثب في الهواء.

كان مستر «كامرون» فخوراً بذلك الإنجاز، ولكنه لم يكن مزهوّاً به، ربما لأنه كان يدرك الثمن الفادح الذي دفعه شعب الـ«أبوروجنيز» المسكين. كان فيما يبدو مهتماً اهتماماً عميقاً بذلك الجانب من تاريخ أستراليا. ولعله تعمّد أن يفهمنا أن الموقع الذي أقيمت عليه دار الأوبرا «بنلونْق بوينت»، قد سمّي باسم رجل من الأبوروجنيز، كان من أوائل من اتصلوا منهم بالأوروبيين الوافدين، وسرعان ما ألمّ باللغة الإنجليزية إلماماً كافياً مكّنه من أن يقوم بمهمة المترجم بين البيض والأبوروجنيز. سعدوا به فأرسلوه إلى إنجلترا، كما ترسل الحيوانات النادرة، ليتسلى به الناس. هناط قضى وقتاً جميلاً، ألبسوه الثياب الأوروبية، وكانوا يُحضرونه في الحفلات يتفرجون عليه يرقص ويغني. لكنه لم يلبث أن مل كل ذلك، وثاب إلى نفسه، وأحس برغبة عظيمة في اللحاق بقومه، فعاد إلى أستراليا. وجد أنه قد تغيّر ولم يعد يألف العيش مع قومه، فعاش في كوخ منعزل بنوه له في ذلك الموضع، ولجأ إلى السكر والعربدة. ولم يلبث أن مات وحيداً تعيساً. كان «بنلونْق» المسكين من أوائل الضحايا لما يُعرف الآن بـ «الصدمة الحضارية» وشهيداً من شهداء الغزو الثقافي الأوروبي.

أكبرتُ في مستر «كامرون» أنه حكى لنا تلك القصة، حكاها ببساطة، وكأنه أراد أن يكسر حدّة دهشتنا بذلك الإنجاز الكبير. كأنه أراد أن يقول: إن التقدّم له ثمن، وأحياناً يكون الثمن أعلى بكثير من التقدم الذي ينتج عنه.

أهل الحكمة والعلم والفكر في أستراليا، بدأوا يقولون الآن، إن التقدم المادي الذي تحقق، لا يبرّر الثمن الباهظ الذي دُفع، بالقضاء على شعب الأبوروجنيز وثقافته الفريدة. إلا أن كل ذلك قد يبدو لك شيئاً بعيداً لا تكاد تحس وخزه، في صباح مثل هذا في مكان مثل هذا وأنت تنظر من نافذة مستر «كامرون» إلى البحر يزرقُّ ويخضرُّ في ضوء الشمس. ولعلك لا ترفض الرأي الذي عبّر عنه «تشارلز دارون» عام ١٨٣٦:

«... وبهذا تخلق بلداً جديداً رائعاً... مركزاً مضيئاً من مراكز الحضارة.. فقد نجحت التجربة بدرجة لا مثيل لها في التاريخ».

أخبرنا مستر «كامرون» أنهم شرعوا في البناء عام ١٩٥٩. وكانوا قد اختاروا تصميماً لمهندس معماري شاب من الدنمارك يدعى «يُورْن اتْزن» لم يكن معروفاً حينئذ، ولكن المحكمين في المسابقة العالمية التي أعلنوا عنها، استهواهم التصميم لطرافته وجرأته. وقد قدّروا أن البناء لن يكلف أكثر من سبعة ملايين دولار، ولن يستغرق إنجازه أكثر من أربع سنوات. ولكنه لم يتم حتى عام ١٩٧٣، وكلّف ١٠٢ مليون دولار.

افتتحته ملكة بريطانيا في احتفال ضخم دعي له أناس من مختلف أنحاء العالم، اشتهروا في مجالات السياسة والثقافة والفنون. وقد

تألّقت الأضواء في سماء مدينة «سيدني» التي أمضت أسابيع في الأعياد والاحتفالات. ولا بد أن الأستراليين قد أحسوا يومئذ أنهم قد محوا إلى الأبد وصمة العار التي لاحقتهم قرابة مائتي عام، وأنهم قد «أعتقوا الزمان من إساره» كما يقول شيكسبير.

قال مستر «كامرون» بشيء من الفخر:
«لم تدفع الدولة دولاراً واحداً من نفقات هذا المشروع».

سألناه كيف حدث ذلك فأجاب:
«لأننا جمعنا المال من الشعب بواسطة «اللّوتري» ـ اليانصيب. هذا إنجاز شعبي بحق».

ذلك إحساس تجده عند الأستراليين أينما اتجهت، أن «الشعب» هو السيّد، وأنهم أقاموا مجتمعاً حرّاً حرية حقيقية، لا تكبله أي من القيود التي تكبل المجتمعات القديمة في أوروبا. ليست فيه فوارق ولا طبقات. مثل مبنى دار الأوبرا في «سيدني». شيء جديد طريف، مثل طائر يطير بعدة أجنحة. الله أعلم. صحيح أن الإنسان هنا يحس أن كل شيء ممكن، وأنه يستطيع، مهما كانت ظروفه، أن يصل إلى أقصى ما تمكنه قدراته. ربّما. ولكنك تعلم من قراءة تاريخهم أن ذلك يحدث ضمن حدود معيّنة، وأنهم ليسوا معصومين كليّة من النقائص التي هي في طبع الإنسان في كل مكان.

هذا البناء ليس كما يوحي اسمه، وقفاً على الأوبرا، فهو يضم مسارح وقاعات لعرض الأفلام، وصالات لعرض الرسوم، وقاعات للموسيقى والباليه. تجولنا في أنحائه. وزاد عجبنا مما رأينا داخله.

وقد حدّثونا، أن الفرق المسرحية والموسيقية وفرق الأوبرا والبالية، تجيء للعرض هنا من لندن وباريس وموسكو ونيويورك وستكهولم وغيرها، وأن الدار تقدم نحو اثني عشر عرضاً متنوعاً كل يوم، وأن أكثر من مليون ونصف متفرج يدخلون الدار في العام الواحد.

إنه أمر مدهش حقاً. ولكنني حدثت نفسي بعد ذلك، أنني لو كنت أحد أفراد قبيلة الـ«أيورا» التي كانت تقطن «سيدني» قبل مجيء الأوروبيين، وأبادوها أو كادوا، فإنني لن أجد عزاء في كل هذا العالم الجميل. لن أجد عزاء عن «دروب الفناء» التي تقطعت، والديار التي عفت، وعن «زمن الحلم» الذي مضى إلى غير رجعة.

■ ■ ■

يروي الـ «أبوروجنيز» في أساطيرهم، أن نهر «مورمبدجي»، وهو أحد نهرين تقوم عليهما مدينة «كانبرا» اليوم، كان في زمن مضى، حدّاً فاصلاً بين قبيلتين طال بينهما الخصام والنزاع، ثم اجتمع الحكماء من الجانبين، حكماء القبيلة التي تسكن الضفة الجنوبية من النهر، وحكماء القبيلة التي تسكن الضفة الشمالية من النهر. تفاكروا في أمورهم وما صارت إليه أحوالهم، وقدروا أن السلم خير من الخصام، وأن في الأرض على عدْوتي النهر، متسعاً لهم جميعاً.

بدا لهم أن الخصام والنزاع، إنما يشجران بسبب الاختلاط والمعاملات، يشتم سفيه من سفهاء القبيلة الشمالية سفيهاً من سفهاء القبيلة الجنوبية، وهذا يضربه، فتشتعل النار، وربما يلاحق صيّاد جشع، سمكة أعجبته إلى الضفة الأخرى، فيرميه واحد من هناك

بسهم. وقد يعبر فتية نزقون النهر ليلاً إلى الضفة الشمالية، لأنهم رأوا كوارة عسل معلقة في شجرة «يوكالبتس» فأغراهم المنظر، فيعترض سبيلهم فتيان من الضفة الشمالية. وكل قبيلة ملتزمة بحماية أبنائها، ولو كانوا سفهاء، فإذا هي الحرب، وإذا هو القتل والجرح والضرب. وقد تدوم الحرب أشهراً وقد تدوم أعواماً.

رأى حكماء القبيلتين، أن ذلك حمق لا يجوز، وضلال ما بعده ضلال. وقرَّ رأيهم على أن يضعوا حداً لأسباب الخصام، بأن تلزم كل قبيلة حدّها وراء النهر. كل قبيلة تعيش في أرضها مستقلة عن القبيلة الأخرى، لا تلتقيان إلا في المواسم الكبرى مع بقية القبائل.

أخذوا العهود والمواثيق، والتزمت كل قبيلة بما عاهدت عليه. فانقطع دابر الشقاق، وحل السلم، وطاب العيش، كل في أرضه. وسعد الحكماء على عدوتي النهر.

مضى ردح من الزمن. ثم ذات صباح جميل، من هذه الأصباح التي تُغري بالمغامرة وتجرُّ وراءها الشقاء، رأى فتى محارب مزهو بنفسه، من القبيلة الجنوبية، فتاة من القبيلة الشمالية تسبح وحدها في النهر. كانت هي الأخرى مزهوة بشبابها سعيدة بالشمس والمياه الصافية، وخضرة الغابات، ونداءات الطيور من غصن إلى غصن، فكانت تضحك وحدها كأنما للاشيء. تغطس ثم تطفو. وتسبح مسافة ثم تستلقي على ظهرها تنظر إلى السماء، وصدرها العاري يلمع في الضوء ويختفي ويبين كأنما من فُرجات غيم خفيف.

وقف الفتى ينظر إليها كالمأخوذ. ثم ضحك هو أيضاً. أخذ يضحك ويلوّح برمحه، فلوّحت له بيدها.

في اليوم الثاني ناداها:
«ما اسمك؟».

نادته وهي تقترب من منتصف النهر، وأسنانها مثل حبّات اللؤلؤ تلمع في ضوء الشمس، في وجه مثل العسل المجنيّ من شجر الكافور:
«بومن قالانا.. بومن قالانا.. وأنت ما اسمك؟».
«قبا قُمبالِن».

حمل الصدى نداء الفتاة والفتى من شاطئ إلى شاطئ، وأخذ الشاطئان يناديان:
«بومن قالانا.. قُبا قُمبالن».

في اليوم الثالث دخل الفتى الماء وكأن قوة غامضة تشده، وسبح صوب الضفة الشمالية، الفتاة تجذبه إليها بوجهها العسلي وأسنانها البيضاء وضحكاتها العذبة. وصل منتصف النهر، فسبحا مع التيار جنباً إلى جنب حتى وصلا جزيرة صغيرة وسط النهر، بعيداً عن أعين الرقباء.

أخذا يلتقيان كل يوم، وأعطاهما الحب جرأة، فكان الفتى يسبح أحياناً إلى الضفة الشمالية، والفتاة تسبح إلى الضفة الجنوبية.

وازدادا جرأة، فلم يعودا يكترثان أن الفتاة ممهورة لفتى من قبيلتها، والفتى ملتزم لفتاة من قبيلته، وقرّ عزمهما على الفرار سرّاً إلى التلال البعيدة.

ثم، كما كان مقدّراً أن يحدث، كشف الرقباء سرهما، فأسرعوا يخبرون حكماء القبيلتين.

أدرك هؤلاء لأول وهلة، أنهم إذا لم يتداركوا الأمر، فإن كارثة سوف تحدث. سينهار السلم الذي أظلّهم زمناً طويلاً، وسوف تنشب الحرب، ويعودون إلى ما كانوا عليه من خصام وشقاق.

اجتمع حكماء الشمال وحكماء الجنوب وتفاكروا في الأمر. قال أحدهم عفو الخاطر، دون أن يمعن النظر:

«أرى أن ندعهما ينجوا بنفسيهما. ماذا يضيرنا في ذلك؟ ونعود إلى ما كنا عليه».

لكن رأيه لم يجد قبولاً.

وأشار حكيم منهم، لعله كان أبعد نظراً مما ينبغي، أن يقبلوا بالأمر الحاصل، ويزوجوهما، فربما يكون ذلك بداية عهد جديد من التعايش السلمي بين القبيلتين.

أيضاً هذا الرأي لم يجد استحساناً، ونظر الحكماء إلى قائله كأنه مجنون.

وأخيراً وصلوا إلى حل رأوا أنه الحل الحسام. أجمعوا رأيهم على قتل الفتى والفتاة العاشقين، وبذلك يقضون على الفتنة في مهدها، وتكون دماء العاشقين ثمناً زهيداً لدوام السلم بين القبيلتين.

في ليلة كثيفة الظلام، تسلل «قُبْا قمبالن» من الضفة الجنوبية، ودخلت «بومن قالانا» من الضفة الشمالية. سبح كل منهما تجاه الآخر، والتقيا في منتصف النهر. كانا ينويان السباحة أسفل النهر، ثم ينطلقان نحو التلال البعيدة. لم يكادا يلتقيان حتى انهالت عليهما الرماح من الضفتين. أخذا يسبحان والدماء تنزف من جسديهما حتى وصلا الجزيرة. هناك أسلم كل منهما روحه.

تقول الأسطورة إن غابة البومن الكثيفة التي نمت في تلك البقعة من النهر، هي الرماح التي أرْدَتْ الحبيبين، وأن دماءهما صبغت مياه النهر حتى وصلت إلى الصخور في ذلك الموضع، فهي حمراء إلى اليوم، وأن الضفادع على الضفتين ظلت تبكي عليهما إلى يومنا هذا، تنادي ضفادع الضفة الجنوبية باكية «قُبْا قمبالن» فتجيبها ضفادع الضفة الشمالية «بومن قالانا».

■ ■ ■

في أساطير الـ«أبوروجنيز» من جنوب أستراليا، أن جد القبيلة الأول، كان يخاطبهم كل صباح من جذع شجرة صمغ. يجيء أفراد القبيلة عن بكرة أبيهم كل صباح، ويجلسون في حلقة حول جذع الشجرة. ينتظر الصوت حتى يكتمل العدد، وإذا غاب أحد منهم، يحتجب، فلم يكن يتخلف أحد منهم. حتى الرجال المسنون، حتى النساء اللائي أثقلهن الكبر، حتى الأطفال الرُّضع يجيئون على صدور أمهاتهم.

يجلسون صامتين ينتظرون أن يخرج إليهم الصوت من جذع الشجرة. أحياناً يطول انتظارهم وأحياناً يقصر. يعمق صمتهم

وترهف أحاسيسهم، فإذا بالهواجس والمخاوف والأحلام والآمال لكل واحد منهم، كأنها هاجس واحد وخوف واحد وحلم واحد لهم جميعاً. حينئذ يخرج الصوت من جذع الشجرة. يحدثهم عن أشياء يعرفونها وأشياء لا يعرفونها، أشياء تتصل بسير حياتهم اليومي، وأخرى ترتبط بأمور مبهمة من ماضيهم ومستقبلهم.

ويحسّون وقعه بطرائق شتى. يجد الرجل البهجة، كأنه غطس في ماء النهر أول الصباح. ويحس بالخوف، كأن فهداً باغته في الغاب. ويجد اللّذة، مثلما يجد حين يتنفس رائحة الشواء من لحم أرنب بري. ويجد الطمأنينة، كأنه في كوخه آخر المساء، وقد سكنت الحياة، وعنده زوجته وأطفاله. وتستمع المرأة إلى الصوت وطفلها يرضع من ثديها، فتشملها متعة غامضة لا تدري من أين تأتي، هل من فم الطفل أم من جذع الشجرة. وقد يحس الواحد منهم، أنه بئر عميقة الغور وأن الصوت يخرج من تلك البئر.

وحين ينفضّون، يجدون أن الأشياء قد اعتدلت واتخذت أوضاعها الصحيحة. الكدر الذي علق بالحياة، كما يعلق الغبار بأوراق الشجر، فجأة يختفي كما تغتسل الأشجار بماء المطر، فإذا العالم كأنه ولد لتوّه. الخلافات التي قد تكون شجرت بينهم تبدو خفيفة مثل أجنحة الفراش، والحقد يذوب وينبت محله شعور حلو المذاق بالود والانتماء الكلي. يضحكون لأوهى سبب ودون سبب، ويجدون رغبة في الغناء والرقص، ويتذكرون أشياء تجلب السعادة، كانوا قد نسوها. وكذلك يمضي بهم اليوم.

مضت حياتهم هكذا ردحاً، لا تتعكر حتى تصفو ولا تضيق حتى تتسع. وذات صباح جاءوا كعادتهم إلى جذع الشجرة، ولبثوا

ينتظرون أن يخرج إليهم الصوت. لا شيء. أدركوا بعد مدة أن عددهم لم يكتمل، وتفقدوا أنفسهم فوجدوا أن شاباً منهم لم يحضر. بحثوا عنه فلم يعثروا عليه. طال انتظارهم ولا صوت، ولما يئسوا تفرقوا وهم يحسون بحزن عظيم. وكان أكثرهم حزناً الحكماء، فقد أدركوا أن كارثة سوف تحل بالقبيلة.

في اليوم الثاني تخلف آخرون، وفي اليوم الثالث زاد عدد المتخلفين، وكان الحكماء يجيئون كل صباح ومن بقي معهم من الناس، ويجلسون اليوم بطوله على أمل أن يخرج لهم صوت أبيهم من جذع الشجرة، ولا صوت، فينصرفون أكثر خوفاً وكآبة.

وأخيراً حتى الحكماء يئسوا من سماع الصوت.

فكّروا طويلاً في مغزى ما حدث، ثم اهتدوا إلى أن قوى شريرة لم يحسبوا حسابها، تسللت إلى أفئدة الناس، وباتت توسوس لهم. استجاب لها الشباب أول الأمر، ثم تبعتهم غالبية القبيلة. كان شعور قد نما لدى الناس، بالضيق من نفوذ الصوت القديم. ونمت لديهم، والحكماء لا يعلمون، الرغبة في الانطلاق، والحياة بعيداً عن أوامر الصوت ونواهيه.

وبالفعل، بدت لهم حياتهم الجديدة أول الأمر، أفضل مما كانت. أصبح كل إنسان على هواه يفعل ما يحلو له، لا يزعجه ذلك الصوت بحدوده وقيوده. وكان الحكماء يراقبون ما يجري، وينتظرون وقوع الكارثة.

مضى زمن على تلك الحال والناس سادرون في لهوهم. لاحظ

الحكماء أن أصوات الناس أصبحت تحتد في الكلام، وأن الصغار لم يعودوا يكترثون لنصح الكبار، وأن الطقوس القبلية فقدت بهجتها، وأن القوي لم يعد يساعد الضعيف، وأن القبيلة بدأت تتفكك وأصبح كل شخص قائماً بذاته. وأخيراً حدث ما خشيه الحكماء، تشاجر شابان، فقتل أحدهما الآخر.

لم يحدث طوال تاريخهم أن اعتدى فرد من أفراد القبيلة على آخر. أحسّوا بكآبة لم يعرفوها من قبل. وساورهم الخوف، كأن مياه النهر قد فاضت، وأن الجبال قد ارتجت وتفتتت، وكأن حريقاً هائلاً قد اشتعل في الغابات. وانتبهوا فجأة أن صمتاً رهيباً قد نزل على العالم. سكنت الريح، واستقر الماء على حالة واحدة، وصمتت الطيور والضفادع والحشرات، ولم يعودوا يسمعون حساً لوحوش الغاب، وبدت لهم الأشجار مغبرة كدرة، كأن قد ران عليها غبار قرون. أحسّوا بالحيرة والضياع.

قام الحكماء، ومشوا حزانى مثقلي الخطى، وجلسوا عند جذع الشجرة. لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه. ورويداً رويداً أخذ الناس يلحقون بهم. واحداً واحداً. واثنين اثنين. وجماعات جماعات. إلى أن جاءت القبيلة عن بكرة أبيها، وتحلقوا حول جذع الشجرة.

تكثف صمتهم ورقّت مشاعرهم وتجمعت هواجسهم فكأنهم سمك في شبكة محكمة النسج. ولما مالت الشمس للغروب وكادت تختفي وراء الأفق، وبلغت أشجانهم أقصى مداها، فجأة سمعوا الصوت.

تحدث إليهم كما كان يفعل من قديم. حدثهم عن أشياء يعرفونها

وأشياء يجهلونها، أشياء عن حياتهم الآن، وأشياء مبهمة عن أمس الأمس وغد الغد.

وجدوا لكلماته حلاوة أكثر مما عرفوه من قبل، فاستمعوا إليه وهم يبكون.

ولما فرغ الصوت، تريث حتى هدأ العويل وكفت الدموع. ثم قال لهم إنهم لن يسمعوه بعد يومهم ذاك، ولكنهم سوف يجدونه إن احتاجوا إليه، وسوف يعطيهم إشارة فليفهموا جيداً مغزاها، وإذا التبس عليهم الأمر فليسألوا الحكماء.

انشقّ جذع الشجرة في دويّ مثل قصف الرعد، وخرج من الجذع عمود من الضوء الساطع، صعد وتطاير أشعة كثيرة. بعضها سقط في مياه النهر، وبعضها غاب في التلال، وبعضها تناثر في الغابات، وبعضها توارى في الكهوف وبعض الأشعة اندسّت في أجساد الحكماء.

■ ■ ■

يروي الـ«أبوروجنيز» في أساطيرهم قصة مأساوية عن نشأة سمك القرش، وعقرب البحر التي لا نجاة من لدغتها، وكان سبب المأساة امرأة.

تقول الأسطورة إن أخوين كانا يحب أحدهما الآخر حباً جماً، تجدهما دائماً متلازمين، لا يفترقان أبداً. كانا وسيمين قويين، تراهما القبيلة زينة شبابها. كان «بوبادي» أكبر الأخوين، أسرع شبان القبيلة في العدو، وأرماهم بالرمح. وكان الأصغر «غردانق» أكثرهم مهارة

في السباحة وأحسنهم في رمي الـ«بومرانج». كانا يقضيان سحابة يومهما معاً، يصطادان السمك أو ينصبان الشراك للطير والوحش، ويتنافسان في العدو ورمي الرمح والـ«بومرانج».

وفجأة وقع الأخ الأكبر «بوبادي» في غرام فتاة من فتيات القبيلة. كان أخوه على غير علم منه، يحبها أيضاً. إلا أن الفتاة استجابت لحب «بوبادي» وبادلته حباً بحب. شعر «غردانق» بخيبة الأمل، وزاد من إحساسه بالمرارة أن أخاه لم يعد يقضي معه كل وقته، كما كان، بل أصبح يؤثر صحبة حبيبته.

كان «بوبادي» دمث الخلق، ضحوكاً بطبعه، إلا أن حبه لتلك الفتاة أعطاه سعادة غامرة، جعلته يبدو في نظر أخيه شخصاً مختلفاً. وبقدر ما كان «بوبادي» يزداد سعادة كان «غردانق» يزداد تعاسة. ولما تزوج «بوبادي» حبيبته، تحولت مرارة «غردانق» إلى حقد امتلأ به قلبه، وملك كل أحاسيسه. أصبح أخوه الذي كان يحبه حباً جماً حتى الأمس القريب، عدواً بغيضاً لن يتردد في قتله إذا عنّت له فرصة.

أصبح يتودد، وراء ظهر أخيه، إلى الزوجة، وهي تصده، فقد كانت تحب «بوبادي» بحق. وكان «غردانق» يزداد حباً لها رغم ذلك، حتى صارت عاطفته هوساً لا يفارقه.

وذات يوم انتهز الأخ الأصغر فرصة غياب أخيه في سفر، فانتظر حتى جاء الليل، فأخذ الزوجة قسراً وهرب بها إلى مكان بعيد على شاطئ البحر.

ظن «غردانق» أنه قد حقق حلمه، وأنه سوف يعيش سعيداً مع

حبيبته، يصيدان السمك، ويسبحان في البحر، وينصبان الشراك للطير، ويبنيان عشاً هانئاً بعيداً عن القبيلة. ولكن سرعان ما خاب ظنه، فقد كانت المرأة تحب زوجها بحق، فكانت تقضي كل وقتها في البكاء والعويل. وكانت كلما اقترب منها تركله أو تنشب أظافرها في وجهه.

عاد «بوبادي» من سفره، وعلم بما حدث. تألم ألماً عظيماً لفعلة أخيه، ومن فوره، انطلق يبحث عنه.

وقف الأخوان وجهاً لوجه، على صخرة عالية، وتحتها الشاطئ وهدير أمواج البحر.

نظر «بوبادي» طويلاً في وجه أخيه وأحس بالحزن حتى امتلأت عيناه بالدموع. لم يكن الشخص الذي يقف أمامه هو أخاه الذي عرفه وأحبه. عبرت برأس «بوبادي» ذكريات حياتهما معاً في أيام الطفولة والشباب، حين كانا مثل شخص واحد، لا يفترقان، يسبحان في البحر، ويتنافسان في رمي الرمح وال«بومرانج» ويصيدان ال«كانغرو» والأرانب البرية. رأى «بوبادي» شخصاً مختلفاً مكفهر الوجه، جاحظ العينين كأنه مجنون، أو كأنه روح من تلك الأرواح الشريرة التي تحكي عنها أساطير القبيلة. وفجأة سمع «بوبادي» صوت زوجته يأتيه كأنما من كهف، تستغيث وتنادي باسمه، فتوتر جسمه وفار الغيظ في صدره.

اندفع الأخوان أحدهما نحو الآخر، وكل واحد منهما مصمم على قتل الآخر. تعاركا بشراسة على الربوة العالية، وكانا في شغل عن البحر فلم يسمعا هدير الموج تحت أقدامهما. وسمعت المرأة عراك الأخوين بسببها، فسكنت وأرهفت السمع.

كان «غردانق» قوياً، فقاوم مقاومة عنيفة، وكاد أحياناً أن ينتصر على أخيه. ولكن «بوبادي» كان أقوى منه، وضاعف من قوته أنه كان مظلوماً، وأن أعراف القبيلة وأرواح الأسلاف كانت تقف إلى جانبه وتقاتل معه. تمكن من أخيه وطرحه أرضاً وأراد أن يهشم رأسه بصخرة كبيرة. ولكن جسمه لم يطاوعه. قوة ما شلت ذراعه وأسقطت الحجر من يده.

أدار ظهره لأخيه، وقد عزم على أن يأخذ زوجته ويذهب. أحس بغتة بسلاح الـ«بومرانج» ينغرز بين كتفيه. ترنح وسقط أسفل الربوة على شاطئ البحر والرمح في يده. قفز «غردانق» إثره فإذا بالرمح المشرع ينغرس في بطنه وينفذ من ظهره. حينئذ جاء البحر وحمل جثتي الأخوين إلى جوفه.

تحول الـ«بومرانج» المغروس في كتف «بوبادي» زعنفة في ظهر سمك القرش، وصار «بوبادي» سمك قرش، كلما رأى إنساناً، يظنه «غردانق» فينقضّ عليه. وتحول نصل الرمح في ظهر «غردانق» إلى ذنب عقرب البحر، وأصبح «غردانق» عقرب بحر يظن كل إنسان هو «بوبادي» فيلدغه.

■ ■ ■

في الزمان البعيد، حين كانت أساطير الـ«أبوروجينز» ما تزال في طور التكوين، عاش أخوان، أحدهما يُدعى «كاركان» والثاني يدعى «ونجو».

كان «كاركان» عظيم الجسم، تعطيه قوته الجسدية جسارة وهيبة، كانوا يشبّهونه بالسبع في قوته وبالنمر في رشاقة حركته، وبالثعلب

في دهائه، وبالنعام في سرعة عدوه، لم يكن له ندٌّ من بين فتيان القبيلة في الشراسة في القتال، والمهارة في استعمال الـ«بومرانج» ورمي الرمح. كان بلا منازع، فارسهم المعلم، وحامي حماهم.

إلّا أن القبيلة رغم إعجابها به، فإنها لم تكن تحبه. فقد كان متغطرساً متهوراً سريع الغضب خشن الطبع. ولم يكن يكترث لنصح حكماء القبيلة، وقد جرّهم بنزقه وحمقه إلى صراعات مع جيرانهم لم يكن لهم يد فيها. لذلك لم يكونوا يحبونه، وكانوا يؤثرون عليه أخاه الأصغر «ونجو».

كان هذا على النقيض من «كاركان» دمث الطبع، سمح النفس، دائم المرح. وكان صغير الحجم بالقياس إلى أخيه، لا يميل إلى النزاع والشجار، ولكنه يفضل السباحة في النهر، والسياحة في الغاب ينظر إلى أجنحة الفراش بألوانها العجيبة. ويقلد أصوات الطيور والوحوش، ويجني العسل والتفاح البري. كان له صوت عذب، حين يغني به في العشيات، تجتمع حوله القبيلة رجالاً ونساء يصغون إليه.

هذا الحب كان يغيظ «كاركان» ويوغر صدره على أخيه.

ليس هذا فحسب، ولكن «ميرومورا» زينة فتيات القبيلة، فضلت هي الأخرى «ونجو» على «كاركان». كان «كاركان» يظن أنه أمر طبيعي أن تختاره هو، ولكن «ميرومورا» الجميلة أحبت «ونجو» لرقة طبعه وجمال صوته، ولطف معشرْ. كان «كاركان» الشرس يبث في نفسها الانقباض، والخوف، إلّا أنها كانت تجد الراحة والطمأنينة في صحبة «ونجو».

باركت القبيلة هذا الاختيار، وفرحت به، وأخذت تستعد للعرس.

شعر «كاركان» بالإهانة والغيظ حتى امتلأ قلبه بالحقد على أخيه وعزم على أن يتحايل على قتله.

في مكان بعيد عن الحي، وسط غابة كثيفة من نبات البوص والعشب، حفر «كاركان» حفرة كبيرة، وغرس فيها أوتاراً كان قد برى أطرافها فصارت حادة مثل أسنّة الرماح، وغطاها بالعشب. ثم تحايل على أخيه وأوهمه أن الصيد يكثر في تلك البقعة، فخرج معه.

سارا جنباً إلى جنب، وكان «كاركان» عابساً ينهش قلبه الحقد، وأحياناً يحس بالخوف، فقد كان الأمر الذي عزم عليه مخالفاً لكل أعراف القبيلة.

لحظ «ونجو» تعاسة أخيه، فلم يفهم سببها، ولكنه حاول أن يسري عنه، فأخذ يمازحه ويضحك له. ثم راح يغني بصوته الجميل، فأرهفت له الطيور على أغصان الشجر، وهبطت الفراشات على الصخور وتلال النمل تستمع إليه.

فجأة كف «كاركان» عن المشي، وقال لأخيه بصوت غريب لشدة غلاظته:

«لنعد إلى الحي. لا يبدو أننا سنجد صيداً حسناً اليوم».

إلّا أن «ونجو» بدأ يستطيب الرحلة، وأسعده وقع غنائه على الطيور

والأشجار والصخور، وتفتحت روحه لفوح عطر الزهور، ونداء الحيوانات في الغاب، فأخذ ينط ويجري ويصرخ ويغني. لذلك لم يسمع صوت أخيه وهو يناديه من بعد:

«لنعد إلى الحي. سوف نجيء في يوم آخر».

وصلا إلى المكان حيث أعد «كاركان» الشرك. أحس فجأة أن الوساوس التي خامرته في الطريق لتمنعه من قتل أخيه قد ذهبت. امتلأ قلبه بالحقد من جديد، واستقر عزمه على القتل.

قال لـ«ونجو»:
«إذا رأيت العشب يرتعش، فإنه صيد. عليك أن تجري بكل قوتك وتقفز عليه وتمسك به، إلى أن ألحق بك».

ثم حرك حبلاً طويلاً كان قد ربطه، فاهتز العشب.

صرخ «ونجو» صرخة القبيلة حين تهجم على صيد، ونط في الهواء بكل قوته، ووقع في الحفرة، فانغرست الأوتار الحادة في جسمه.

تحولت صرخة النشوة إلى صرخة مدوية بالألم، اقشعر لها جسد «كاركان» فجرى دون وعي نحو الحفرة.

تعثرت قدمه بصخور فتطاير منها الشرر، ووقع فارتطم رأسه بصخرة حادة فتهشم ومات في الحال.

أما «ونجو» فإنه لم يمت من فوره، ولكنه ظل أياماً ينبش الأرض

ويحبو والدم ينزف من جسده، فكان من ذلك واد عميق، امتلأ بالدم.

سرت النار من الشرر المتطاير من الحجارة، في مساحة واسعة، أتت على ما فيها، وحولته إلى رماد. من ذلك الرماد خرج طائر أشهب مثل الصقر، ظل يحوّم فوق تلك البقعة.

تقول الأسطورة إن الوادي الذي حفره «ونجو» بجسده هو «وادي الدم» المرعب، وأن الطين الأحمر المقدس الذي يصبغون به أجسادهم لتأدية الطقوس، اصطبغ بالدماء التي نزفت من جسد «ونجو». وتضيف الأسطورة أن الصقر الأشهب الذي يلازم ذلك الموضع، ويظل يحوم فوقه، وبين كل حين وآخر يصرخ صرخة ترتجف لها القلوب، إنما هو روح «كاركان» الذي يبكي على أخيه «ونجو» أبد الدهر.

نبذة عن المؤلف

- ولد في صيف عام ١٩٢٩ في قرية الدبة في الشمال الأوسط من السودان.

- تلقى تعليمه الأولي في قريته، والأوسط في مدينة بورتسودان في شرق السودان، والثانوي في مدرسة «وادي سيدنا» بأم درمان، والجامعي في «كلية الخرطوم الجامعية» (جامعة الخرطوم فيما بعد).

- عمل أستاذاً لفترة قصيرة في مدرسة وسطى بمدينة رفاعة (وسط السودان) وفي معهد «بخت الرضا».

- التحق بهيئة الإذاعة البريطانية (BBC) عام ١٩٥٣، ثم انتقل إلى اليونسكو ثم إلى قطر حيث قضى سبع سنوات مديراً لوزارة الإعلام القطرية، ثم مستشاراً لوزير الإعلام القطري.

- متزوج وله ثلاث بنات.

- من مؤلفاته:

نخلة على الجدول.

دومة ود حامد.

عرس الزين.

موسم الهجرة إلى الشمال.

مريود وضو البيت.

مختارات

١ ـ منسي: إنسان نادر على طريقته!

٢ ـ المضيئون كالنجوم ـ من أعلام العرب والفرنجة